ا.ف. دينيزن

الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر



ترجمة وتقديم: د. أبو العيد دودو



أ. ف. دينيزن

الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر



ترجمة وتقديم: د. أبو العيد دودو

دار هومه



ا. ف. دينيزن

الأمير عبد القادر
والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر

ترجمة وتقديم د. أبو العيد دودو

طبع في 2012



صنف : 4/008
– الإيداع القانوني : 767/1999
– ردمك : 3–378–66–9961–978

www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com

مقدمة المترجم

لم أتوصل ـ للأسف ـ إلى معرفة أي شيء مؤلف هذا الكتاب ا.ف. دينيزن، فكل ما ذكره عن نفسه هو أنه أقام في الجزائر عام 1837، دون أن يحدد المدة، التي أقامها فيها، ولكن الفترة الزمنية، التي يتحدث عنها، تمتد حتى 10 يناير 1839 على التقريب، ومما يؤسف له أيضا أن مترجمه إلى الألمانية لم يضع للكتاب أية مقدمة، ويبدو من اسم المؤلف أنه ينحدر من أسرة دنماركية عريقة. ولا أعلم ما إذا كان كتابه هذا قد ترجم إلى الفرنسية، كما حدث لكتاب بيرنت عن الأمير عبد القادر أم لا. وعنوان كتابه الكامل بالألمانية هو : عبد القادر والعلاقات بين الفرنسيين والعرب في إفريقيا الشمالية، تأليف ا.ف. دينيزن، ضابط في سلاح المدفعية الدنماركية، بطل دانبروغ والوسام الشرفي Abd-el-kader und die Verhältnisse nördlichen Afrika, von A. W. Dinesen, Ritter vom Danebrog und von der Ehrenlegion وقد ترجمه إلى الألمانية أوغست فون كليلتش August von Keltsch ونشره في برلين عام 1840.

ويعتبر المؤلف نفسه، كما ذكر في مقدمته القصيرة، شاهد عيان، وحصوله على الوسام الشرفي الفرنسي، على غرار الكثير من الأوربيين، الذين شاركوا في الحملة ضد الجزائر تطوعا أو بدعوة من الحكومة الفرنسية آنذاك، يؤكد مشاركته في العمليات العسكرية على نحو من الأنحاء، وإن هو لم يشر إلى ذلك على الإطلاق، فهو لم ينسب أي شيء إلى نفسه أثناء روايته للأحداث، التي شاهدها شخصيا أو استقاها من مصادر معينة، وكأنه لم يكن حاضرا، مع أن المعلومات التي يقدمها توحي بعكس ذلك في أكثر من موقف. ثم إن احتواء كتابه على عدة وثائق، حتى ما يبدو منها ذا طابع خاص، قد يدل على حضوره في مكان الحدث معاينة، ولكنه يدل بشكل قاطع على اطلاعه على مصادر مختلفة من جهة، وعلى أنه كانت له صلة بأصحاب القرار كما نقول اليوم من العسكريين والقادة وغيرهم من جهة أخرى.

ويذكر لنا في مقدمته القصيرة السبب، الذي حدا به إلى وضع كتابه هذا، ويتمثل أولا في نشأة الحس الوطني في الجزائر، التي أخذتها الغفوة، كما يقول، عدة قرون، ويتمثل ثانيا في ربط هذا الحس الوطني بشخصية رجل واحد، هو الأمير عبد القادر، الذي استطاع بما وهبته الطبيعة من فطنة وذكاء وموهبة أن يوقظه في القبائل، التي كانت ترفض الخضوع لسلطان أي كان، ويحدد الاتجاه، الذي كان يريد لها أن تسير فيه. وقد يكون دينيزن أول أوربي يضع كتابا عن الجزائر بناء على هذه الروح الوطنية، التي كانت في طور التكوين والنمو حسب

وصفه لها، على أن المؤلف كان يريد في الوقت نفسه أن يسلط بعض الضوء بصفته شاهد عيان على السياسة، التي انتهجتها الحكومة الفرنسية، وعلى التصرفات، التي صدرت عن ممثليها في الجزائر. والظاهر أنه كتبه بمثابة تقرير على نحو ما، قصد تقديمه إلى جهة ما في بلاده، ثم نشره لتعم الفائدة منه ويعرف الناس ما يحدث فيها، خاصة وأن احتلال الجزائر والحرب القائمة فيها كانا محط أنظار العالم كله في تلك الفترة. لقد وضع تقريره أو كتابه هذا رغم ما تخلل ذلك من فترات مختلفة، كما يقول في نفس واحد، جعله يستغني عن تقسيمه إلى فصول . فارتأيت لذلك تقسيمه إلى فصول متقاربة الطول، بلغ عددها ثلاثة عشر فصلا، وكان القصد من وراء ذلك الحد من رتابة القراءة المتواصلة، رغم ما قد يكون في الكتاب من عناصر التشويق، ثم تسهيل عملية المراجعة عندما تكون هناك ضرورة لذلك بالنسبة إلى القارئ والباحث على السواء.

يستهل المؤلف كتابه بإعطاء نظرة عامة عن الجزائر، ويشير في البداية إلى أن الفرنسيين قد حرصوا، بدافع العنصرية طورا، ولمصالح شخصية طورا آخر، على تقديم صورة ملونة عن الجزائر، صعبت على الناس معرفة طبيعتها الفعلية. فاتخذ هو من ذلك سببا لتقديم صورة حقيقية عن موقع البلاد ومناخها خلال تعاقب فصول السنة عليها. ثم يتحدث عن سكانها، الذين يختلفون عن بعضهم البعض جنسا ولغة، منذ أن افتكها العرب من قياصرة الشرق في القرن السابع الميلادي، وأصبح العرب فيها أكثر انتشارا، الأمر الذي جعلهم يحافظون على الطبيعة البدوية، التي تضمن لهم الاستقلال والحرية، مثلما ضمنهما لأنفسهم سكان الجبال من أهاليها في مناطقهم المختلفة.

ويتعرض بعد ذلك للحديث عن استقرار الأتراك في الجزائر عقب انهيار الخلافة العربية الشاسعة الأطراف، وانفصال إسبانيا عنها، ثم إفريقيا، التي عرفت تقسيما آخر، إذ نشأت فيها دولتان إحداهما في فاس، والأخرى في مصر، وكانت هناك مسافة كبيرة تفصل بين الدولتين، مما أدى إلى نشأة مجموعة من الدول الصغيرة المستقلة فيها. ويجسد المؤلف ذلك من خلال تشبيه طريف، فيقول إن ما حدث يشبه عارضة في بناية قديمة أفسدها مرور الزمن، فبقيت نهايتاها عالقتين بالجدار بينما تحول وسطها إلى نشارة. وكانت الجزائر واحدة من هذه الدول الصغيرة، التي كانت تحكمها أسرة أميرية، اضطرتها الظروف إلى الاستنجاد بالأتراك بعد نزوح المسلمين من إسبانيا ومطاردة الأسبان لهم، فجاءوا إليها لنجدتها، ثم ما لبثوا أن قضوا على الأسرة الحاكمة مثلما قضوا على ثقافتها بما عرفوا به من كبرياء وعنجهية، لكنهم لم يستطيعوا القضاء على النزعة الاستقلالية بين القبائل المختلفة من سكان البلاد.

وبعد هذه المقدمة يقصر المؤلف حديثه على منطقة وهران، لأنها مهد الحركة الثورية من ناحية ولأن الصراع تمركز فيها في تلك الفترة من ناحية ثانية، فيذكر مدنها، ويتحدث عن العادات والتقاليد العربية. ومن الطريف أنه يقول عنهم إن : " أقصى رغباتهم الحسية لا تتعدى المرأة وظل الشجرة والعين الباردة، وتمثل حياة الجندية أعظم رغباتهم، وترفهم كله لا يتجاوز الأسلحة والخيول الجميلة. فهم يخشون المدنية الأكثر رقيا، والمكانة الاجتماعية الأكثر ثقافة، لأن ذلك سيكون، إن تم لهم، على حساب حريتهم المستقلة، والظاهر أنهم فكروا في منافع الاثنين ومضارهما، لكنهم اختاروا في النهاية حريتهم... وإذا كانت لهم معارف ومدنية أقل من معارف الأوربيين ومدنيتهم، فإن لهم عوضا عن ذلك ميولا أقوى، وطاقات أكبر، وعقيدة أكثر ثباتا، تقوي فيهم الروح والعزيمة. " ويقوم دليلا على تمسكهم الدائم بعاداتهم وبطرق معيشتهم أن الصفات، التي وصف بها العرب في القديم تنطبق عليهم من عدة نواح، ويورد ما وصف به النعمان بن المنذر العرب أمام كسرى ملك الفرس، ويربط ذلك بالأمير عبد القادر.

ويتحدث عن حياة الأمير عبد القادر وتعلمه للمهارات البدنية، ودراسته للعلوم المختلفة الدينية والتاريخية، ومنها تاريخ فرنسا، قبل أن يتولى السلطنة. ثم ينتقل إلى الحديث عن الفوضى التي عمت منطقة وهران عقب احتلال عاصمتها، فقد اعتبر العرب هذا الاحتلال بمثابة دعوة إلى التخلص من الحكم التركي في المقاطعة كلها، فشبت روح الحرية في الرؤوس عامة دون أن تكون هناك نقطة محددة يلتقي عندها الجميع، فثارت معسكر على الأتراك وطردتهم وحولت المدينة إلى جمهورية، بينما تقاسم الحضر والكراغلة، أصحاب قلعة المشور، الذين انحازوا إلى الفرنسيين طواعية، مدينة تلمسان، وظهر نفس الميل عند سكان مدينتي مستغانم وأرزيو، فكان أن أخذ الأمير عبد القادر الأمر في هذه الظروف بعد أن رفض والده أن يتولى الإمارة في البلاد. ويذكر بهذا الصدد أسطورة جميلة عن التفاحات الثلاث (لكن تشرشل، ص 46، يتحدث عن المفتاح، الذي رآه والد الأمير في حلمه أثناء إقامته في بغداد، ولعل الأمر اختلط على دينيزن أو على من نقل عنه بين المفتاح والتفاح !)، التي قدمها أحد النساك المتعبدين لوالد الأمير قائلا:

ـ هذه التفاحة لك، وهذه لابنك، الذي هو الآن معك، وهذه للسلطان.

وعندما سأله محي الدين:

ـ ومن هو السلطان؟

أجابه:

- إنه ذلك الذي تركته في البيت، ولم تأخذه معك في هذه الجولة.

ويقول المؤلف إن أتباع الأمير يعتبرون هذه الخرافة بمثابة سفر مقدس !

ويقدم دينيزن نبذة عن مقاطعة وهران ومحاولة التونسيين والمغاربة الاستيلاء عليها بصورة مستقلة أو في ظل الحماية الفرنسية، ثم يبين كيف تغيرت الأمور بعد ظهور الأمير عبد القادر، ويقوده الحديث عن الأمير إلى الحديث عن الحصان العربي الأصيل والمقارنة بينه وبين الحصان الجزائري، وعن أسلحة الفارس العربي وطريقته في القتال، وما يتميز به من شجاعة وصمود في مقابلة عدوه واستعداده لخوض المعركة في أية لحظة يجد فيها ما يدعوه إليها.

ويبدأ الحديث بعد ذلك مباشرة عن معارك الأمير ضد أعدائه من المستعمرين الأجانب والخونة من مواطنيه، ويقارن بين الجيشين الأميري والفرنسي، الذي يفوقه من حيث العدة والعدد والحنكة، ويشيد بالمحاولات، التي قام بها الأمير من أجل أن يوحد القبائل العربية ويجعل منها صفا واحدا يقاوم المستعمر ويشدد الخناق عنه في مختلف المناطق، التي تمكن من إخضاعها. ويشير إلى الإشاعة التي راجت عند موت والده من أن ابن نونة هو الذي قتله لاعتقاده بأن الأمير عبد القادر يستمد قوته من نصائح أبيه، ويعلق المؤلف على ذلك بقوله: حتى ولو صح أن ابن نونة قد فعل ذلك، فقد أظهر الأمير أنه جدير بالمنصب، الذي هيأته الظروف لاعتلائه. وراح يشيد بشخصية الأمير وما تميزت به من شجاعة وشهامة وورع وعلم ومعرفة مبرزا كل الصفات التي هيأته للنجاح في كل عمله يقوم به.

ويتحدث عما يتميز به الفرنسيون في الجزائر، وهو أنه ما من مكان نزلوا به إلا اختفت أشجاره، وغاضت عيونه، وهجره سكانه، وتحول إلى صحراء قاحلة، ويربط ذلك بالشمس، التي قال عنها الأمير إنها أكبر عدو للفرنسيين في الجزائر. ويورد جواب الأمير على الرسالة، التي كان ديميشيل قد وجهها إليه، ويفصل القول في المعارك، التي دارت بينه وبين أعدائه من أجانب وخونة، ويقول عن هؤلاء الخونة إنهم كانوا أشد على مواطنيهم من أعدائهم الفرنسيين، حتى إن هؤلاء كانوا يستغربون وقوفهم إلى جانبهم ضد مواطنيهم وإظهارهم من البطولة ما لم يظهره المسيحيون أنفسهم، وكأنه يشير من وراء ذلك إلى أن الخونة يتقربون إلى الأجنبي بخيانة الوطن والقيام بكل ما يرضيه بحماس منقطع النظير !

ويشير إلى أن ديميشيل حاول أن يبرم معاهدة مع العميل مصطفى بن إسماعيل، لكنه سرعان ما أدرك أنه إذا كانت هناك من معاهدة، فإن مثل هذه المعاهدة لن تكون إلا مع الأمير عبد

القادر، وينقل كلمة قالها بهذا الصدد، وهي أنه يريد أن يجعل كل مميزات الأمير في خدمة أغراضه، ويعلق المؤلف على ذلك بقوله : لقد كان على حق في حرصه على عقد معاهدة سلام مع العرب، ولكنه كان على خطأ في اعتقاده بأن السيادة ستكون له. ويذكر المعاهدة وما تضمنته من بنود، ويشيد بلباقة العرب وطريقة تفوقهم على الفرنسيين في كل المفاوضات التي أجروها معهم ويبين كيف اتضح خطأ الرأي العام، الذي كان يعتقد أن هذا الشعب لا يعرف غير الصرامة والقسوة وأنه لا يعترف لا بالحق ولا بالقانون، وكيف كانت أهم نقاط المعاهدة فيما بعد في صالح الأمير عبد القادر ودولته، وينقل جانبا من تقرير توريني عن معسكر الأمير، ومن جملة ما يقوله فيه:

" لقد فوجئت مفاجأة كبيرة جدا عندما رأيت هذا المعسكر الحربي الكامل، وهذه الجموع المسلحة، التي تخضع لرجل واحد، وقد اصطفوا عند قدوم جندي فرنسي. لقد أعجبت إعجابا شديدا بهذه الوجوه المعبرة، والأجسام الضخمة، والعضلات المفتولة، التي هي ثمرة الحرية والحياة الطليقة. وأعجبت بخيولهم التي تتسمع لأدنى حركة، وتظل على أتم الاستعداد للاندفاع عند سماع أدنى ضجة حربية، وقد سبق لها أن برهنت على ذلك في عدة معارك معنا."

ويبدو أن المؤلف ينفرد بإيراد هذا النص، فإني لم أجد له أثرا في المصادر التي أمكنني الاطلاع عليها، وهي طبعا أقل بكثير مما يملكه الباحث المختص أو يسعى إلى امتلاكه أو الاطلاع عليه على الأقل عند الضرورة ! ويربط دينيزن محتوى هذا التقرير بالعودة إلى الحديث عن فروسية الأمير، وذلك ليجعل منه بدوره تمهيدا للحديث عن الأحداث التي وقعت بعد توقيع المعاهدة، وثورة بعض رؤساء القبائل على الأمير بسببها، ومحاربته لمصطفى بن إسماعيل وتغلبه عليه، وهجوم هذا عليه تحت جنح الظلام، وما أشيع عن مقتل الأمير عقب ذلك، ويورد الرسالة التي أرسلها العميل المزاري إلى ديميشيل، يخبره فيها بالهزيمة التي ألحقوها بابن محي الدين على حد تعبيره، وهو تعبير ينم على الاحتقار والشماتة، وقد نشرت هذه الرسالة ضمن رسائل الأمير إلى ديميشيل. غير أن الأمير سرعان ما تمت لها السيطرة على الوضع من جديد، حتى إن ديميشيل أعلن عن رغبته أكثر من مرة في ملاقاته، ولكن الأمير كان يعرف دائما كيف يتجنب مقابلته مختلقا هذا العذر أو ذاك، ويرجع دينيزن ذلك إلى أن كرامة الأمير الوطنية وشموخه العربي كانا يدفعانه في كل مرة إلى اتخاذ هذا الموقف، رغم ما أظهره له ديميشيل من صداقة ومودة.

ويذكر المؤلف كيف استغل الأمير الهدنة مع الفرنسيين لتقوية سلطانه، ونشر نفوذه، وبناء دولته على أسس متينة استنادا إلى معرفته بطبيعة أمته، وكيف أنه كان ميالا إلى الاستفادة من الأوربيين ومزاياهم، حتى إنه أرسل على نفقته 30 طالبا إلى فرنسا لدراسة عدد من المهن والفنون المختلفة، وحرص على تدريب جيشه على القتال تحت إشراف بعض المدربين الأوربيين، الذين كانوا في خدمته. ورغم هذا الإقبال على الاستفادة من الحضارة الأوربية، فإن المؤلف لا يؤمن بصحة ما أشيع عن الأمير في ذلك الحين من أنه رغب في الزواج من سيدة فرنسية وتعهد ببناء كنيسة لها في عاصمته، فما كان الأمير ليكون جادا في مثل هذا الأمر حتى ولو كان ذلك صحيحا، ثم إن الأمير كان له في أسرته ما يغنيه عن ذلك.

ويتعرض المؤلف لمحاربة الأمير للعربيي، فيذكر أنه تغلب عليه، ولم يقتله رغم حكم الإعدام الذي أصدره في حقه القضاة والعلماء، ويتحدث كذلك عن محاربته للدرقاوي وتغلبه عليه، وإرغامه على الفرار أمامه إلى الصحراء، فلم يسئ معاملة نساءه وأطفاله، وإنما عاملهم معاملة حسنة وأرسلهم وراءه، وكانت شهامته هي التي حملته على اتخاذ هاذين الموقفين. ويمضي المؤلف في حديثه، فيشيد أيضا بالأمن الذي ساد البلاد في هذه الفترة، حتى إن الصبي يستطيع، على حد قوله، أن يسير في طول البلاد وعرضها وعلى رأسه تاج من ذهب، كما يقول المثل العربي، دون أن يعترض سبيله أحد. ويصف الأمير بهذا الصدد بقوله: "كانت عبقرية الرجل تحيط بكل شيء، ولما لم يكن يجد حوله في معظم الأحيان إلا القليل ممن يستطيع الاستفادة منهم، فكثيرا ما كان يجد نفسه بسبب ذلك مضطرا إلى الاهتمام بأصغر التفاصيل".

ويتحدث دينيزن عن اهتمام الأمير بالصناعة، وإقامة بعض المصانع بإشراف بعض الأوربيين، خاصة صناعة الأسلحة، وكذلك عن اهتمامه بالقضايا الاقتصادية والتجارية، ويسجل عليه أنه ـ في رأيه ـ لم يكن له إلمام بفن التجارية مثله مثل أمراء الشرق بدون استثناء. ويصفه بالبخل فيما يتصل بحياته الشخصية، حتى إن الأبهة الوحيدة، التي يسمح لنفسه بها لم تكن تتعدى الخيول والأسلحة، ويشفع ذلك بقصة تدل على مدى زهد الأمير في المظاهر الزائفة.

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن العداوة التي بدأت من جديد بين الأمير وجنرالات فرنسا، وخروج تريزيل لمحاربة، والمعركة، التي وقعت بين جيشيهما في غابة مولاي إسماعيل، ويذكر المطالب التي تقدم بها الجنرال الفرنسي الأمير بشأن قبائل الزمالة والدوائر والغرابة إضافة إلى كراغلة تلمسان، ثم يقدم تفاصيل مهمة عن معركة المقطع. ويفصل القول أيضا في الاستعدادات، التي تمت في فرنسا والجزائر للهجوم على مدينة معسكر، عاصمة الأمير، وفي

المعارك والمناوشات، التي وقعت بين الجيشين، وما أعقب ذلك من استيلاء الفرنسيين عليها لم مغادرتها. ويورد تفاصيل عن استيلائهم على تلمسان أيضا وكيف كان احتلالهم لها نحسا عليها وعلى ساكنيها جميعا.

وحين يتحدث عن المعركة، التي وقعت في جبال بني عامر، يروي حادثة طريفة، فيقول: " وفي اللحظة، التي كانت فيها المعركة على أشدها، وقعت حادثة، كانت في واقع الأمر قليلة الأهمية، ومع ذلك فهي تلقي ضوءا غريبا على ما مدى ما يمكن أن يبلغه الإهمال العقلي وتطابق الطبع عند الشعبين المتحاربين في هذا الأمر. فقد وثب خنزير بري أزعجته ضجة المعركة بين الجيشين المتشابكين، فانقطع العرب والفرنسيون على السواء عن إطلاق النار على بعضهم البعض، ووجهوها نحو الضيف الغريب، فتحولت الحرب فجأة تحت الصراخ والهتاف المتبادلين إلى شوط من أشواط الصيد ! وما أن مضى الخنزير البري، الذي أنقذ نفسه من غير أن يهتم بذلك، حتى عاد إطلاق الرصاص إلى وضعه السابق، وظلت قوات الأمير تناوش الفرنسيين حتى مغيب الشمس."

ويتعرض لوصول بوجو إلى الجزائر للمرة الأولى، وتغلبه على الأمير في معركة السكاك، ويقدم تفاصيل دقيقة عنها، ويقول عن الدوائريين والزماليين إنهم استطاعوا في هذه المعركة إرضاء رغباتهم الوحشية في قطع رؤوس مواطنيهم، إذ لعبوا الدور الحاسم في هذه المعركة، وكانوا أحرص على الانتصار على مواطنيهم من الفرنسيين. ثم يتحدث عن عودة بوجو إلى الجزائر في 26 مارس 1937، ويشير إلى أن الأمير كان على معرفة تامة بما يبيته له الفرنسيون وذلك عن طريق عيونه في وهران والجزائر وباريس نفسها، ومن ثم كان على علم بنوايا الجنرال بوجو، وكانت تصله عنه حتى الأحاديث الخاصة، التي كانت تدور بينه وبين مساعديه والمقربين إليه من رجاله.

وعندما وزع بوجو منشوراته بين العرب، فيما يؤكد المؤلف، لم يكن لها الأثر الذي كان يريده، وأورد فقرة من رسالة وجهها رؤساء قبيلة الغرابة إلى بوجو، يقولون له فيها : " إن رسالتك لتظهر لنا مدى ما تملكه من قلة العقل، فتهديداتك لا معنى لها، فالأرض كبيرة، وهي بالنسبة إلينا مفتوحة على جميع الجهات. إياك أن تتكل على أصدقائك من الدوائر والزمالة، فهم يسرقون ثيرانك ونعاجك ويحملونها إلينا، ويقتلون جنودك غيلة وغدرا، ويقطعون رؤوسهم، ويبيعوننا أسلحتهم وألبستهم، ويوهمونكم أن الغرابة هم الذين يفعلون ذلك."

ويقول المؤلف، وكأنه يقدم الدليل على ما تضمنته هذه الفقرة، إن مصطفى بن إسماعيل هاجم

بجيشه الوحشي القوات العربية، التي كانت تحتل المرتفعات المقابلة لوادي يسر، وعاد إلى المعسكر حاملا رأسا فوق ماسورة بندقيته!

ويتحدث بعد ذلك عن اللقاء الذي تم بين الأمير والجنرال بوجو وما أعقبه من توقيع المعاهدة، ويصف الملامح التي ظهرت على وجه العرب بعد توقيع المعاهدة، ثم يصف الأمير نفسه كما يصف منظر جيشه من خلال مشهد متميزا، مما قد يدل على أن المؤلف كان حاضرا، فهو لا ينقل عن غيره، خلافا لما فعله فاغنر مثلا عندما تحدث عن اللقاء نفسه، الذي لم يتسنى له حضوره (أنظر للمترجم، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، الشركة الوطنية للكتاب، 1989، ص 91)، فيقول : " لقد شكل المشهد كله منظرا رائعا، فقد أشرقت الشمس من بين السحب، وألقت بأشعتها الأخيرة فوق المناطق الجبلية الشاسعة، التي حملت إليها الحياة هذه الجموع الغفيرة المحاربة، التي أخذت عندئذ تسير في جميع الجهات بناء على إشارة من ذلك الرجل الوحيد، الذي استطاع بقواه العقلية أن يجعل من إرادته إرادة للجميع! "، ثم يذكر بعدئذ بنود المعاهدة كاملة.

ويورد رسالة، وجهها الأمير إلى وكلائه، اطلع عليها أيضا حاكم وهران بحكم وجود وكيل الأمير فيها، تقدم في نظر المؤلف فكرة معتبرة عن مدى نفوذه بين العرب، ويتحدث عن قنصل الولايات المتحدة في الجزائر، الذي أصبح وكيلا للأمير، ويذكر بالمقابل أن الجنرال بوجو أمر قبل سفره من وهران ترقية العميل مصطفى بن إسماعيل إلى جنرال فرنسي، وهو منصب لم يكن من المتوقع أن يناله عربي أبدا، ويعيد إلى الأذهان بالمناسبة ما قاله المارشال كلوزيل عن هذا العميل وابن أخيه المزاري، عندما استاء من تصرفات جنرالاته أثناء حملته على تلمسان :" هاهما الجنرالات الحقيقيان " متخذا إياهما نموذجا للاستماتة في الدفاع عن قضايا الأجنبي !

وبعد أن يتحدث عن محاصرة الأمير عبد القادر لمدينة عين ماضي والاستيلاء عليها، يشيد، قبل أن ينهي كتابه، مرة أخرى بشخصية الأمير عبد القادر، واهتمامه ببناء دولته من جميع النواحي، فيقول عنه إن فكره الخلاق يكشف له باستمرار عن وفرته وثرائه، ويكرر مرة أخرى أن مطامحه كلها متجهة إلى أن يجعل من شعبه أمة، ويؤكد أن الفرنسيين، إذا ما نشبت الحرب ثانية، سيجدونه أقوى مما كان عليه في السنوات السابقة.

هذه خلاصة موجزة، أشرت فيها بالدرجة الأولى، إلى المعلومات القيمة، التي أوردها المؤلف في هذا الكتاب النفيس في بابه، بالنسبة إلي على الأقل، ولعله انفرد بإيراد البعض منها. ولئن كنت لا أستطيع الادعاء بأني اطلعت على الكثير مما كتبه الأوربيون عن الجزائر

خلال فترة الاحتلال، فإنه أستطيع القول إن دبيزن قد يكون الأوربي الوحيد، الذي أنصف الجزائريين ولم يصفهم بالوحشية، خلافا لما تعود عليه معظم الذين تصدوا للكتابة عنهم، وإنما نظر إليهم على أنهم أبناء شعب تعود على الاستقلال والحرية، وعندما احتل الأجنبي بلادهم، قاموا ليدافعوا عنها ببطولة كبيرة، وقائدهم في ذلك روحهم الوطنية ورجل استطاع أن يجمعهم ويوحد كلمتهم وحاول ويحاول أن يجعل من شعبهم أمة، ويرى أن الوصف بالوحشية، وإن لم يقل ذلك صراحة، ينطبق على المستعمر وعلى من يخون شعبه ووطنه !

ولاشك أن القارئ أو الباحث سيكتشف بنفسه جوانب أخرى في هذا الكتاب وفي مؤلفه، فليس في كل ما ذكره ما يدل على أنه كان يقصد من ورائه إلى هدف آخر غير ما حاولت أن أجمله سابقا دون الدخول في التفاصيل، التي قد تخرج المقدمة عن طبيعتها، وهو تقديم صورة صادقة عن الجزائر. ويطيب لي أن أذكر، من باب الأمانة، التي أحرص عليها دائما، أن ترجمة هذا الكتاب قد أنجزت في إطار فرقة من فرق البحث، التي تمولها جامعة الجزائر ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي، فلهما مني هاهنا شكري الجزيل، كما أتوجه بالشكر الجزيل أيضا إلى دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، التي وافقت على نشر هذا الكتاب المترجم كما نشرت سابقه عن الأمير عبد القادر. والله ولي التوفيق.

أبو العيد دودو

الجزائر، ضاحية بن عكنون في 5 / 5 / 1999

مقدمة المؤلف

أثناء إقامتي في (شمال) إفريقيا عام 1937 لاحظت باهتمام كبير كيف أخذت وطنية القبائل العربية، بعد غفوة استمرت عدة قرون، تستيقظ من جديد، وإني لأشعر فيما يتصل بهذا الموضوع بإعجاب كبير بشخصية الرجل، الذي استطاع أن يوقظ الحس الوطني في شعب ظل منذ قرون ينبذ نظام الحكم المقيد بقوانين تشريعية، حتى إن مفاهيم مثل الدولة والوطن والحكومة بقيت غريبة عليه. وعبد القادر هو هذا الرجل، الذي أخذ على عاتقه بفضل خصائصه العظيمة والظروف المناسبة أن يوحد بين أبناء وطنه في أمة، وأن يوجه أفكارهم السياسية وجهة أخرى، ويضع هم بذرة السعادة والرفاهية والقوة من غير أن يقطع الصلة بالأوضاع القديمة والتقاليد السابقة بطريقة عنيفة.

والغرض من الأسطر القادمة هو توضيح هذا وإلقاء بعض الضوء في الوقت نفسه على سياسة الفرنسيين وتصرفاتهم وطرقهم الحربية في إفريقيا الشمالية. فقد كان لي بصفتي شاهد عيان على أحداث ولاية الجزائر الهامة في سنة 1837 وجهة نظر في معرفة أمكنة البلاد وتكون لدي رأي في القوميات والأوضاع، التي حاولت تصويرها في هذا الكتاب الصغير. وقد تم تأليفه في ظروف، تفصل بينها مسافات زمنية كبيرة، وأقدمها الآن للحكم عليها حكما رفيقا، معترفا بعدم تمرس قلمي في الكتابة.

حرر في شهر يونية 1839

(ملاحظة: مع الاختلاف الكبير في كتابة الأسماء العربية والتركية والحضرية وغيرها لم يجرؤ المترجم على تغيير الطريقة، التي اختارها السيد المؤلف - مترجم الكتاب إلى الألمانية).

الفصل الأول

يشتمل هذا القسم من بلاد البرابرة، الذي يفترض أنه كان يقع تحت حكم داي الجزائر، على ثلاثة أقاليم أو مناطق،هي الجزائر (مع التيطري) وقسنطينة ووهران (مع تلمسان). وهذه المناطق تمتد على ساحل إفريقيا الشمالية بحوالي مائتي ميل بين دولتي المغرب وتونس. وليس من الممكن معرفة عرضها من الشمال إلى الجنوب على وجه التحديد، ولكن الناس يقدرون، كما تعود الجغرافيون أن يفعلوا ذلك، أنه يمتد حتى الصحراء الكبرى، مع أن داي الجزائر لم يتول أبدا حكم البلاد بهذا الامتداد كله، ولذلك فهي تقدر بمائة ميل، قد تنقص او تزيد في بعض الأحيان.

وهذه المساحة الكبيرة تخترقها من الغرب إلى الشرق بموازاة الساحل جبال الأطلس،التي تتكون من سلاسل جبلية طويلة متوازية، تفصل بينها وهاد عميقة، وترتبط فيما بينها أحيانا بجبال منخفضة.

وتسمى السلسلة الجبلية الشمالية المتصلة بالبحر الأطلس الصغير، وتبدأ من إحدى أعمدة هرقل (رأس سبتة) وتنتهي برأس أشبرتال.

ويطلق على السلسلة الجبلية الجنوبية اسم الأطلس الأوسط، بينما يطلق على أبعد سلسلة اسم الأطلس الأعلى، ويقال إن السلسة الأخيرة تغطيها الثلوج بصورة مستمرة.

ولكن هذه التسميات ليست مضبوطة، فليس من السهل التفريق بين ثلاث سلاسل جبلية في بلاد البرابرة، والثلج يذوب في كل مكان من جبال الأطلس باستثناء بعض القمم الجبلية في الغرب. ويبدأ خط الثلج الدائم عند درجة 31 من العرض الشمالي على ارتفاع 10,800 قدم فوق سطح البحر، ولا تصل جبال الأطلس هذا العلو في أي امتداد مهم.

ومن المرجح أن يكون الأمر كما يلي، وهو أن الإنسان يجد، قبل الوصول إلى الصحراء، هضابا عليا أكثر خصوبة، تنمو في قسم منها أشجار النخيل، ويطلق عليها بلاد التمر، واسمها بالعربية بلاد الجريد.

وقد حرصت العنصرية والمصالح الشخصية في فرنسا على تقديم صورة لإفريقيا الشمالية ذات ألوان شديدة الاختلاف، فقيل مرة إن البلاد تتكون من مجرد مساحات رملية وواحات قليلة، وقيل مرة أخرى إنها أراض كثيرة الخصوبة، باركتها الطبيعة من كل الوجوه، ولم يصح لا الرأي الأول ولا الثاني. فالمناطق الشمالية كلها جبلية، وهناك بين الجبال، التي تغطي الأدغال بعض مناطقها بينما خصص بعضها الآخر لزراعة القمح، وهاد كبيرة ترويها عيون كثيرة، تجعل منها مراعي جيدة.

وهي صالحة لإنتاج عدد لا يحصى من المنتوجات المتنوعة، وهذا بحكم طبيعتها الجبلية وأراضيها الموحلة الخصبة ووقوعها عند درجة 34 من العرض الشمالي. ذلك أن هناك نباتات برية كثيرة ذات مظهر بهيج تنمو في الوهاد وعلى مقربة من الينابيع، وكثيرا ما تتخذ مكانا لها إلى جانب أراض مقفرة حرقتها أشعة الشمس . أما الوديان، التي تتجه كلها نحو الشمال، فقليلة الطول نظرا لطبيعة البلاد، وليس من بينها واد يصلح للملاحة، وهي تفيض في الشتاء ويجف الكثير منها في الصيف. وهناك كثير من الينابيع والبحيرات المالحة، التي لا تصلح مياهها للشرب. لذلك تعاني مناطق شاسعة من قلة المياه في الصيف، خاصة المياه العذبة. وتدل الآثار، مثل الآثار الرومانية، التي تعود إلى التاريخ القديم للبلاد ويعثر عليها المرء الآن في بعض الأمكنة، بنقصها الماء على أنها كانت في الماضي غنية بالغابات. ولكن هذه الغابات اختفت واختفت معها المجاري المائية، التي كانت ظلال الأشجار تحميها من أشعة الشمس المحرقة.

ومناخ البلاد معتدل في الشتاء وملائم، باستثناء مواسم الأمطار، وفي الصيف يرتفع مقياس الحرارة إلى 40 درجة فوق الصفر في بعض الأحيان، وقلما تظهر عندئذ سحابة في السماء. ويصبح الجو جافا، فتحرق أشعة الشمس منتجات الطبيعة، وتتعب الأوروبي وترهقه. أما ريح السموم، أو ما يعرف باسم Scirocco عند الطليان، الذي يأتي من بحر رمال الصحراء الموقدة، فتهب في كل فصل من فصول السنة، إلا أنه يغلب عليها أن تهب في الخريف، وهي تحرق البشرة، وتتعب الأعصاب، ولكنها تترك آثارا مفيدة للصحة أكثر مما هي مضرة بها.

وفصل الحرارة يحمل معه متاعب حقيقية للبلاد عن طريق الأبخرة، التي تتصاعد من الأرض، خاصة من الأوحال، وتسبب في انتشار حمى المستنقعات، التي تصيب الآلاف وتلزمهم الفراش، حتى إنها لتقتل مجموعة كبيرة من أهالي البلاد في كل سنة.

لقد انتشرت عام 1837 حمى رهيبة في سهل المتيجة، الذي تقع فيه معظم المستعمرات الفرنسية. كانت تصيب في المعسكر الفرنسي قرب بوفاريك، الذي يتكون من 2000 رجل، ما

بين 60 و70 إلى100 في اليوم الواحد، فكانت المستشفيات الفرنسية في الجزائر وضواحيها تضم ما بين 4000 و5000 محموم.

قد تخفف الخنادق والقنوات المائية نوعا ما من حدة هذا البلاء الرهيب، لو وجدت، ولعلها كانت موجودة في العهد الروماني، ولكن تكاليف هذه الأعمال تصل إلى الملايين، والغرف التجارية الفرنسية لا تريد السماح بصرفها.

إن شكل البلاد أو هيكل البلاد من الناحية السياسية والاستراتيجية ليس مفيدا بالنسبة للأوروبي، لأن السلاسل الجبلية المتوازية تشكل سدودا منيعة، لابد من تسلقها للوصول إلى قلب البلاد.

ويتكون سكانها من أجناس تختلف عن بعضها البعض أصلا ولغة، والجنس العربي، الذي افتك البلاد في القرن السابع من قياصرة الشرق (القسطنطينية) الأقوياء، هو الأكثر انتشارا. إن الطبيعة البدوية للعرب وحبهم للحياة المستقلة، قد دفعاهم إلى الاستقرار في الريف ليعشوا من الفلاحة وتربية المواشي. وعندما زاحم العرب أهل البلاد الأصليين، انتقل هؤلاء إلى المناطق الجبلية الوعرة، التي دافعوا فيها عن استقلالهم إلى يومنا هذا. ويطلق عليهم اسم القبائل، وكذلك اسم البربر (ومنها بلاد البربر، بلاد البرابرة)، ويشكلون الآن جنسا، اختلط شيئا فشيئا بالأجناس الأخرى، التي فتحت شمال إفريقيا، أي بالفينيقيين والرومان والفندال واليونان والعرب. أما سكان المدن فيطلق عليهم عادة اسم الحضر (المور).

وقد ضاع أصل هؤلاء الحضر في الزمن الغابر. فعندما دخل العرب إفريقيا الشمالية، تحصّن الحضر بالمدن، التي لم يكن الأمراء العرب يعطونها قيمة كبيرة وتركوهم يعيشون في ممتلكاتهم في ظروف استقلالية رفيقة.

كان العرب يحتقرون سكان المدن، ولذلك فإن مكانتهم لم تكن ترتفع كثيرا عن مكانة اليهود، وقد كان هناك عدد كبير منهم، ولكنهم لم يكونوا يعيشون إلا في المدن، ولم تكن أوضاعهم تختلف عن الأوضاع، التي عاش فيها اليهود في جميع البلدان.

لقد استقر الأتراك في الجزائر في القرن السادس عشر، وكان الباعث على ذلك ما يلي: عندما بدأ انهيار الخلافة العربية الشاسعة الأطراف، أخذت تنفصل عنها شيئا فشيئا إسبانيا وشمال إفريقيا، لكن الحكم في شمال إفريقيا عرف تقسيما آخر، إذ تكونت دولتان، إحداهما في فاس والأخرى في مصر. وكانت هناك مسافة كبيرة تفصل بين الاثنتين، فنشأت فيها مجموعة من الدول الصغيرة المستقلة. وما حدث فيها يشبه عارضة في بناية قديمة أفسدها مرور الزمن، فبقيت نهاياتها عالقتين بالجدار، بينما تحول وسطها إلى نشارة. وكانت الجزائر واحدة

من هذه الدول الصغيرة، تحكمها أسرة أميرية تتسم بالنباهة والذكاء، ازدهرت فيها الصناعة والزراعة، وفتحت ملجأ للمسلمين، الذين طردهم المسيحيون من إسبانيا. ولكن الأسبان طاردوا بقايا حكامهم القدامى بعد القضاء التام على القوات العربية في إسبانيا حتى شمال إفريقيا. ففتحوا سبتة ومليلة ووهران وبجاية واستقروا فوق صخرة قرب مدينة الجزائر. فاستدعى إليه أمير هذه المدينة، الذي كان يخشى مثل هذا الجوار، المرتد الشهير عروج برباروسا. ولكن الحليف كثيرا ما يكون أسوأ من العدو المعروف، فقد مات الأمير مسموما، واستولى برباروسا على السلطة. وبعد موته ولّى الباب العالي أخاه خير الدين باشا على الجزائر، ومنذ ذلك الحين أصبحت البلاد جزءا من الخلافة العثمانية، غير أنها لم تلبث أن استقلت عنها. وسمي أحد الحكام، الذين أتوا فيما بعد باسم الداي، الذي يعني الخال في اللغة التركية، ولعله كان في الأصل وصفا له1).

لقد نظر الأتراك إلى أنفسهم في شمال إفريقيا على أنهم المنتقمون من المسيحيين للإسلام، الذي كان قد ارتبط في ذلك الحين بالأمجاد، التي حققها الأتراك في ربوع الخلافة العثمانية، وهو ما جعل أهل البلاد يستقبلونهم بصفتهم محررين أكثر منهم فاتحين. وكان نجاحهم في البداية في التغلب على المسيحيين، وإقامة نظام القرصنة على أساس من الشجاعة وملاءمة الظروف في آن واحد، إضافة إلى الجدية، التي عرفت به عقليتهم، والنظام المتبع في أعمالهم، جعل الجميع يحسون بتفوقهم حتى إنهم نظروا إليهم على أنهم خلقوا لإصدار الأوامر. ولذلك استطاعوا أن يحكموا المناطق الجزائرية المتسعة بجيش موزع بنقاط مختلفة يتراوح بين 12000 و14000 رجل.

لقد كانت سياسة الأتراك بالنسبة إلى العرب سياسة ذكية خليقة بالمحافظة على سمعتهم، ولكنها كانت دمارا بالنسبة لثقافة البلاد. فقد جعلهم الاعتزاز بجنسهم يبتعدون عن الاختلاط بجنس آخر إلى درجة أنهم كانوا يعتبرون الأطفال الذين أنجبوهم من نساء البلاد أجانب. ولم يكونوا يطمحون إلى توسيع ملك لا يستطيعون التحكم فيه، ولم يحاولوا المساس باستقلال القبائل العربية، التي أقامت وجودها كله على هذا الاستقلال. وهذا ما عدا أولئك العرب، الذين كانوا يقيمون قريبا منهم وكان لهم أثرهم في حياتهم. أما القبائل الأخرى، التي لم تخضع لأي نير أجنبي، فقد كان من الممكن أن تكون حليفة لهم، لكنها لا ترضى أبدا بأن تكون من رعاياهم. لذلك حاولوا أن يزرعوا الشقاق بينها تمهيدا لقيام حروب داخلية، تجعل كل قبيلة تخاف من القبيلة الأخرى. وكانت الحملات القوية السريعة وسيلتهم لإخضاع تلك القبائل، التي أظهرت لهم المعاداة، وإرغامها على دفع الإتاوة لهم.

بعد هذه النظرة العامة عن بلاد البرابرة وسكانها نود أن نلقى نظرة أكثر تفصيلا على مقاطعة وهران، التي أصبحت مهدا للحركة الثورية العربية، التي ولدت في شمال إفريقيا من جديد. وهذه المقاطعة هي في الوقت نفسه مسرح للمعارك، الذي يغلب فيه ظهور الجيوش الفرنسية حتى إن أحداث هذه المنطقة لتبدو هي الأفضل من حيث تقديم فكرة عن العمليات السياسية والعسكرية، التي يقوم بها الفرنسيون في هذه البلاد.

تشكل مقاطعة وهران ثلث ولاية الجزائر، تحدها من الغرب المملكة المغربية، ومن الجنوب الصحراء، ومن الشرق بلاد التيطري، ومن الشمال البحر.

ولا تختلف طبيعة هذه المنطقة عن المناطق الأخرى من الجزائر، ففي الغرب منها يشكل المجرى الأسفل لنهر التافنة بروافده وهادا خصبة كما هو عليه الأمر في شرق نهر الشلف، الذي تروي روافده مناطق أكثر جمالا وأكثر عمرانا. ويروي وادي المقطع سهل سيراط الرائع بالإضافة إلى أنهار صغيرة كثيرة تتلوى عبر الجبال، ترافقها مروج واسعة دائمة الخضرة والازدهار.

في الربيع يضرب العرب خيامهم فوق التلال، التي لا يزيد ارتفاعها في الشمال على التقريب عن ألفي قدم عن سطح البحر، وفيها تجد قطعانهم ما تتغذى به من نباتات جبلية قوية. وعند اقتراب الشتاء ينتقل العرب إلى المناطق المنخفضة، ثم إن الزراعة في كثير من الأماكن مربحة للغاية، وأفضل مزروعاتها القمح والشعير.

وأهم مدنها هي: وهران، وأرزيو، ومعسكر، وتاقدمت، وتلمسان، ومستغانم، ومازغران، وندرومة، وتازة، وتنس، ومليانة، ومازونة، وتقع المدينتان الأخيرتان شرق وادى الشلف.

العاصمة هي مدينة وهران، ولها ميناء جيد، يبعد نصف ميل عن المدينة، ويدعى المرسى الكبير. وللمدينة موقع مدرج على الساحل، تحيط بها أسوار في غاية الأهمية، تعود إلى عهد الأسبان الزاهر. كانوا قد تركوا المدينة عام 1790 بعد أن دمرها زلزال عن آخرها تقريبا. كان عدد سكانها عند مجيء الفرنسيين يتراوح ما بين 10000 و15000 ألف نسمة. وقد انخفض عدد السكان بشكل معتبر فيما بعد وتلاشت الصناعة مثلما حدث الأمر في كل المدن، التي احتلها الفرنسيون في بلاد البرابرة.

تقع مدينة معسكر في منطقة خصبة، تحيط بها الحدائق، وقد كانت في الوقت، الذي كانت فيه وهران لا تزال بأيدي الأسبان، مقرا لباي تركي. يسكنها حوالي 5000 نسمة. وتعتبر تلمسان أهم مدن الداخل، وهي مبنية فوق تل صغير، يتصل بأحد سلاسل جبال الأطلس الكبيرة المنحدرة. ومنطقتها خصبة للغاية، فهناك إلى جانب الحدائق الغناء غابة تحتوي على

أكثر 000100 شجرة من أشجار الزيتون الكبيرة، ترتفع فيها النباتات، حتى إن قطعان الماشية تختفي داخلها. كانت تلمسان عاصمة مملكة، تقوم تحصيناتها المعتبرة المحيطة بها، التي تعود إلى العهود المورية (الأهالي القدامى) والرومانية والإسبانية، دليلا على الدور المهم، الذي كانت قد لعبته قديما. كان عدد السكان عند مجيء الفرنسيين يتراوح بين 6000 و8000 نسمة. أما عدد سكان مليانة فيتراوح بين 3000 و4000 بينما يبلغ عدد سكان مستغانم 1500 نسمة.

من الصعب جدا معرفة عدد سكان البلاد بشكل دقيق، فذلك يتوقف على مدى الرغبة في الذهاب نحو الجنوب، فهناك مساحات كبيرة تحدها الصحراء، وهي غير معروفة تقريبا. فالجنرال ديميشيل Desmichels يقدر عدد سكان المقاطعة بـ 1,700,000 نسمة، إلا أنه من المؤكد أن هذا العدد كبير جدا. إذا ما نحن أخذنا القوة العسكرية بعين الاعتبار، فإننا نستطيع أن نفرض على نحو تقريبي أن في الولاية كلها 200,000 جندي مسلح في سلاح الفرسان، ينتمي الثلث منهم إلى مقاطعة وهران.

يعيش العرب في قبائل متفاوتة العدد، فبعضها يستطيع تجنيد فرسان يصل عددهم إلى 2000 فارس، بينما لا يستطيع بعضها الآخر تجنيد أكثر من بضع مئات. ويرأس كل قبيلة أو عرش شيخ من المشايخ أو أكبر المشايخ. ويطلق على أقسام القبائل الصغيرة اسم دوار، أو قرية، وهو مجموعة من الخيام، تنصب في دوائر مختلفة الأحجام، وتحتوي الدائرة الواحدة على ما بين 20 و25 خيمة، الغرض منها جمع قطعان الماشية فيها ليلا حمايتها على هذا النحو من السلب وهجوم الحيوانات المفترسة عليها. ولكل دوار شيخ، وتتم الإجراءات القضائية تحت إشراف قاض من القضاة.

ويزيد عدد القبائل في مقاطعة وهران عن 100 قبيلة، منها القبائل البربرية، التي اختلط بعضها بالقبائل العربية.

وتتسم العادات والتقاليد العربية بالدوام والثبات، فهي لم تتغير منذ عدة قرون، إذ ظل الطموح الدائم إلى حياة مادية أكثر رفاهية، لا يتمكن من الوصول إليها إلا قليل من الناس في إطار وحدة اجتماعية، غريبا عنهم. إن قناعتهم تجعلهم يرضون بما هو موجود وهم لذلك يعيشون من أجله. يضاف إلى ذلك أن احتياجاتهم قليلة، تكاد تكون هي نفسها بالنسبة إلى أغنيائهم وفقرائهم على السواء. فأقصى رغباتهم الحسية لا تتعدى المرأة وظل الشجرة والعين الباردة. وتمثل حياة الجندية أعظم رغباتهم، وترفهم كله لا يتجاوز الأسلحة والخيول الجميلة. فهم يخشون المدنية الأكثر رقيا،والمكانة الاجتماعية الأكثر ثقافة، لأن ذلك سيكون، إن تم هم، على حساب حريتهم وحياتهم المستقلة. والظاهر أنهم فكروا في منافع الاثنين ومضارهما، لكنهم اختاروا في النهاية حريتهم.

ولكن إذا كانت للعرب معارف ومعلومات أقل من معارف الأوربيين ومدنيتهم فإن لهم عوضا عن ذلك ميولا أقوى وطاقات أكبر وعقيدة أقوى ثباتا، تقوي فيهم الروح والعزيمة.

ويقوم دليلا على تمسكهم الدائم بعاداتهم وبطرق معيشتهم أن الصفات، التي وصف بها العرب في القديم، تنطبق على عرب هذا العصر من عدة نواح. ففي القرن السابع وصف عربي بليغ، يدعى النعمان (بن المنذر)، مواطنيه أمام كسرى، ملك الفرس الأكبر، بالكلمات الآتية:

" يمتاز العرب عن غيرهم من الأمم بالمنعة والجمال والنبل والشهامة والشعر وحكمة اللسان وقوة العقل والترفع عن الدون احتقارا له والأنفة والوفاء . حصونهم هي خيولهم والأرض هي فراشهم والسماء هي سقوفهم، وسيوفهم هي سدودهم المنيعة، وبذلك يتميزون عن الأمم الأخرى، التي تتمثل قوتها ووسائل دفاعها في الحجارة والحواجز الطينية والخنادق والأسوار."

" إن حروبهم الداخلية والهجمات المريعة، التي تقوم بها القبيلة على الأخرى، إنما هي تمثل الوضع العادي عند العرب. صحيح أنهم يفضلون مثل هذا الوضع الخطر على وجود حكومة منظمة، مهمتها الأولى إطاعة الملك، ولكن ميلهم هذا ينبغي أن يكون الحكم عليه في صالحهم. فعندما تخضع الدول الأخرى لإرادة رجل واحد، فهي تفعل ذلك اعترافا منها بضعفها وعجزها. فالأفراد، الذين تتكون منهم دولة اتحادية من هذا النوع، يسندون السلطة إلى شخص واحد، لأنهم يشعرون بعجزهم عن حكم أنفسهم بأنفسهم وفرض احترامهم على غيرهم. إن خوفهم من الغزاة الأجانب يدفعهم إلى اختيار واحد من بين رؤسائهم، أي اختيار واحد من أعيان اتحادهم وأشرافه. فيسوسهم بالعدل، ويقود جيوشهم، وشرفه هو يفوق شرف الآخرين كلهم، بعبارة أصح، هو الرجل الوحيد في المملكة، الذي يحظى بالشرف والمكانة السامية. أما القبائل العربية، فإن الشيء العام المشترك بينها جميعا ينحصر في الفضائل الملكية. ذلك أن المروءة والنزاهة وعزة النفس والشجاعة صفات عامة فيهم حتى إنهم كلهم يرون أنفسهم ملوكا 2)".

إن العربي لا يزال كما وصفه النعمان ذلك البدوي الحر، ولذلك وجد الأمير عبد القادر صعوبة كبيرة في إخضاعهم لسلطانه، إذ قاوموه مقاومة شديدة،ثم رضخوا له ضد إرادتهم، فجعل منهم البذرة الأولى لإنشاء الدولة العربية. لقد جعلهم كرههم للمسيحيين والوضع السائد في البلاد يخضعون لإرادته، ولكن ما يكاد الخطر يختفي عنهم حتى تنتشر بينهم الدعوة إلى الانفصال عنه وزرع بذور التذمر والثورة بين القبائل ضده.

سيتضح لنا هذا كما يلي ونتعرف على العربي بصفته محاربا، كما سنرى أنه ليس على الغازي أن يكافح فقط الصعوبات المذكورة، وهي المتمثلة في طبيعة البلاد وتضاريسها وقلة المياه بها وآثار مناخها المضرة فقط، وإنما يجب عليه كذلك أن يكافح شعبا حازما قوي الإرادة.

الفصل الثاني

ولد الأمير عبد القادر، ويسمى الحاج أيضا، وهو اسم يطلقه على أنفسهم أولئك المسلمون، الذين يحجون إلى مكة المكرمة، عام 1807 في منطقة معسكر في مكان يدعى القيطنة ويقع في أراضي قبيلة هاشم. ولم تكن أسرته غنية، ولكنها تنتمي إلى سلالة قديمة من المرابطين، تفرعت عن خلفاء مصر من الفاطميين وتطلق على نفسها اسم الشرفاء، بمعنى أنها تمت بصلة إلى النبي العربي.

إن الرجل، الذي نريد أن نتعرف على تاريخه الآن، هو واحد من المختارين، الذي جاء من مركز لا يكاد يبين، ومع ذلك استطاع بفضل صفاته الشخصية والظروف الملائمة أن يقود مواطنيه إلى تحقيق هدف جديد وعظيم هو وطنيتهم واعترافهم بوحدتهم العامة الدائمة، التي ضمنت لهم مصالحهم المشتركة، وسيذكر الزمن كيف وفق في ذلك كل التوفيق. لقد كان له من مركزه كمرابط أكبر عون على تنفيذ خططه وتحقيق مشاريعه.

يجب علينا، لمعرفة أصل المرابطين وأهمية هذه الطائفة بين العرب، أن نعود إلى عصر الثورات في إفريقيا الغربية خلال القرن الحادي عشر. فقد نشأ في ذلك الحين عنصر جديد، كان الهدف منه المحافظة على العلاقات القروية، وحماية القوانين والعادات العربية، وإقامة نظام يتسم بالقوة والثبات، وتمثل هذا العنصر في الأثر، الذي أحدثه المرابطون في الناس. ففي حوالي سنة 1040 عم الفساد تقاليد القبيلتين العربيتين كتامة وصنهاجة (جنوب رأس نون)، فتكونت هناك طائفة دينية إسلامية، كانت الطائفة الوحيدة، التي عرفت في المغرب.

لقد اتخذت هذه الطائفة من المكان، الذي كانت تقيم فيه، ويدعى الرباط، ويقع على جزيرة في نهر صغير، يصب في المحيط الأطلسي، اسم المرابطين، الذين حول الأسبان اسمهم إلى Almoraviden، بينما ندعوهم نحن بالمرابطين.

لقد حرصت هذه الطائفة الدينية على تنقية التقاليد وأمدت الإسلام بحرارة أكثر وبوحدة دينية معتبرة. وعندما حاربت فيما بعد، وحالفها النصر، أنشأت سلطة مطلقة في مملكة المغرب وإسبانيا امتدت إلى نهر إيبرو Ebro، وازدهرت دولتها قرنا كاملا، ثم كانت نهايتها على أيدي الموحدين.

ولكن اسمهم وسلطتهم الفكرية قد بقيا على مر الزمن بين قبائل المغرب الأوسط، يرثهما الابن عن أبيه. وهم عادة أغنياء، من أعيان الطبقة الراقية، كرماء، فضلاء، أتقياء، على معرفة جيدة بالتعاليم الإسلامية، سبق لهم كلهم أن أدوا فريضة الحج إلى مكة مرة أو عدة مرات، وهم مكانتهم في مجالس الشيوخ الكبار في أوطانهم وفي الجامع الأزهر بالقاهرة. ويعيشون عادة في عزلة عن العالم وعن الأعمال التجارية، ولا يظهرون إلا لنشر المعرفة، وإسداء النصيحة، والمرفق بالجميع. وقد أنشأ الكثير منهم مدارس على مقربة من مساكنهم ليعلموا العرب الصغار، ويطلق على هؤلاء التلاميذ اسم الطلبة.

و هم يحظون أينما حلوا باحترام الناس وتقديرهم باعتبارهم ملائكة الصلح والوفاق، يلجأ الناس إليهم طلبا لمساعدتهم أيام الأزمات. عندما تقع حارب بين قبيلتين عربيتين أو قبيلتين بربريتين، يسرعون إليهما ويعقدان الصلح بينهما. وهم بذلك يشكلون نظاما بلديا في الريف (ويدعى الوطن) وفي المدن، ولهم فيها نفوذ كبير. وكان هذا النفوذ مفيدا على الدوام تقريبا، إلا أنه قد يُساء استعماله، وتصبح له خطورته في بعض الأحيان، فيتم لهم تبعا لطبيعة هذا النفوذ مراقبة السلطة العليا وتنبيه الناس إلى انحرافاتها.

وعلى هذا فإن المرابطين يشكلون قسما ممن يسمون بالشيوخ في كل قبيلة، ومن بينهم أحفاد مشاهير الأسر المحاربة، فقد كانت للشجاعة مكانتها المتميزة على الدوام.

لقد تلقى الأمير عبد القادر تعليمه الأول في القيطنة، مسقط رأسه. والقيطنة مدرسة ثانوية على نحو ما، جمع فيها أجداده المرابطون شبابا، كانوا يعلمونهم فيها اللغة والتوحيد والفقه. وتقع فوق منحدر جبل عال في منطقة مزهرة خلابة، كل ما فيها يدعو إلى الدراسة والهدوء النفسي. وهناك تلقى الأمير عبد القادر، كما ينبغي أن يكون عليه العربي، تربية من قبل والده سيدي محي الدين، الرجل الوقور الذي كان يحظى باحترام الجميع، فقد وجد أن عليه أن ينمي فيه موهبة طبيعية قوية نابهة. حفظ القرآن وهو في سن مبكرة، وكانت شروحه له تفوق شروح المترجم (المفسر) الحاذق. فكرس وقته لدراسة البلاغة والتاريخ، ويقال عنه في اللحظة الراهنة إنه الرجل الوحيد، الذي يتمتع بأعظم موهبة بلاغية في البلاد كلها، وهو ما يجعله متميزا تميزا خارقا للعادة. درس تاريخ بلاده كما ينبغي، ودرس كذلك النقاط، التي يلتقي بها هذا التاريخ مع تاريخ الأمة الفرنسية. ولم يهمل أيضا تعلم المهارات الجسمية، فتمكن منها إلى درجة كبيرة، حتى إنه يعتبر الفارس الأول في البلاد. باختصار، لقد تميز وهو في العشرين من عمره بكل الصفات، التي يحب الشعب أن تتوفر فيمن يريد أن يتخذه رئيسا له.

كان الأمير عبد القادر قد عاد في ذلك الحين، الذي خمت فيه وطنه فوضى رهيبة، من رحلة، قام بها برفقة والده إلى الجزيرة العربية ومصر . فقد كان احتلال الفرنسيين لمدينة وهران بالنسبة إلى العرب بمثابة دعوة إلى التخلص من الحكم التركي في المقاطعة كلها، وشبّت في الرؤوس روح الحرية بصورة عامة من غير أن تكون هناك نقطة يلتقي عندها الجميع. فقد ثارت مدينة معسكر،في داخل البلاد، على الأتراك، الذين كان يظنون أن إقامتهم فيها ممكنة، وقتلت بعضهم، وطردت بعضهم الآخر، وتحولت المدينة إلى جمهورية. وكانت تلمسان الجميلة مقسمة بين الحضر، الذين احتلوا المدينة، وبين الأتراك أو الكراغلة 3)، الذين كانوا سادة قلعة (المشور)، بينما اعترفت مستغانم بالسلطة الفرنسية، وكانت أرزيو ميالة إلى الاعتراف بها أيضا.

أما العرب، الذين كانوا متعودين على الحرية الريفية، فكانوا ينظرون نظرة عدائية إلى الفرنسيين وإلى كل سلطة تفرض عليهم، ثم إنهم كانوا يناصبون بعضهم بعضا العداء، لكنهم كانوا قد تعبوا منه في ذلك الحين، ولذلك لم تكن لهم رغبة في جمع قواهم والقضاء على الفوضى التي حطمت كل شيء في البلاد.

وفي هذه الظروف كان أبو الأمير عبد القادر، وهو شيخ متقدم في السن، قد انتخب في سنة 1832 رئيسا للقبائل العربية، التي كانت تسكن نواحي معسكر، ولكن الشيخ رفض هذه الرئاسة لكبر سنه وأسندها إلى ابنه عبد القادر، الذي بايعه الناس في الحال. وقد روى الشيخ محي الدين في هذه المناسبة أنه التقى، عندما زار مكة المكرمة مع أكبر أبنائه ومع عبد القادر، أثناء جولة في شوارعها مع ابنه الأكبر بزاهد، أعطاه ثلاث تفاحات وهو يقول له:

- هذه التفاحة لك، وهذه لابنك الذي هو الآن معك، وهذه للسلطان.

فسأله محي الدين:

- ومن هو هذا السلطان ؟

- إنه ذلك الذي تركته في البيت، عندما خرجت في هذه الجولة.

لقد ساهمت هذه الخرافة الصغيرة، التي يعتبرها أتباع الأمير بمثابة سفر مقدس، في إقامة سلطته على أساس متين.

وبعد ذلك بقليل، عندما ارتقى الدرجة الأولى فوق سلم السعادة، بايعته مدينة معسكر أميرا عليها، ومنذ تلك اللحظة أصبحت له ميزة حاسمة تميزه عن كل منافسيه. ويروى أن سكان هذه المدينة قد اتفقوا على ذلك بناء ما صرح به مرابط كان قد أقسم أن الملك

جبرائيل قد ظهر له وأمره أن يعلن [illegible] إرادة الله تقتضي أن يحكم الأمير عبد القادر العرب. وقد أظهرت الأيام بصورة قاطعة أنه لم يكن هناك اختيار أفضل من هذا الاختيار.

ولإعطاء فكرة صحيحة عن الأوضاع في مقاطعة وهران، علينا أن نلقي نظرة على ماضي هذه المقاطعة. بعد احتلال الجزائر 4) احتل النقيب بورمون Bourmont ميناء وهران، المرسى الكبير، فأرسل إليه أبوه، المارشال، بناء على تقريره أسطولا صغيرا لمهاجمة المدينة، لكنه ما كاد يرسو أمامها حتى طلب منه الرجوع بسبب قيام ثورة جويلية، وتم بذلك التخلي عن المرسى الكبير.

فوضع المارشال بورمون الذي خلف المارشال كلوزيلClauzel، خطة تستدعي التخلي لتونس عن كل من مقاطعتي وهران وقسنطينة مقابل جزية سنوية تقدر بمليون فرنك فرنسي عن كل مقاطعة منهما. كان من الممكن المحافظة على السلطة الإسلامية في البلاد تحت الرعاية الفرنسية، لو قدر لهذه الخطة أن تجد القبول في الوزارة الفرنسية والمساندة من هناك بقوة وبإرادة ثابتة، لو تم ذلك لوفر على فرنسا الكثير من المال والدماء.

أرسل المارشال كلوزيل الجنرال دامرمون Damremont 5)، الذي دخل المرسى الكبير في 14 ديسمبر ووهران في 4 يناير من سنة 1831، دون أن يلقى مقاومة يذكر. وبذلك مهد الطريق لتنصيب الأمير التونسي سيدى أحمد، الذي كان سيتولى الحكم في وهران بمقتضى معاهدة المارشال مع تونس. ولم يمض وقت طويل حتى وصل خليفة برفقة مائتين من التونسيين، الذين سيختار من بينهم البايات التسعة. فولاه الجنرال دامرمون، وترك الفيلق الواحد والعشرين من سلاح المشاة، ثم غادر المقاطعة نظرا لانتهاء مهمته فيها.

لكن التونسيين لم يجدوا في وهران ما كانوا ينتظرونه، لأن المدينة كان قد تركها القسم الأكبر من سكانها، ولم يكن من الممكن أبدا أن يخضع لهم عرب المقاطعة. يضاف إلى ذلك أن ملك المغرب، السلطان عبد الرحمن، كان قد ضرب بشكاوى الفرنسيين، التي رفعت إليه، عرض الحائط وواصل محاولاته من أجل أن يكون له اعتباره ونفوذه في المقاطعة، حتى إنه حاول الاستيلاء على مدينة تلمسان. ولذلك يبدو أن تقرير الخليفة التونسي إلى سيده عن الأوضاع في المقاطعة كان من ذلك النوع، الذي لم يشعر معه بضرورة الحضور إلى وهران، ومن هنا لم يصل إليها فيما بعد أبدا.

وبقي الأمر في أيام بيرتزين Berthezène، خليفة المارشال كلوزيل، فترة طويلة من غير حسم، ولم يعرف أحد ما هو القرار، الذي ينبغي أن يتخذ بشأن مقاطعة وهران. لقد كانت

الحكومة الفرنسية في حاجة إلى عدة شهور للبت في معاهدة المارشال كلوزيل مع تونس بالقبول أو الرفض. وفي أثناء ذلك كان الأمير أحمد قد اعتبر، على ما ظهر حينئذ، حاكما للبلاد، واستخدم بصفته هذه المائتين أو الثلاثمائة من الأتراك، الذين تركهم الباي السابق فيها. ولكن رقعة حكمه كله لم تكن تتجاوز مدينة وهران، التي كانت تكاد تكون خالية من الناس، وتعيش في أوضاع مؤلمة للغاية. وفي شهر أوت قتل الحنين العقيد لوفول Lefol، وكان على الفيلق الواحد والعشرين، الذي كان من المقرر أن يعود إلى فرنسا، أن يعاني من نقص الحاجيات الهامة، لأنه لم يتلق من مستودعه في فرنسا أي شيء. ولكن الذي ساهم في إضعاف هذا الفيلق وحله بصفة نهائية هو عدم قيامه بأي نشاط، وكان ذلك في وضع وجد الجنود فيه أنفسهم بعيدين عن وطنهم دون أن يتلقوا من ذويهم خلال فترات تصل أحيانا أشهرا عديدة أية أخبار، ولم يكن هناك ما هو أصعب على الجنود الفرنسيين مثل البقاء بدون عمل.

وفي النهاية قررت فرنسا احتلال وهران لحسابها الخاص، وأحلّت الفيلق العشرين محل الفيلق الواحد والعشرين، وأرسلت الفريق بواير Boyer في شهر سبتمبر إلى وهران، ووعدته بإرسال إمدادات عسكرية، وهو ما حدث بعد ذلك فعلا.

بعد وصول الفريق بواير بفترة قصيرة ظهر أمام أسوار وهران بضع مئات من سلاح الفرسان المغاربة بقيادة مولاي علي، أحد أقرباء السلطان، الذي كان قائد تلك الفرق، التي كان ذلك السلطان قد أرسلها إلى المقاطعة. وبعد أن أقاموا عند الأسوار بضعة أيام، لم يقوموا خلالها بأية أعمال معتبرة، اختفوا من جديد. لكن العرب بدءوا يحدثون القلاقل والفوضى في المنطقة، فكانوا يهاجمون الأسوار ويطلقون النار على الحراس تعبيرا عن رفضهم للحكم الفرنسي. ولكن هذا لم يمنع العرب الآخرين من التردد على سوق وهران، وقد لوحظ في بعض الأحيان أن العرب، الذين كانوا قد اشتروا المواد الغذائية من وهران، كانوا يجدون متعة في إطلاق النار على الأسوار عند عودتهم من السوق إلى بيوتهم. واستمر هذا الوضع، الذي لم يكن حربا ولا سلما، بدون انقطاع تقريبا حتى نهاية 1831.

وفي أبريل من عام 1832 تلقى الجنرال بواير إمدادات من سلاح الفرسان، فبدأ عندئذ يقوم بجولات في المنطقة، ومنذ تلك اللحظة اتخذت الحرب مع العرب طبيعة جادة.

وظهر الأمير عبد القادر، الذي كان قبل هذا الوقت بقليل قد انتخب رئيسا للقبائل العربية، التي تعيش حول مدينة معسكر، لأول مرة في الثاني والثالث من شهر ماي، وبصحبته

والده الشيخ محي الدين، أمام وهران على رأس بضعة آلاف من العرب، وبقي هناك حتى التاسع منه. قام أثناء إقامته أمام المدينة بغارات مختلفة على القوات الفرنسية، التي كانت تظهر في المنطقة. وكان معظم الرجال من جيش الأمير عبد القادر من سلاح الفرسان، فالعربي، الذي لا يملك مالا، هو الذي يحارب على الأقدام، وليس له عندئذ اعتبار كبير. أما عندما يمتطي ظهر حصانه، فإنه يصبح ذلك المحارب الشجاع الأبي، الذي له ما للسهم من خفة وسرعة.

تعتبر الخيل ترسانة الأمراء العرب، وما من أحد منا يستطيع تكوين صورة عن مهارة المحارب العربي إن هو لم يعرف حصانه.

الحصان العربي في شمال إفريقيا، أو ما يسمي بالحصان البربري، ليس حصانا عربيا أصيلا، إلا أنه يملك الكثير من الصفات، التي تتميز بها جياد الصحراء العربية، وله أيضا صفات اخرى، قد تأهله للقيام بالخدمات، التي يتطلبها منه العربي في شمال إفريقيا. ليست له الأشكال الدائرية الأنيقة، التي يملكها الحصان العربي الأصيل، وقلما يكون له الظهر الجميل، ويندر جدا أن يكون له الرأس الجميل والعين الجميلة. غير أن له قوة الحصان الأصيل وطاقته، وطبيعته الهادئة و(الدموية) الخفيفة، وسرعته الكبيرة في حركته، ودرجته العالية في السير بأمان وله كذلك صبره الكبير. قصبات عظامه مسطحة عريضة، وأوتاره قوية، وشعره ناعم وله حافر عال قوي متعود على الخشونة، وهو أكثر أمانا حين يسير بدون حدوة، فهو صغير، من النادر أن يعلو على خمسة أقدام، وليس له من مظهر جميل إلا حين يكون تحت راكبه. عندئذ فقط تظهر كل خصاله النبيلة. وله إضافة إلى سرعته ليونة معتبرة في حركته، وهو لم يتعود بشكل جيد على ما تعود عليه ذلك الحصان الأصيل. ولكنه يقطع المسافات الطويلة المرهقة رغم أنه كثيرا ما يتحتم عليه أن يحتمل الجوع أياما بكاملها أو يكتفي بأكل العلف الرديء وشرب الماء المالح . باختصار، لقد زودته الطبيعة بكل ما يتمناه المرء ليجعل منه حصانا ريفيا متميزا. وما أنعمت به الطبيعة عليه، يتم تطويره والوصول به إلى الكمال عند تربيته، وذلك ما يحسنه العربي بطبيعته ويلقى منه العناية الكبيرة. وهذا الحصان العربي لا يدخل مدرسة لتعليم ركوب الخيل حسب القواعد المقررة، وحلبة سباقه تقوم في الحقل وراكبه على أهبة الاستعداد للحرب أثناء قيامه بعمله. ويتم الاهتمام به في إطار الأسرة العربية كما يتم الاهتمام بخروف من الخرفان. ويُهيَّأ الحصان للقتال، فيعوَّد على سماع الطلقات النارية وحركة الأسلحة، ويتم اختبار قوته أثناء السباق كما يُعود على الصبر، والاحتمال من خلال القيام بجولات طويلة في أماكن وعرة.

ولا يعرف الحصان البربري غير مشيتين: الخطو والركض. فعند أقل حركة، تصدر عن العربي، عندما يريد منه أن ينطلق بـه، يطير بسرعة البرق وبدون أقل إرهاق عبر الهواء، ويستجيب في الحين حتى وهو في أقصى سرعته لإشارة راكبه، فيتطامن بهدوء وبانتباه كبير، بينما يرمي العربي باللجام ويطلق النار من بندقيته. يندفع إلى المعركة بشجاعة، وعندما يتعرض سيده للخطر أو للمطاردة، يختفي به خلف الأدغال والحجارة كالسهم ينطلق عن القوس.

حين يمتطي العربي صهوة حصانه المدرب بشكل جيد يصبح فارسا كامل الفروسية، خفيف الحركة، وما أكثر المناسبات التي يصبح فيها خصما خطيرا وحليفا نافعا. ويتكون سلاح الفارس العربي بالدرجة الأولى من بندقية طويلة، يعلقها أثناء السير بحزام فوق كتفه، ويضيف إلى ذلك بعضهم مسدسا أو مسدسين في زمام مربوط أيضا بحزام يمتد فوق الكتفين من الجهة اليمنى إلى اليسرى . أما الأسلحة البيضاء، فإن العربي لا يحمل منها عادة إلا سيفا قصيرا عريضا، ويتاغانا، يكثر من استعماله عند قطع رؤوس القتلى أو الأسرى من الأعداء. ورؤساء القبائل يضعون على العموم جوائز لكـل من يحمل إليهم رأسا من رؤوس العدو. وسلاح الرؤساء أو تسلحهم من النوع النفيس، يدل على ذوق رفيع في بعض الأحيان، ويحملون هم أنفسهم سيفا وخنجرا ويتاغانا ومسدسات، كما يحمل لهم خلفهم عربي من العامة بندقية، على غرار ما كان يفعله حاملو السلاح في العصر الوسيط بأوربا. وتوضع الخراطيش، التي تصنع من قشور القصب، في أجربة صغيرة جميلة، يسهل دفعها أمام الصدر، عندما يريد المحارب استعمالها. ويحمل زمام المسدس وجراب الخراطيش فوق الحائك، وهو عبارة عن رداء خفيف أبيض مصنوع من الصوف، يلقى فوق الجسم كله ويلف حول الرأس والبطن بصورة جميلة، ويربط في مأخذ الرأس بخيط قوي أسود من شعر الجمل، يلف حوله عدة مرات. ويمسك الحائك بالجسم زيادة على ذلك بحزام السلاح وبحزام آخر يلف حول البطن. ويحمل فوقه برنسا (أوبرنسين أحيانا)، وهو رداء كبير أبيض أو أسود بلا أكمام، ولكن له طاقية تشبه غطاء الرأس عند الرهبان. والبرنس الأبيض خفيف للغاية، لكنه يصد أشعة الشمس الحارقة، أما الأسود المصنوع من الصوف السميكة، فيحمي من برد الليل ومن المطر. إن وجوه العرب السمراء الرزينة الهزيلة، ولحاهم السود، وعيونهم النافذة تواتيهم تحت الزخارف الشرقية البيضاء وتمنحهم، وهم يتقلدون أ سلحتهم، منظرا حربيا حقيقيا.

عندما يذهب العربي إلى الجبهة، لايأخذ معه إلا القليل من الحاجات الضرورية، ولذلك يبدو متناقضا تناقضا غريبا مع ما يسمى بسلاح الفرسان الأوربي الخفيف المحمّل فوق طاقته.

لعفشه كله لا يزيد عن بضعة أرطال من الشعير لحصانه وبضع كسرات من الخبز لنفسه، يحملها في كيس، يشبه محافظ فرسان الهوزار (المجريين السابقين)، يعلّق في قَرَبُوس السرج.

ويركب السرج العربي تركيبا خاصا يؤدي الغرض المقصود منه، فهو خفيف، وله حامل أمامي وحامل خلفي عاليان جدا، يحمي من ضربة السيف ويقدم للفارس مقعدا ثابتا لا يتحرك، لأنه يُشد بحزام من فوق ومن تحت. والركابان واسعان جدا، ولذلك فهما يحولان دون انزلاق القدم، والمهامير العربية مُطرَّقة عادة مع الركاب. وحزام الركاب قصير جدا ليستطيع الفارس أن يستند عليه في أمان، فيمد جذعه في المعركة نحو عدوه، ويطلق بندقيته بسهولة كبيرة.

وتتكون شكيمة اللجام من قطعتين جانبيتين، رباط الجبهة، وحزام الذقن. ولقطعة الفم حلقة عوض سلسلة الذقن، تبدو قاسية، ولكنها مناسبة لإخضاع الحصان لسير معين، وذلك عندما يريد العرب الاقتراب من عدوهم بأقصى سرعة.

وتجهيز الخيل بسيط للغاية ومريح، ولذلك فإن فائدته الكبرى تتمثل في أنه يمكن أن ينزع في لحظة واحدة، وهذا ضروري بالنسبة للعربي أثناء خدمته في ميدان المعركة.

تتمثل طريقتهم في الحرب في المناوشات المتفرقة، أو بعبارة أصح، في إطلاق النار من فوق الخيل، وهذا هو السبب في سيطرتهم الجيدة على مواقع المعركة، وقد أصبح ذلك عادة من عاداتهم. فهم ينصبون الكمائن، ويقومون بالغارات، ويظهرون بصورة مفاجئة في مجموعات كبيرة، ويتم هذا في الوقت، الذي يقل أن يتوقع فيه أحد ذلك منهم، ويستفيدون من كل خطأ يرتكبه العدو في اللحظة نفسها،ولا يسمحون بقطع الطريق عليهم عند تنشأ أية فوضى، ويحاولون باستمرار في حالة حدوث ذلك، إرهاق عدوهم ومضايقته، فهذه هي المهارات العسكرية، التي يتميز بها العربي. وعندما تطلق النار على امتداد معسكر العدو أو امتداد موقع، يترك البدوي فرسه يرسم دائرة، ويطلق النار من أقرب نقطة إلى عدوه، ثم يعيد شحنها في أبعد نقطة عنه. وإذا ما تحرك عدوه، هجم عليه صارخا، ويتوقف عند مدى الرصاص ليطلق عليه نار بندقيته، ثم يعود بسرعة لشحنها من جديد.

يستنتج المرء مما تقدم أن القوات الحربية (العسكرية) العربية في شمال إفريقيا تتكون بالدرجة الأولى من خيالة خفيفة غير منظمة، يمتاز فرسانها بالشجاعة والصمود، وهي مستعدة بحكم طبيعتها وعاداتها ورغبتها لخوض غمار الحرب في كل لحظة، ولذلك فهي خطيرة بالنسبة إلى قوة حربية (عسكرية) أوربية، تجرّ بما لها من عربات التموين والإمدادات الكبيرة على

التوغل في الأطلس الإفريقي، الذي هو بحكم طبيعته ومناخه في طـالح الغزاة بقدر ما هو في صالح المدافعين عن بلادهم.

وهناك عيب في الخيالة العربية، قد يبدو في ظروف معينة بشكل واضح، وهـو الاستقلالية المفرطة، التي يحارب بها كل رجل وتجعل القائد لا يتحكم في رجال فرقه، ولمن هنا فهو عـاجز عن تحقيق نتائج حاسمة بفرقه المجتمعة المتلاحمة.علينا حين نتأمل، بناء على هذا، الحرب الدائرة في شمال إفريقيا، ألا نضع صوب أعيننا غير ما يقع فيها عادة مـن مناوشـات متفرقـة. فسلاح العربي، الذي يتكون بالدرجة الأولى من البندقية، يجعله فوق ذلك غير أهل للالتحام والقيام بالهجوم على الخيالة الأوربية أو صد هجوم تقوم هي به . إنهـم يتجنبـون مـا قـد تحدثـه فيهـم الهجمة القوية من خسارة فادحة عن طريق سرعة خيولهم، التي تسمح لهم بالاختفاء بصـورة مفاجئة. ولكن ما أن ينسحب أعداؤهم، حتى يعودوا إلى الظهور مـن جديـد بصـورة مفاجئـة أيضا ولا تفوتهم أية لحظة لمضايقتهم وإلحاق الضرر بهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا أو منفذا.

ترى مع أي من هذه الفرق الموصوفة هنا كان الأمير عبد القادر قد ظهـر أمـام وهـران في شهر ماي 1832؟ إذا لم يتواصل نجاحه في الهجمات المتكررة، التي قام علـى القـوات الفرنسية الغازية، فقد استطاع على الأقل أن يظهر لرجاله مـدى جرأتـه وشـجاعته في ميـدان المعركـة. كان العرب في ذلك الحين يخافون المدفعية الفرنسية خوفا شديدا، وليعودهم عليهـا ويعلمهـم كيف يحتقرون رصاص المدافع، انطلق بحصانـه مـرات عديدة تجاه وابـل الرصـاص والقنـابل، وأرسل إليها تحيته بسخرية حين كانت تصفر حول أذنيه.

الفصل الثالث

وقعت في شهر أكتوبر معركة حقيقية بين حوالي خمسمائة أو ستمائة من فرسان الأمير وبين الفرنسيين أمام أبواب وهران، ومنـذ ذلـك الحين قطعـت كـل الاتصـالات الفرنسـية بداخـل البلاد. كان الأمير قد أمن جانب القبائل، التي جعلته رئيسا لها، حتى إنها خلعـت عليـه لقـب الباي (السلطان). وفي 10 نوفمبر ظهر مـن جديـد أمـام وهـران ونـاوش الفرنسـيين، فلـم يرفضوا له هذه المناوشة، إذ خرج إليه الجنرال بواير بجيشه لأول مرة بنفسـه، وهـزم العـرب بعد ما حارب هؤلاء بشجاعة وصمود وألحقوا بالفرنسـيين خسـائر فادحـة، عـانت مـن ذلـك خصوصا كتيبة القناصة من الخيالة الإفريقية الثانية.

وبعد ذلك بفترة قصيرة فقد الجنرال بواير منصب القيادة بسبب خلافاته مع الحاكم العام، الدوق دي روفيقو، وفي يوم 23 أفريل وصل الجنرال ديميشيل ليحل محله. فعزم هـذا الجنـرال على ألا ينتظر هجوم العرب عليه في وهـران، ومـن ثـم قـرر أن يذهـب إليهـم ويهـاجمهم في موطنهم. ففي ليلة ما بين السابع والثامن ماي غادر وهـران على رأس ألفـي رجـل يصحبهـم أربعة مدافع جبلية، وسار نحو قبيلة الغرابة، في الجنوب الغربي مـن وهـران، ووصـل إلى أحـد الدواوير مع طلوع الفجر. ولم يكد العرب يقومون بأية مقاومـة حيـال هـذه الهجمـة المباغتـة. وأخذ الفرنسيون معهم عددا كبيرا من قطعان الماشية وبعض الأسـرى مـن الرجـال والنسـاء، حملوهـم إلى وهـران وعـاملوهم فيهـا معاملـة حسـنة. ولكـن محـاربي القبـائل المجـاورة هـاجموا الصفوف الفرنسية في اللحظة، التي أمر فيها رجال جيشه بالانسحاب، ولم يتوقفوا عن إطلاق النار على قواته ومضايقتها حتى أصبحـت علـى بعـد ميـل ونصـف الميـل مـن وهـران، ولكـن القبائل لم تتمكن من افتكاك غنائمه منه. وما أن سمع الأمير عبد القادر بهذه الغزوة، الـتي قـام بها الجنرال الفرنسي، حتى جمع ما قدر على جمعه من محاربي شعبه، وخرج بهم وعسـكر علـى بعد ميلين جنوب وهران على مقربة من الكرمة، أقام فيـه الفرنسـيون فيمـا بعـد معسـكرا حصينا، أطلق عليه اسم الكرمة، وكان قد رافقـه في هـذه الخرجـة أبـوه الشـيخ العجـوز محـي الدين. حين وصل خبر ذلك إلى الجـنرال ديميشـيل، قـرر أن يهـاجم معسـكر الأمـير في الليلـة الموالية، فخرج بجيشه يوم 20 ماي قبل طلوع النهار، وذلك ليقضي في البداية وبصفـة نهائيـة

على التأثير، الذي يحدثه هذا الأمير الشاب في مواطنيه بشكل متزايد يوما بعد آخر. ولكن الحظ كان مع الأمير عبد القادر. كان بعض الضباط الأقل جرأة، أو فلنقل بعض الضباط الحذرين، الذين كانوا قد خاضوا معارك ضد العرب خلال مدة أطول، قد نصحوا الجنرال ديميشيل بالعدول عن خطته، ولكنه، وهو الذي كان قد وصل إلى البلاد حديثا، تصور أن عليه أن يأخذ برأيهم ويعمل به. لذلك قرر مواصلة زحفه، وصفف رجال جيشه وهو في الطريق إلى الكرمة استعدادا للدخول مباشرة في معركة مع الأمير عبد القادر. غير أن الأمير عبد القادر تجنب الدخول معه في هذه المعركة، واكتفى بإرسال عدد من الفرسان لإطلاق النار على المواقع الفرنسية. عندئذ اتخذ الجنرال ديميشيل، بعد معاينة المكان وبعد أن اتضح له ما في ذلك من منفعة، خصوصا في هذا المركز، الذي بلغه الفرنسيون، أن يبني فيه حصونا صغيرة 6) للدفاع عن وهران، وأمر بتسوية المكان وتهيئته لذلك، ثم عاد إلى المدينة. وفي صباح يوم 27 أمر بخروج الفرق الآتية: عشر سرايا من سلاح المشاة، كوكبة من خيالة القناصة بقذافين لحماية أعمال إقامة تلك الحصون الصغيرة، التي بدأ المهندسون في إنجازها تحت إشراف النقيب كافينياك Cavaignac. وفي الحين أرسل الأمير عبد القادر قسما من المناوشين، راحوا يمطرون الفرنسيين بوابل من الرصاص، وقسم ما تبقى من القوات العربية إلى فرقتين، كانت مهمة إحداهما أن تلتف حول الفرنسيين وتقطع عليهم طريق العودة إلى المدينة. لكن الجنرال ديميشيل، الذي كان إطلاق النار قد تطلب منه المجيء، أدرك قصد عدوه من وراء ذلك، فراسل الجنرال سوزي Sauset في الحين وطلب منه أن يرسل إليه كل القوات، التي لا ضرورة لها للدفاع عن أسوار المدينة، وهو ما حدث وشيكا. حينئذ أمر الأمير عبد القادر قواته بالقيام بهجوم عام، تميز بالجرأة والحيوية، ولكن أنى لفرسانه المتهورون غير المنظمين أن يستطيعوا مضايقة صفوف جيش أوربي منظم متلاحم، في استطاعته دوما أن يظهر بفضل حركاته الآلية الجهة الأكثر خطرا ؟ وأنى للأسلحة العربية الخفيفة، البندقية العربية الطويلة والياتاغان، أن تستطيع مقاومة تفوق الأسلحة الفرنسية المتمثلة في حراب سلاح المشاة وقذائف المدافع؟ لم يكن للأمير ما يقابلهم به غير روعة خيوله العربية ومظهر رجاله الحربي بما يرافقه من صراخ بدائي، يهاجون به أعداءهم ليبهروهم ويفرضوا عليهم احترامهم. حقا إن في استطاعة هذا

الصراخ أن يفزع العدو الغر ويزعزعه، إلا أن معظم الفرق الفرنسية كانت قد تعودت على مواجهة العرب، ولذلك لم يتزحزحوا عن أماكنهم، واستطاعوا أن يصدوا الهجوم العربي

في كل الجهات، حتى إن كتيبة من القناصة هاجمت سرية، كانت تريد محاصرة الجناح الأيمن، وأبادتها عن آخرها بضربات السيوف. كما أن نيران المدافع قد ألحقت بالعرب خسائر معتبرة، أما الفرنسيون فلم تتعد خسائرهم 3 قتلى و40 جريحا.

لم يرفق الأمير بنفسه لا في هذه المناسبة ولا في المناسبات الأخرى، ورغم فشله في هجومه هذا، فإن نفوذه بين مواطنيه قد تزايد بشكل ملحوظ. لقد عاد بعد المعركة إلى معسكره قرب الكرمة، بينما دخل الفرنسيون وهران، ولم يتركوا في الحصون الصغيرة، التي كانت قد أصبحت عندئذ جاهزة، غير 40 رجلا. لقد تعرف العرب في الليل على فائدة حصن من هذه الحصون الصغيرة، ذلك أن قسما منهم اقترب للتعرف عليها، وكانت جرأتهم وفضولهم سيكلفانهم غاليا لو لم يطلق النار أحد الجنود ويحول بذلك بينهم وبين تخطي الحواجز للوصول إلى الحصن، بعد أن كانوا قد هموا بالدخول إليه. تهاطلت الأمطار بصورة مستمرة يومي 28 و29، فحالت دون القيام بأية عملية عسكرية. وفي يوم 30 تقدم من الحصن أثناء بعض رجال الأمير، وقد جلبوا معهم مدفعا، وأطلق به النار عليه، لكن المدفع تفكك بنفسه، ولذلك لم تكن له أية عواقب.

أزال الأمير عبد القادر معسكره يوم 31 وتوجه إلى معسكر، إذ كان قد اقتنع بأنه لا فائدة من الهجوم على وهران، لكنه كان يتابع كل ما كان يقوم به الفرنسيون في المقاطعة.

كان الجنرال ديميشيل قد قرر توسيع الحكم الفرنسي وإرسال حاميتين إلى المدينتين الساحليتين أرزيو ومستغانم، لأن المدينة الأولى كان لها ميناء جيد إلى حدما، يقع على بعد ميل واحد منها. وكان ديميشيل ينفذ إرادة الوزارة الفرنسية عند اتخاذه لهذا القرار، لأن الفرنسيين في باريس كانوا في ذلك الحين يرون أن أفضل طريقة لتثبيت الحكم الفرنسي في إفريقيا الشمالية وتوسيع مساحته هي القيام بالفتوحات، وكانت الحرب تعني بطبيعة الحال السياسة التي يتمنى أن يتبعها كل جنرال فرنسي يرسل إلى إفريقيا الشمالية،لأنها تتيح له إظهار قدراته وإرسال تقارير إلى الوطن، يتحدث فيها عن انتصاراته ،ومثل هذه التقارير تستقبلها الأمة الفرنسية دوما بحماسة كبيرة. وبهذه الطريقة يستطيع أن يفتح مدينة بعد أخرى، تتطلب كل واحدة منها حامية قوية،.في حين أن النظام الآخر لا يستطيع سوى احتلال أماكن قليلة حصينة والانتقال منها إلى الاستيلاء على ما حولها، وهو ما يتلاءم مع المصالح الحقيقية لفرنسا ويصبح الطريقة الوحيدة لتحقيق الهدف من الاستعمار.

هناك قسم من مدينة أرزيو، وهو عبارة عن آثار، تسكنها قبيلة برأسها قاض يدعى بتونة 7)، أقام علاقات تجارية مع الفرنسيين، خصوصا حرصه على إمداد كتيبة خيالة القناصة، التي اتخذت من وهران مقرا لها، بصغار الخيل. ولم يكن من مصلحة الأمر عبد القادر أن يغض الطرف عن انتقال الخيول العربية إلى العدو، فقد كان يعتبرها بحق جزءا من ترسانته الحربية. لذلك اعترض على ما فعله بتونة بشدة وأمره أن يقطع جميع علاقاته التجارية مع الفرنسيين. ولما لم يفده ذلك، أمر بإحضاره إلى معسكر، وخنق في النهاية بعد أن سجن فيها عدة أشهر 8).

كان الجنرال ديميشيل قد احتل ميناء أرزيو، الذي يسميه العرب المرسى، في 4 جويلية في نفس الوقت، الذي احتل فيها الأمير مدينة أرزيو وطلب من سكانها أن يغادروها. فاختلط قسم من هؤلاء بالعرب المقيمين في سهل سيراط 9)، ولم يهرب منهم إلى الفرنسيين إلا القليل منهم، وكانوا من أقرباء بتونة، وأقاموا في مقاطعة وهران على مقربة من مستغانم. نجح الجنرال ديشيل في صد قوات الأمير عبد القادر عن مدينة أرزيو، ولكنه لم يتمكن مع ذلك من إعادة سكانها إليها، بقيت منذ ذلك الحين مهجورة. أما ميناء أرزيو، فقد استقرت به حامية تتألف من 3000 فرنسي، أقاموا حولهم عددا من الحصون الصغيرة، وحولوا المخازن، التي وجدوها فيه، إلى ثكنات.

لم يقلل من عزيمة الأمير عبد القادر فشله في الهجوم الأخير على وهران إطلاقا، فقد أخذ يعمل بحماس جديد على توحيد كلمة القبائل العربية. كانت منطقة حكمه المعترف له بها محصورة في نواحي معسكر ولا تتعدى 12 ميلا، ولكن مشاريعه كانت تستهدف توسيعها لتشمل المقاطعة كلها. ومن أجل هذا الهدف ضمن أولا تأييد قبيلة بني عامر القوية، وسار بعد ذلك إلى تلمسان، وهي مدينة، تشكل بحكم موقعها على بعد 9 أميال من الحدود المغربية، وبحكم حصونها المنيعة، نقطة عسكرية في غاية الأهمية. فالغابات الوفيرة، وحقول أشجار الزيتون الشاسعة، والينابيع الفاخرة حولها، كل هذا يجعلها زيادة على ذلك من أجمل الأماكن في إفريقيا الشمالية كلها. كانت مدينة تلمسان، التي كانت تبدو بطبيعتها مهيأة لاحتضان عدد كبير من السكان، ضحية منازعات داخلية، فكانت مقسمة إلى قسمين. كان الأتراك والكراغلة يحكمون القلعة (المشور) وكل ما له صلة بها، وقد جعل هؤلاء على رأسهم رجلا يدعى بورسالي 10) وكان العرب والحضر سادة القسم المتبقي من المدينة، وقد نصبوا على رأسهم رجلا غنيا مثقفا وممتازا، يدعى بن نونة، رئيسا لهم. وكانت العداوة بين هذين القسمين مستحكمة بصورة مستمرة، ولكن بما أنه لم يكن من مصلحتهما أن يفني قسم منهما القسم الآخر، فإن هذه العداوة لم تكن ذات طبيعة خطرة.

كانت هذه الأوضاع تبدو ملائمة لخطط الأمير عبد القادر، ولذلك ظهر في شهر جويلية مع بعض فرقه العسكرية أمام مدينة تلمسان، وطلب من بن نونة الاعتراف به. فاغتنم الأتراك والكراغلة فرصة خروج بن نونة إلى الجبهة لمحاربة الأمير، فوثبوا عليه من الخلف واحتلوا تلمسان ونهبوها . وبذلك كملت هزيمته حتى إنه لجأ، لكيلا يقع في أيدي أعدائه، إلى قرابة 11) قرب مدينة تلمسان، تشكل حرمة لا يجوز تدنيسها. وترك هذا المكان في الليل وفر إلى سلطان المغرب عبد الرحمن، الذي كانت له صلة به منذ فترة طويلة.

وعامل الأمير عبد القادر سكان مدينة تلمسان بصفته الحاكم فيها معاملة حسنة، وسرعان ما فاز بحبهم ونال ثقتهم، وولى عليهم قائدا من بينهم، وهو رجل ممتاز يدعى سيدي حمادي 12)، إلا أنه لم يكن له النفوذ ولا الخدمات، التي كانت لابن نونة.

كان الأمير ينتظر أن يبايعه أيضا أتراك قلعة المشور، الذين سهلوا له فتح المدينة، ولكن ذلك لم يحدث. كانوا قد وعدوا بعقد الصلح معه، ولكنهم رفضوا فتح أبواب القلعة. وبما أنه لم تكن معه مدفعية حتى يرغمهم على ذلك، فقد تظاهر بأنه راض بالصلح معهم، وتجنب الدخول في حرب عقيمة معهم، وعاد إلى معسكر.

وفي الطريق علم أن أباه سيدي محي الدين قد توفي، فتأثر لذلك تأثرا بليغا. فقد كان يرى، زيادة على حبه له بحنان طفولي، أن الفضل الأكبر في سلطته يعود إلى الاحترام الكبير، الذي يظهره العرب لهذا الشيخ الجليل 13).

من النادر أن يحدث، في إفريقيا الشمالية كما هو الأمر في أروبا، أن تموت شخصية سياسية مهمة دون أن يتصل الأمر بربطها بجريمة ما. وهكذا انتشرت عن محي الدين إشاعة مؤداها أن أشخاصا، كان بن نونة قد أرسلهم، هم الذين وضعوا له السم . وقد قيل أن قائد تلمسان السابق يأمل أن يضع حدا لسلطة الأمير عبد القادر بالقضاء على الرجل، الذي لا يستطيع الأمير، فيما يعتقده هو، تسيير البلاد بدون بنصائحه. حتى ولو كان هذا صحيحا، وهو ما لم يقم عليه دليل، فإن بن نونة قد أخطأ في الحساب، ذلك أن الأمير قد أظهر للجميع، رغم أنه فقد من كان يوجه خطاه الأولى، أنه جدير بالمنصب، الذي استدعاه إليه حظه، من كل النواحي.

لقد وقف حينئذ وحده مع الله ومع الموهبة التي منحه الله إياها، فقد أمده وعيه بذلك بالقوة وعدم التراجع إرادة وعملا، ولم يكن له أن يحقق شيئا لولا هذا الذي قر في نفسه

وجدانه. كانت عقيدته بالدرجة الأولى، وذلك ما كان يؤمن به، هي التي مكنته من التأثير في مواطنيه لتوحيد صفوفهم من أجل الوقوف في وجه المسيحيين، والتقيد بالعادات والتقاليد، واتباع التعاليم الدينية، مما جعل له شخصية قوية، تميزت بنوع من القداسة، اعترف له الشعب بها في أعماقه منذ ولادته بصفته مرابطا. كان كثيرا ما يجمع العرب حوله، ويلقي فيهم خطبا دينية وسياسية ويفسر لهم آيات من القرآن الكريم، ترتاح إليها نفوسهم. وكان يحترم الأماكن المقدسة في البلاد، ويكثر من إقامة الصلوات فيها، ذلك أن الصلاة، وهي العضو الذي يربط الإنسان بالسماء، كانت عملا مهما ومقدسا بالنسبة للأمير عبد القادر، فمنها كان يستمد القدرة على تنفيذ خططه من جهة، وعلى التأثير في شعبه من جهة أخرى. وكان ضريح أحد المرابطين على مقربة من معسكر هو المكان المفضل، الذي غالبا ما يؤدي فيه صلاته، فكان يقضي في أداء صلاته ساعات أطول من أي فرد من أفراد شعبه. وعندما يغادر المكان المقدس، يعلن، إثارة للبهجة الكبرى في نفوس العرب، ما أوحى به إليه الميت، وهو يتضمن كل ما يريد في كل مرة من هذا الشعب أن يفعله. لعل الذكاء، وليس الحماس الديني، هو الذي يقود الأمير عبد القادر في حماسته الدينية. ومع ذلك فمن الطبيعي أن يشعر الإنسان، الذي يسمو عن سواه، ويخضع الظروف كلها لإرادته، ويمهد الطريق لتطوير قوته، بشرارة إلهية في دخيلة نفسه، تجعله في الوقت نفسه أقرب إلى القداسة الإلهية. هكذا يستمد منها الإيمان بأنها تلهم خطاه وأن يدا عليا توجهها، وهذا ما يطبع تصرفاته بطابع التفاؤل والثقة، فيتم له بهما التوفيق في كل عمل يقوم به، ولذلك أطلق على هذا النوع من الرجال اسم المؤلهين.

عاد الأمير عبد القادر يوجه الآن نظره نحو الفرنسيين ونحو ساحل البلاد، وعلى الخصوص نحو مدينة مستغانم، التي تحيط بها غابات كثيرة، وتبعد بألف خطوة عن البحر عند نهاية سهل الشلف الكبير، الذي يمكن من تجنب جبال الأطلس وقد يشكل خطرا على معسكر. كان يحكم مستغانم التركي إبراهيم، وكان تابعا للسلطة الفرنسية، ولم يكن عرب المنطقة من أصدقاء إبراهيم، لكن الأمير لم يصبر، وهو لا يملك مدافع، عن فتح مدينة، يحيط بها سور وحصون عديدة، تحتوي مدافع تسهل أمر الدفاع عنها. لذلك قدم إبراهيم عروضا مناسبة له إن أعلن هو وأتراكه خضوعهم لسلطته، ولكن حكام الجزائر القدامى رفضوا أن يخضعوا للسيادة العربية، وفضلوا الخضوع للفرنسيين وهم غرباء عن البلاد. وهكذا ظل إبراهيم مخلصا للفرنسيين، ولكنهم كافئوه على إخلاصه هذا مكافأة سيئة، فقد أرسل ديميشيل، الذي كان قد فقد ثقته فيه، فيلقا لاحتلال مستغانم، ولم يلبث إبراهيم أن أرسل بعد ذلك بقليل إلى وهران.

كان الأمير عبد القادر قد سمع بذلك عند وصوله من تلمسان، فظهر له أن يستغل هذه الظروف، التي قد تكون في صالحه، فجمع فرقا من رجاله، وخرج إلى مستغانم، التي وصلها في 2 أوت ودخل في مناوشة، كانت نتيجتها أن تحصن الفرنسيون في الحصون وتحصن الأتراك خلف الأسوار. فأخذ القسم الأكبر من سكان المدينة أمتعتهم بموافقة الفرنسيين وغادروها، فدمرت القوات العسكرية عقب ذلك كل المناظر الطبيعية الضاحكة. فما يتميز الفرنسيون في إفريقيا الشمالية هو أنه ما من مكان احتلوه ونزلوا به إلا اختفت أشجاره، وجفت عيونه، وفر سكان البلاد منه، فلا يبقى غير الصحراء. إن الفرنسيين لقادرون على الاحتلال، لكنهم عاجزون عن الإبقاء على شيء.

ظهر للجنرال ديميشيل أن يستغل وجود الأمير عبد القادر على مقربة من مستغانم ليقوم بغزوة في داخل البلاد، فأسرع إلى وهران وأرسل في اليوم الثاني من وصوله، وهو يوم 5 أوت فيلقا بقيادة العقيد ليتان *L' Etang*، مهمته الرئيسية الهجوم على الزمالة، القبيلة العربية المحاربة، التي ظهرت رغبة أقل في القسم على الولاء لراية الأمير.

هاجم العقيد ليتان عند مطلع فجر يوم 6 أوت بضعة دواوير لقبيلة الزمالة، وغنم منها غنائم معتبرة، ولكن الفرنسيين كلهم عرفوا أثناء عودتهم أوخم العواقب، التي يجلبها معه انسحاب اضطراري، يتم في موسم الحر وفي مناخ إفريقي. فقد أحاط بهم من جميع النواحي بدو، طمعوا بدورهم في الوصول إلى غنائم، وقطع الرؤوس هو أكبر ما يسرون له ويبتهجون به. كان على الفرنسيين أن يدركوا هنا صحة قول الأمير لجيشه، وهو يشير إلى الشمس:

ـ عدو الفرنسيين هناك!

كان انسحاب الفرق الفرنسية، التى كانت العرب يضايقونها، يشبه موكب جنازة، يتخلى عند كل خطوة عن فرسية يتركها للطيور وبنات آوى. وكان على فرقة المشاة، وهي سلاح متواضع، لكنه ذو أهمية كبيرة، أن تجابه في هذه الحالة أكبر الصعوبات. لقد كان عليها أن تسير، وهي محملة بمتاع كبير وبنادق ثقيلة، على الأقدام فوق أرض ملتهبة. كانت أشعة الشمس وريح السموم الصحراوية تعيقان الجنود عن التنفس، ولم يكن هناك من قطرة ماء تنعشهم. ثم إنهم لم يأخذوا خيطتهم ونسوا أن يحملوا معهم المواد الغذائية ووسائل نقل الجرحى، فكان عليهم أن يحملوهم الآن فوق أيديهم. وكان العرب، الذين كان عددهم يتزايد مع كل لحظة، قد توزعوا أمام الصفوف الفرنسية وعلى جانبيها، وراحوا يضايقون الجنود بنيرانهم بصورة مستمرة ويشعلون النار في الأعشاب الجافة، التي كان الفرقة الفرنسية

تسير فيها، ليحولوا بذلك دون تقدمهم ويغتنموا من الوقت ما يسمح بوصول الهاربين من الدواوير العربية البعيدة. لقد حطمت هذه المتاعب المتنوعة معنويات سلاح المشاة الفرنسيين. وقد شوهد بعض الجنود وهو يلقون بأسلحتهم من أيديهم ويرفضون أن يواصلوا السير، دون أن يهتموا بتهديدات رؤسائهم وتوسلاتهم، فارتموا فوق الأرض ليشتروا لحظة راحة بحياتهم، إذ سرعان ما وضع الخنجر العربي حدا لحياتهم. أما جنود فرقة المشاة، الذين بقيت لديهم القدرة على السير، فلم تكن لهم القوة على المناوشة. ومن ثم كان للخيالة وحدها مع المقذافين، اللذين حملهما العقيد ليتان معه، أن تبقي العرب بعيدا عن صفوف القوات الفرنسية كلها، وهو ما تم لها بكثير من الشجاعة والبسالة.

وصلت الفرقة في النهاية بعد متاعب جمة إلى العين القريبة من الكرمة (وكان الأمير قد عسكر فيها في السابق)، إلا أن مصيبة أخرى كانت في انتظارها هنا، ذلك أن المشاة اجتمعوا، بعد أن اندفعوا أولا الى ماء راكد غير صحي ليشربوا منه، تحت ظلال أشجار التين، التي كانت متباعدة عن بعضها البعض، وهنالك أصبح من المستحيل حملهم على مواصلة السير.

وفي هذه اللحظة الحرجة أوضح العقيد ليتان، الذي كانت شجاعته تنمو مع الخطر المحدق بهم، لضباطه أنه إما أن يستنقذوا المشاة وإما أن يستعدوا للموت، فوافق الجميع على هذا الاقتراح النبيل. فأحاط القناصة من الخيالة بأنصاف الموتى من الجنود، الذين كانوا قد استراحوا تحت الأشجار، وأعدوا أنفسهم وقوفا على الأقدام للتصدى لهجوم العرب، لكن العرب، الذين أفزعهم هذا الموقف، لم يجرؤا على مهاجمتهم . كان الكثير منهم قد جاءوا أيضا من أماكن بعيدة، ومن ثم كانت خيولهم متعبة حتى إنها لم تكد تستطيع الحركة. وفي النهاية خامرهم الخوف من المقذافين، اللذين ألحقوا بهم خسائر معتبرة.

وفي أثناء ذلك توجه الضابط المرافق للجنرال ديميشيل، الذي كان قد رافق العقيد ليتان، بمفرده عبر السهل إلى وهران، مضحيا بنفسه من أجل إنقاذ الجميع مما حل بهم، ليحدث الجنرال عن الحالة المؤلمة التي هم فيها. وحالف الحظ شجاعته، فوصل وهران بعد أن قطع ميلا ونصف الميل على ظهر حصانه من غير أن يقع له حادث. فسار الجنرال في اللحظة نفسها بجيش الإنقاذ والمؤونة، ووفق في الوصول في وقت مبكر، كان كافيا لإنقاذ الأشقياء من زملائه، فاستطاعوا أن يصحبوا معهم إلى وهران، رغم ما عرفوه من ألم عذاب، القسم الأكبر من غنائمهم و82 أسيرا، عشرة رجال والبقية من النساء والأطفال.

بعد سفر الجنرال ديميشيل حمل الأمير عبد القادر بكل ما له من قوة وطاقة خاصة به على إنجاز ما سمي بمحاصرة مدينة مستغانم. فقد أقام الفيلق الرئيسي في الضاحية المدمرة بجديت 14)، وقام منها في يوم 3 أوت بالهجوم على الحصون الفرنسية كلها. وكان ضريح المرابط سيدي معزوز، الذي يقع قرب البحر وتحتله كتيبة المشاة بقيادة الفريق مورو *Moreau*، هو الهدف من مجهودات الأمير. فقد كانت خطته أن يحتل الضريح ليحول بين الفرنسيين وبين الوصول إلى البحر، وهو ما لم يحالفه النجاح فيه. ذلك أن الفرق، التي كان قد أرسلها إليه، قد استقبلتها الحراب الفرنسية، بعد أن عانت قبل ذلك من النيران. وهاجمتهم في الوقت نفسه ثلاث سرايا، كانت قد خرجت من المدينة، وألحقت بهم أضرارا بالغة.

وفي يوم 5 أمر الأمير عبد القادر بالهجوم بقوات أكبر على الضريح نفسه، ولكن السفينة الشراعية الفرنسية *le Hussard*، التي كانت في ذلك الحين راسية، أطلقت نيرانها الرهيبة على العرب، وأرغمتهم على الرجوع، فالتحقوا بفيلقهم الرئيسي في تستيد، ومن هناك قام بهجوم على المدينة نفسها، وقد نفذ هذا الهجوم بشجاعة وعنف غير عاديين. فقد تقدم المشاة العرب حتى أسوار المدينة، التي لم يكن لها خندق وكانت تطلق نيرانها على المدفعيين من الثُّلم والثقوب. وبما أن الأمير عبد القادر لم يكن له سلاح المدفعية، فقد حاول أن يحفر خندقا في السور، لا يوجد بجانبه جدار، حتى لا يتعرض للنار. كان من الممكن أن تنجح هذه الخطة لولم يقف النقيب جيراردون *Gérardon* مع رجاله من رماة الفرمانات على امتداد السور عرضا ويطلق النار على العرب الذين كانوا يحفرون الخندق، فأجبرهم بذلك على الرجوع بعد أن لحقت بهم خسارة معتبرة. - في يوم السادس والسابع من الشهر كانت الهجمات أقل حيوية. وفي اليوم الثامن كان على السفينة الشراعية الفرنسية أن تقلع بسبب العواصف، فاغتنم الأمير هذه الفرصة ليجدد هجومه على ضريح سيدى معزوز 15)، ولكن نجاحه في هذا الهجوم لم يكن أحسن من نجاحه في المرة السابقة.

تعب العرب أخيرا من الهجمات المتكررة العقيمة، ثم إن انتشار خبر الهجوم على قبيلة الزمالة قد دفع الكثير منهم إلى العودة إلى دواويرهم. لذلك وجد الأمير عبد القادر نفسه مضطرا إلى رفع الحصار، فعادت كل قبيلة إلى موطنها وتوجه هو نفسه مع رجاله من المأجورين إلى معسكر 16).

كانت قبيلة الزمالة قد أرادت خلال ذلك استرداد ما أخذ منها من النساء وقطعان الماشية، فتوجه رجالها إلى الجنرال ديميشيل وعرضوا عليه الصلح وأوضحوا له أنهم يريدون

عبد القادر والاستقرار تحت حماية الفرنسيين في سهل ميسرغين على بعد ميلين من وهران. وقدموا له رهائن ضمانا لصحة نيتهم وتأكيدا لعزمهم، فاستردوا بتلك التعهدات نساءهم وقطعان ماشيتهم.

وفي نهاية سبتمبر وصلت إلى وهران اللجنة، التي أطلق عليها اسم اللجنة العلمية الإفريقية للقيام ببحوثها. وعندما علم الأمير عبد القادر بذلك، استدعى بضعة آلاف من العرب إلى حمل السلاح من جديد وقصد وهران.

في أول أكتوبر توجهت اللجنة إلى ميسرغين لفحص سهلها، يرافقها 1800 رجل تحت قيادة الجنرال ديميشيل. وعلى مقربة من بحيرة السبخة 17)، عند العين البيضاء، أمر الأمير عبد القادر رجاله، الذين قد اختفوا حتى ذلك الحين خلف مرتفع من الأرض، بالخروج ومهاجمة الصفوف الفرنسية، ولكنهم لم يستطيعوا مع ذلك إحداث الاضطراب في صفوفهم. ولم يواصل الفرنسيون سيرهم، وإنما أخذوا وهم في أحسن تنظيم طريق العودة إلى وهران، وإن كانوا قد خسروا بضعة جنود و30 جريحا. وفي هذا اليوم اكتفى رئيس اللجنة العلمية، الجنرال العجوز بونيه *Bonnet*، الذي لم يستطع التحكم في حماسه أثناء جولة قام بها في سهل المتيجة، فراح يقود فرقا لم تكن تابعة له ـ اكتفى بتقديم عينات من شجاعته، التي اشتهر بها في أيام شبابه، وكان يسر خلال الانسحاب كله في أقصى صفوف القناصة.

بدأت القبائل العربية، التي لم تعد تجد سوقا لبضائعها، تحس بهذا الفقدان وتطمح إلى التغيير. فأخذت قبيلة مجاهر تتردد على سوق مستغانم، وكانت البرجية تزود أرزيو بالمواد الغذائية، وكانت قبائل الزمالة والدوائر تأتي إلى وهران دون خوف.

كان الأمير عبد القادر نفسه يطمح إلى السلام ليتمكن من تنظيم الإدارة الداخلية في بلاده، ولكنه كان يريد سلاما يخضع لخططه هو، فأخذ ينشر أقوى الأفكار والعروض، التي كانت في ذهنه، بين العرب، وذلك لكي يبعد الأفكار المختلفة المفردة، التي تتناقض مع وحدة تسيير البلاد، عند ما يشرع في المفاوضات مع الفرنسيين. فكان على العرب أن يخضعوا له ويرضوا بسلطته، حتى الزماليون كان عليهم أن يلغوا التزاماتهم مع الفرنسيين. وهكذا استغل الأمير عبد القادر القبائل الأكثر ولاء له وعداء للفرنسيين لمنع كل الاتصالات معهم. فكلف قبيلة الغرابة بمنع سكان المناطق الداخلية من التوجه إلى وهران وأرزيو، وتلقت قبيلة هاشم نفس الأمر بالنسبة لمستغانم.

وكان من بين العرب، الذين كانوا يرغبون في الربح من وراء زيارة الأسواق الفرنسية، شيخ من قبيلة البرجية، يدعى قدور الطيب 18). فبعد أن اشترى هذا الشيخ في أحد الأيام مواد غذائية من أرزيو، اتجه إلى القائد الفرنسي وطلب منه أن يزوده بحرس، يرافقه إلى مكان معين على مسافة من المدينة، مدعيا أنه يخشى أن يهاجم وهو في طريقه إلى موطنه. فقدم له ضابطا وأربعة جنود من قناصة الخيالة، ولكن ما كاد هؤلاء التعساء يبتعدون ربع ميل عن أرزيو، حتى وقعوا في كمين نصب لهم، قيل إن قدور الطيب نفسه كان هو الذي نظمه، فقتل أحد القناصة وأخذ الأربعة الآخرون إلى مدينة معسكر.

الفصل الرابع

بعد فترة قصيرة تسلم الأمير عبد القادر رسالة من الجنرال ديميشيل، طلب منه فيها إطلاق سراح الأسرى الأربعة، الذين كانوا قد أسروا بشكل مناف للقانون الدولي. وكانت هذه الرسالة بداية لمراسلة، انتهت بالاعتراف بالأمير عبد القادر سلطانا على العرب وسقوط ديميشيل. لقد بدأ الجنرال دي ميشيل في هذه الرسالة الأولى يجامل الأمير عبد القادر، وذلك عندما قارنه بأكابر أمراء الأرض. وسنرى من المراسلة القادمة كيف قاد ذكاء الأمير المفاوضات مع أعدائه، فكانوا هم أنفسهم أولئك الذين بنوا له العرش، الذي كان يريد اعتلاءه.

كان جواب الأمير على رسالة الجنرال ديميشيل كما يلي:

" اليوم السادس من جمادى الثانية، عام 1249 (30 أكتوبر 1833)

الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله.

من الحاج عبد القادر بن محي الدين، أمير المؤمنين المجاهدين، إلى جنرال وهران ديميشيل.

السلام عليك !

لقد وصلتني سالتك، التي تعرب فيها عن رغبتك في إطلاق سراح الأسرى الأربعة، الذين هم في قبضة يدي، ففهمت كل ما جاء فيها، وهاأنذا أسارع إلى الإجابة عنها.

لم أفكر في أن أقترح عليكم افتداء جنودكم، وذلك راجع إلى ما أخبرت به خطأ من أنكم عازمون على تقديم التضحية لتحريرهم والتخفيف من حدة شقائهم في الوقت نفسه 19).

ذكرت لي أنك مستعد، بغض النظر عن مكانتك، للقيام بالخطوة الأولى، ولكني أعتقد أن هذا واجبك حسب العادة المتبعة في الحرب. ولكل واحد منا وقته في الحرب، فيوم لك ويوم آخر لي. والرحى تدور بالنسبة إلينا معا، وتظل تطحن ضحايا جددا بصورة دائمة. فهذا واجب ديني بالنسبة إلينا معا، وعلينا أن نؤدي هذا الواجب كما يجب. أما فيما يخصني أنا، فإني لم أسبب لك إزعاجا بمطالبتي إياك بإطلاق سراح الأسرى الذين أخذتهم منا. لقد آلمتني، بصفتي إنسانا، المصيبة، التي حليت بهم، لكني بصفتي مسلما أرى أن موتهم ما هو إلا حياة جديدة بالنسبة إليهم، لأن تحريرهم من العبودية يعد موتا مهينا لهم. لذلك لم أطلب العفو عنهم أبدا. لقد قلت لي في رسالتك إن ملوك الأرض يمتازون بالشهامة وعظمة النفس.

واستنتجت من ذلك أن علي أنا أن أعيد إليك الأسرى، الذين هم بيدي، دون فدية. إن مبدأك هذا صحيح في عمومه، ولكن ديني يمنعني من ذلك، فافتداء العبيد لا يجوز إلا بين المسلمين. وقلت كذلك أن هؤلاء الفرنسيين كانوا بصدد حماية عرب من عرب آخرين، غير أن هذا لا يمكن أن يكون مبررا بالنسبة إلي. فكل من المحميين والحامين يعدون أعداء بالنسبة إلي، وجميع من يأتون إليك من البادية إنما هم مؤمنون غير صحيحي الدين يعملون ضد ما يوجبه عليهم دينهم. أما أولئك الذين وضع حبل حول أعناقهم،كما تسمي ذلك، فإنهم ليسوا في خدمتي، وهم ينتمون إلى طبقة غير مهمة أدنى من أن أجعلهم في خدمتي.

وأغتنم هذا الفرصة لأعبر لك عن دهشتي من سهولة تصديقك لما يتظاهر به أمامك أولئك الناس، الذين يأتون إليك خفية، من وفاء وإخلاص، فهم إنما يفعلون ذلك خوفا من أن أعرف عنهم أفعالهم هذه . أما أنا فإني لا أثق حتى في ظل أناس من هذا النوع، وكل الذين يقعون في يدي منهم، آمر بقطع رؤوسهم أو أزج بهم في السجون، وإني لأراك تميل إلى الثقة بمن لا يستحقون مثل هذه الثقة.

أما فيما يخص الطلب، الذي تقدمت به إليك فيما يخص الأسرى، فكن على يقين من أن السبب في ذلك لا يعود إلى أنني كنت أطمع في الحصول على مال. وإنما يعود فقط إلى أنني أردت أن أعرف رأيك في هذا الأمر.

إنك لتفتخر بأنك أطلقت سراح قبيلتي الغرابة والزمالة دون فدية، وهذا صحيح، ولكنك كنت قد هاجمت شعبا يعيش تحت حمايتك ويزود أسواقك بالمواد الغذائية، إذ استولى جيشك على كل ما كان لهم من متملكات. ولو أنك تركت مقاطعتك وهاجمت قبائل كانت تنتظرك مثل الحبيب بوعلام وخليفة وبني عامر والحشم، لكان عندئذ من حقك أن تتحدث عن المجد الذي فزت به وتسميه الآن مفاجأتك للغرابة والزمالة. إذا ما أنت ابتعدت مرة عن وهران بمرحلتين أو ثلاث مراحل، فإني آمل أن يرى الناس ويعرفون في النهاية من منا السيد في هذه البلاد. لقد آن أوان ذلك، فلو أنت بقيت على الدوام في منازلك، فإن الآلام، التي يتعرض لها سكان هذه البلاد الأشقياء، ستدوم إلى ما لا نهاية." 20)

يظهر من رسالة الأمير هذه أنه يتحدى قوة الجنرال ديميشيل ويدعوه إلى محاربته في داخل البلاد، ولذلك فكر الجنرال في أن يظهر للعرب مدًى تفوق الأسلحة الفرنسية. وكان الأمير من جهته يعتمد على موانع البلاد الطبيعية، التي تحول دون الوصول إلى محاربيه، الذين يشبهون حفنة الماء، التي تتسلل بسهولة من بين فروج الأصابع في الوقت الذي يتصور فيه المرء أنه لا يزال يقبض عليها.

بعد نحو شهر من إرسال هذه الرسالة إلى الأمير عبد القادر قتل وهران، وكان ذلك بعد أن هاجم قبيلة تقيم بنواحي تلمسان، كانت قد رفضت الخضوع له. وضرب معسكره من مكان يدعى تيمزرار في سهل ملاتة الشهير بخصوبة أراضيه، وكان تابعا لقبيلة الزمالة. عندما سمع الجنرال ديميشيل بذلك زحف يوم ستة ديسمبر في الساعة السادسة مساء بكل قواته، التي كانت تتكون من2000 من المشاة، و400 من الخيالة، ومدفعين و100 من حفاري الخنادق، واتجه نحو سهل ملاتة، الذي وصله عند طلوع الصباح بعد ليلة كاملة من السير. ولكنه، بدل أن يهاجم الأمير عبد القادر، هاجم مجموعة من الدواوير، قتل فيها عددا كبيرا من العرب وسبى حوالي 50 امرأة وطفلا. وما أن وصل خبر ذلك إلى معسكر الأمير، حتى امتطى جميعهم صهوات جيادهم، وإذا بالفرنسيين أنفسهم وقد حاصرتهم قوات كبيرة من العرب، فحاولوا أن يحموا أنفسهم بمربع يتكون من عدد كبير من القناصة. وبعد تبادل كثيف لإطلاق نيران البنادق من الجانبين، انسحب العرب قليلا لينتظروا وصول قبائل أخرى ثم يعاودون الهجوم بقوة جديدة. فاستغل الجنرال ديميشيل هذه الراحة المؤقتة ليرسل الأسرى من النساء والأطفال إلى أعدائه ظنا منه بأن ذلك سيقدم للعرب فكرة عن مدى إنسانية الفرنسيين، غير أن العرب أخذوا ذلك على أنه دليل ضعف الفرنسيين، فصارت هجماتهم أكثر جرأة من غير أن يهتموا بمدفعية الميدان، التي ألحقت بصفوفهم الكثير من الدمار. ولم يكن الفرنسيون قد صحبوا معهم حتى ذلك الحين غير مدافع الجبل، إلا أنه كان على العرب في هذه المرة أن يعرفوا لمدفعية الميدان من قوة مدمرة. وقد ظلوا، رغم الخسائر الكبيرة، التي كانوا يتكبدونها في كل لحظة، يطاردون القوات الفرنسية، ولم يوقفهم عن هذه الاشتباكات إلا الظلام الذي يهبط فجأة في هذا المناخ، وكان كل من الطرفين يدعي أن النصر كان حليفه : الفرنسيون بقوة صمودهم للعرب وإلحاق الكثير من الضرر بهم، والعرب بمشاهدتهم لتقهقر الفرنسيين اليوم كله. وقد استغرب الفرنسيون أن يروا اليوم كله رهائنهم من الزمالة وهم يخوضون الحرب إلى جانبهم ضد مواطنيهم، ولكن المسلمين كثير ما أظهروا في إفريقيا من الفروسية ما لم يظهره المسيحيون.

وجه الجنرال ديمشيل في السادس من شهر ديسمبر مرة أخرى رسالة إلى الأمير عبد القادر، عبر له فيها، زيادة على الطلب المتعلق بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين عنده، عن رغبته في الاجتماع بالأمير عبد القادر لوقف إراقة الدماء. وقد فهم الأمير رغبة الجنرال ديميشيل في عقد معاهدة معه، ولكنه رأى ،حتى يستطيع الاستفادة من هذه المعاهدة قدر

الإمكان، أنه من الأفضل له ألا يغتنم هذه الفرصة الأولى، لذلك ترك رسالة الجنرال ديميشيل مدة من الزمن بلا جواب. وكان عليه إلى جانب ذلك أن ينال موافقة أهم شيوخ المناطق ومرابطيها، وأن يستمع إلى آرائهم وأن يقنع كل الذين لا يوافقون على هذه المعاهدة . وبقيت الأوضاع في أثناء ذلك هادئة في وهران حتى السادس من شهر يناير. ففي هذه اليوم نجح العرب في هجوم لهم قاموا به على الخيالة الفرنسية، فقتلوا 10 من ضباطهم و16 رجلا من جنودهم، وقطعوا رؤوسهم على عادتهم وأخذوها معهم، وقد قتل في هذه الهجوم الشيخ العربي قدور بن الطيب، الذي كان قد شارك في السابق في كمين نصب على مقربة من مدينة أرزيو.

كانت للجنرال ديميشيل، الذي أدرك أنه ليس هناك من نتائج مؤكدة، ومنها نتائج أكثر الحملات نجاحا، رغبة ملحة في إبرام معاهدة مع الأمير. وكانت هناك إضافة إلى ذلك مجاعة في وهران، بدأت تلوح في الأفق بعد أن توقفت عمليات التموين بالمواد الغذائية من داخل البلاد، غير أنه ما من معاهدة مفردة إلا أفشلتها مواقف الأمير الذكية منها. كان الجنرال ديميشيل قد حاول في السابق التفاوض مع شيخ الدوائر، العجوز مصطفى بن إسماعيل، الذي كان له اعتباره بين العرب عامة لنسبه وثروته وشجاعته، فأسند مصطفى هذه المفاوضات إلى ابن أخيه المزارى الجريء، ولكن هذا تخلى، بعد أن تهيأ لذلك عدة شهور، عن إجراء المفاوضات خوفا من يقظة الأمير عبد القادر وبطشه. وعندئذ أدرك الجنرال ديميشيل أن الرجل الوحيد، الذي يمكن أن يتم إبرام معاهدة معه في المقاطعة كلها هو الأمير عبد القادر. وكانت الكلمات التي قالها عنه: " إن ذكاء الأمير المتميز، وحيويته، ونفوذه الكبير بين العرب إضافة إلى كونه قد ولد مرابطا وإلى التقدير، الذي يحظى به والده ،كل ذلك يجب أن يكون في خدمة ما أنا عازم عليه بهذا الصدد."

وكان على حق فيما يتصل بحرصه على معاهدة سلام مع العرب، ولكنه كان على خطأ كبير فيما يتصل بالسيادة، التي تصور أنه ستكون له. كان يرى أنه سيكون من الصعب عليه أن يبدأ الخطوة الأولى في تقديم مقترحات تتصل بإبرام المعاهدة من غير أن يقوي ذلك الشعور لديه بأن أهمية ذلك قد تحمل الأمير على المبالغة في مطالبه. لذلك حاول أن يبدأ المفاوضات معه بطريق غير مباشر، فأرسل مع يهودي من وهران، وهو مردخاي عمار 21)، رسالة إلى ابن عراش، أحد كبار ضباط الأمير عبد القادر، قال له فيها إن الفرنسيين راضون عن الأمير وأنه ليس هناك ما هو أكثر فائدة له من التفاوض معهم. وكتب الجنرال ديميشيل في الوقت نفسه، وكان ذلك في السابع والعشرين من ديسمبر، رسالة ثالثة إلى الأمير عبد القادر، لم يكن يريد

منه في الظاهر غير إطلاق سراح الأسرى، ولكنه أنهاها بالتعبير عن رغبته الأكيدة في إحلال السلام حتى يتمكن العرب من التمتع بغلال حقولهم، وكرر له دعوته إلى الاجتماع به.
وقد تصور الأمير عبد القادر، الذي تلقى دعوة منه للمرة الثانية، أن عليه من جانبه أن يقوم بخطوات في هذا الاتجاه على أن يظل هو سيد الموقف. لذلك أجاب عن رسالة الجنرال ديميشيل برسالة طويلة، ضمنها كثيرا من الآيات القرآنية، ومن جملة ما قاله له فيها 22): " إن ديننا، الذي يمنعنا من طلب السلم، يسمح لنا بقبوله عندما يعرض علينا." وقال له في مكان آخر: " قال الله تعالى: ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم 23) ؛ وإن يريدوا أن يخدعوك، فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم 24)." وفي النهاية يعود ليرد على جواب ديميشيل: " إننا نستقبل الموت ضاحكين ولا نحزن على من سبقونا، ولا سند لنا غير سلاحنا وخيولنا وصفير لرصاص أكثر قيمة عندنا من الماء البارد بالنسبة للعطشان، وحمحمة الخيل أعذب في آذاننا من ألطف أغنية. وإذا ما نحن أرغمنا على مغادرة الوطن، فإننا نفعل ذلك دون أسى. فالأرض لله، وقد أورثنا إياها، وحيثما اتجهنا، إلى الشرق أو الغرب، بل حتى إلى الصحراء، وجدنا أبناء أمتنا في كل مكان. الظاهر أنك تحتقر قواتنا وتستهين بها، ومع ذلك فنحن على استعداد دائم للحرب. فانظر التاريخ، وستعرف ما حدث في آسيا الصغرى وفي نواحي دمشق." 25).

أرسل الأمير عبد القادر هذا الجواب إلى الجنرال ديميشيل مع أحد رجاله من العرب، الذي فرح الجنرال بمضمونه كثيرا، وأسرع بإرسال كتاب فيه الكثير من المداهنة (يوم 6 يناير)، دعاه فيه أيضا إلى الاجتماع به للاتفاق معه على شروط السلم. ولكن الأمير عبد القادر لم يكن في خلال ذلك يرى أن من مصلحته أن يذهب بنفسه للاجتماع الجنرال الفرنسي، ولذلك أرسل إليه بعض مستشاريه، ابن عراش وضابطا آخر ساميا 26) لملاقاة مردخاي عمار على بعد نصف ميل من وهران لتبادل الشروط من الجانبين. وأرسل بهذه المناسبة رسالة إلى الجنرال ديميشيل أعرب له فيها عن نيته الصادقة في عقد الصلح ومن جملة ما قاله له فيها قوله 27): " كن على يقين بأني سأحترم كل الشروط التي سنتفق عليها كما يأمرني بذلك ديني، وفي وسعك الاعتماد علي في هذا، فأنا لم أخلف وعدي أبدا. وسوف ننهي بعون الله هذه المفاوضات بما يعود بالفائدة علينا جميعا."

فرح الجنرال بهذه الخطوة فرحا كبيرا، لأن الأمير عبد القادر قد وقف معه، فيما ظهر له على قدم المساواة. ولما كان الأمر على غاية من الأهمية، فقد جمع كبار موظفيه المدنيين

والعسكريين للتشاور معهم، وعرض عليهم مسألة السلم، فاتفقوا على أن يتم السلم على أساس النقط الثلاث الآتية:

1 - انصياع العرب بدون استثناء
2 - حرية التجارة التامة
3 - إطلاق سراح الأسرى في الحين.

ووعد الفرنسيون من جانبهم باحترام دين العرب وعاداتهم وأملاكهم والدفاع عنها، وأرسل الجنرال هذه الشروط إضافة إلى رسالة إلى الأمير في حافظة مزينة بأنواع الزينة. وبعد أسبوع من ذلك أرسل الأمير جوابا مهذبا، طلب فيه أن تعاد صياغة الشروط بصورة أكثر تأكيدا وأكثر وضوحا، وأمر ابن عراش أن يحمل إليه مشروع الصلح في شكله النهائي. وكان هذا الموضوع يتطلب لما له من أهمية كبيرة كثيرا من الدقة في التفكير والتأمل، وذلك ما حرص عليه الأمير عبد القادر بعد بدء المفاوضات كما حرص على المضي فيها، حتى لا يعترض سبيلها أحد المرابطين أو أحد الشيوخ المتعصبين ويعارض السلم مع المسيحيين، فيحول بذلك بينه وبين تنفيذ خططه.

كان الجنرال ديميشيل قد اقتنع بأن الصلح مع العرب هو السياسة الوحيدة المفيدة، التي يجب على الفرنسيين اتباعها، لذلك أسرع بتوقيع معاهدة السلم، التي كان يرغب فيها رغبة كبيرة. ولهذا أرسل ابن عراش بأسرع ما يمكن بمشروع المعاهدة في صيغته النهائية وأرسل معه إلى وادي هبرة - وكان يقيم الأمير عبد القادر مقيما فيه في ذلك الحين — مرافقين هم الرائد عبد الله عصبون، وهو مسيحي سوري، كان في خدمة الفرنسيين منذ حملتهم على مصر، وبوجناح، الذي كان سابقا في خدمة الجنرال كلوزيل وكان على معرفة كبيرة بالبلاد، ومردخاي عمار. فحملوا من الجنرال ديميشيل رسالة وهدية إلى الأمير عبد القادر، تتمثل في بندقية مزينة على الطريقة الشرقية. فاستقبل الأمير عبد القادر وفد الجنرال الفرنسي استقبالا جيدا، وأخذ يتأمل الشروط، التي عرضت عليه، بانتباه كبير، ثم أمر ابن عراش والرؤساء الآخرين، وبرفقتهم مئة من أفضل فرسانه، بالعودة إلى وهران ومعهم وكالة بتوقيع معاهدة السلم حسب التعليمات التي قدمها لهم. ولكي يقدّم للجنرال الفرنسي الدليل على صداقته، ورغبته في كسب مودته، أطلق في الحين سراح الأسرى الفرنسيين، الذين كانوا يقيمون منذ شهر أكتوبر 1933 في سجونه بمدينة معسكر.

وصل ابن عراش في 25 فبراير إلى وهران ومعه كل هؤلاء المبعوثين، وفي يوم 26 فبراير كانت عاهدة السلم قد تم توقيعها من قبل الجانبين. وقد بينت المفاوضات، التي أجريت عند الموافقة الأخيرة على المعاهدة، أن العرب، حسب تصريح الجنرال ديميشيل نفسه، أظهروا ما يتميزون بـه من ظرافة لبقة، بل يمكن أن يضاف إلى ذلك أنها أظهرت تفوقهم في كل المفاوضات، التي أجروها مع الفرنسيين. وعرف خطأ الرأي العام، الذي كان يعتقد أن هذا الشعب لا يعرف غير الصرامة القسوة، وأنه ليس هناك من اعتبار للحق والقانون عنده. وكانت نتيجة ذلك أيضا أن معاهدة السلم قد خرجت فيما بعد في كثير من النقاط المهمة عن الأسس الأصلية، التي وضعها لها الجنرال ديميشيل.

لقد كان الأمير عبد القادر يرمي من وراء ذلك إلى تقوية نفوذه وتوسيعه، إذ جعل الفرنسيين يضمنونه له، ولكن دون أن يضع نفسه تحت سيادتهم بناء على معاهدة شكلية وقعها معهم. لذلك كتب رسالة خاصة إلى الجنرال ديميشيل، أظهر له فيها أن سلطته في البلاد مساوية للسلطة الفرنسية، وأعرب له عن بوضوح عن نيته في الاعتماد على مساعدة الفرنسيين له للمحافظة على مكانته بصفته سلطانا، وادعى فيها أن جميع القبائل العربية في مقاطعة الجزائر تعترف بهذه الصفة. وطلب من الجنرال بناء على ذلك أن يكاتب الحاكم العام في الجزائر، ويطلب منه إنهاء العداوة، لأنه (الأمير) سيكون هو نفسه بعدئذ المسئول عن الاستقرار في البلاد، وطلب في أثناء ذلك أن يوضع خاتم ملك فرنسا تحت معاهدة السلم.

وقد تضمنت المعاهدة النقاط الآتية :

شروط الفرنسيين على العرب.

1ـ يسمح للعرب بشراء البارود والأسلحة والكبريت، وبكلمة واحدة كل ما يعد ضروريا في الحرب.

2ـ التجارة في المرسى (أرزيو) وكل ما يتصل بذلك ينبغي أن يبقى كما كان تحت سلطة أمير المؤمنين. ولا تشحن البضائع إلا من هذا المرسى. أما مستغانم ووهران فلا يحق لهما أن يأخذا من البضائع إلا ما يحتاج إليه سكانهما، ولا يجوز مخالفة ذلك. وعلى الذين يريدون إرسال بضائعهم أن يتوجهوا إلى المرسى.

3 ـ يعيد الجنرال للأمير عبد القادر كل الفارين منه وهو يرصفون في أغلالهم. ويتعهد بعدم قبول المجرمين وعدم حمايتهم . وليس للقائد في الجزائر أية سلطة على المسلمين، الذين يقيمون عنده بإذن من رؤسائهم.

4 ـ لا يجوز للفرنسيين منع أي مسلم من العودة إلى وطنه إن هو أراد ذلك.

وعلى الجنرال الحاكم في وهران التوقيع على هذه الشروط

شروط العرب على الفرنسيين.

1ـ ابتداء من هذا اليوم تنتهي العداوة بين الفرنسيين والعرب.

2 ـ ينبغي احترام دين المسلمين وعاداتهم.

3 ـ يطلق سراح الأسرى الفرنسيين.

4 ـ ينبغي أن تكون الأسواق حرة.

5ـ على العرب أن يعيدوا كل من يفر إليهم من الفرنسيين.

6ـ على كل مسيحي يسافر عبر البلاد أن يحمل إذنا عليه ختم قنصل الأمير وختم الجنرال.

يوضع ختم أمير المؤمنين تحت هذه الشروط.

تخرج هذه المعاهدة، كما نرى، عن القاعدة، التي أقره مجلس الحرب الفرنسي. فكان في صالح الأمير عبد القادر تماما 28). ذلك أن الجنرال ديميشيل لم يخبر الحكومة الفرنسية إلا بالقسم الأخير من المعاهدة. وقد أقام الموفدون العرب بضعة أيام في وهران، حاول الفرنسيون خلالها أن يجلبوا انتباههم عن طريق الحفلات الراقصة والاحتفالات العامة إلى فضائل الحضارة الأوربية. **ولكن العرب الأحرار الأباة، الذين تعودوا على العيش تحت قبة السماء الصافية واستنشاق الهواء المنعش في جبال الأطلس الشامخة، لم يظهروا أي إعجاب بهذه الحفلات** البهيجة، ولا شعروا بأية رغبة في رفاهية الحضارة الأوربية ومستلزماتها العديدة. وكانت بعض المناورات، التي أمر الجنرال ديميشيل بإجرائها، هي الشيء الوحيد الذي أثار اهتمام به مبعوثي الأمير عبد القادر. وعندما سافر العرب، رافقهم الرائد توريني *Torigny* من سلاح الفرسان وعدد كبير من الضباط الفرنسيين، حملوا معهم إلى الأمير، الذي كان في ذلك الوقت يقيم قرب نهر سيق، هدية كانت عبارة عن مائة بندقية عربية وألف رطل من البارود.

ومما جاء في التقرير، الذي قدمه الرائد توريني عن مهمته، قوله:

" لقد فوجئت مفاجأة كبيرة جدا عندما رأيت هذا المعسكر الحربي الكامل، وهذه الجموع المسلحة، التي تخضع لرجل واحد، وقد اصطفوا عند قدوم جندي فرنسي. لقد أعجبت إعجابا شديدا بهذه الوجوه المعبرة، والأجسام الضخمة، والأشكال المفتولة العضلات، التي هي ثمرة الحرية والحياة الطليقة. وأعجبت بخيولهم، التي تتسمع لأدنى حركة، وتظل على أتم الاستعداد للاندفاع عند سماع أدنى ضجة حربية، وقد سبق لها أن برهنت على ذلك في عدة معارك معنا."

عندما وصلنا إلى خيمة الباي (السلطان)، صافحنا، ثم طلب منا أن نجلس. وكان قد أسرع هو نفسه بسحب يده حتى يجنبنا تقبيل يده كما جرت بذلك العادة، بينما ارتمى مرافقونا فوق الأرض يقبلون يده.

قال لنا الأمير عبد لقادر: " كانت رحلتكم موفقة، وقد سرني هذا. سأجيب على رسالة جنرالكم وأشكره على هداياه الكثيرة. أرجو من كل قلبي أن تكون هذه الأوضاع، التي اتفقنا عليها، متينة ودائمة. غدا سأسير إلى معسكر، وإني لأود أن ترافقوني إلى هناك. فأنا أريد أن تشاهدوا مشاريعي، وتتعرفوا على ما أريد تحقيقه . لقد جهزت خيمتكم، وستكون لكم هناك لتستريحوا من متاعب السفر."

وعند طلوع النهار صدر الأمر بالسير، فرفع المعسكر وكأن ذلك قد تم بفعل ساحر، فسقطت الخيام كلها فجأة، وحملت فوق الجمال والبغال. وبعد لحظات كانت القافلة قد أخذت طريقها، ولم يكد يمر نصف ساعة حتى سار الأمير عبد القادر خلف جيشه الصغير، الذي كان يتكون من ثلاثة آلاف حصان، تتقدمهم الموسيقى العسكرية. وكان هناك أربعة زنوج، يقودون حصان الأمير وبدا وكأنه يركبه ببطء ودونما اهتمام، لكنه ما كاد يستقر فوق سرجه، حتى تركه يركض بخطى سريعة فوق السهل، وكبح جماحه على الفور وهو في انطلاقته، وأظهر لنا أنه فارس كامل الفروسية مثل جميع الرؤساء العرب. وعندما اشتدت حرارة الشمس، رفع أحد ضباطه مظلة 29) لحمايته من أشعة الشمس. وانطلقت من الطليعة عدة طلقات نارية من البنادق علامة على البهجة واختلطت بالموسيقى غير المتناسقة، التي لم تتوقف مدة السير كله. وحين كانت الأرض تسمح بذلك، كان العرب يسيرون في جبهة تضم ما بين 50 إلى 60 رجلا، وكان هناك عدد كبير من الشواش، وهم درك الباي (السلطان)، يحرسون على ألا تضطرب الصفوف أثناء السير. وكان هناك في طريقنا عربي لم يمتثل للأمر، فضرب ضربتين بالبتاغان، ألحقتا به جرحا بليغا. وسرحت القبائل، التي تسكن الأماكن البعيدة، وبعد حين لم تبق سوى فرقة معسكر، التي تحيط بها أعلام الأمير السبعة. وقد قدمت أثناء السير رقصات الراقصين، وكان هناك كذلك مسايفون، تسلحوا بسيوف ودروع صغيرة، قدموا لنا عروضا شيقة.

لقد بدت لي مدينة معسكر شبيهة بدير كبير. يتقاطع فيه في جميع الاتجاهات الرهبان برانسهم ذات القلنسوات السود أو الحمر، إلا أن مظاهرهم المنفرة وعيونهم المتمعة كانت توحي بشيء آخر غير أفكار الرهبان. كانت بها دكاكين، يملكها العرب واليهود، عامرة

بشكل جيد، وتعد المقاهي والأسواق العامرة بالبضائع، التي يتردد عليها بكثرة البدو الذين يعيشون في الجبال، هي مصادر التموين الوحيدة في المدينة. ولا يخرج النساء العربيات من ديارهن إلا في النادر، وإن خرجن، فإنهن لا يخرجن إلا للذهاب إلى الحمام. وقد رأى طبيبنا الدكتور كولان Collin، نساء جميلات حقا، من بينهن أخت الأمير."

كان هناك خمسة عشر مدفعا للدفاع عن المدينة، لكن معظمها كان في حالة سيئة، حتى إنه كان من الصعب عليها أن تطلق النار أكثر من مرة واحدة دون أن تتفكك بنفسها لنقص في شحذها. وقد سنحت لنا هذه الفرصة بالمناسبة بمشاهدة مدفعي الأمير، اللذين صحبهما معه أثناء الحملة، والحكم عليهما. كان يجرهما بغلان، أحدهما خلف الآخر، وكانت العجلتان المتقاربتان تسهل هما سحبهما والمرور بهما في أي مكان. وكانت هناك أربعة مدافع تحمي دار السلطان."

كانت زيارتنا للأمير عبد القادر طويلة ومهمة، وقد سألنا أسئلة كثيرة عن الوضع في فرنسا وعن نظام جيوشها ودينها. وسألنا مرابط، كان حاضرا أثناء هذه الزيارة، عما إذا لم تتم استشارة رجال الدين الفرنسيين بشأن معاهدة السلم، وبدا عليه الغضب الشديد عندما نفينا ذلك. وكان السؤال سببا في ارتسام ابتسامة على شفتي الأمير:

- هل يعرف ضباطكم القراءة والكتابة؟

فأجبته:

- بكل تأكيد. وكذلك ضباط الصف وعدد كبير من الجنود.

فبدت عليه الدهشة من ذلك.

ولما حدثت الأمير عن رسالة، تتضمن إشاعات روجها متعصبو البلاد، قال:

- لقد زرت مكة وشاهدت قبر الرسول، وكلمتي مقدسة، وأنا أعتمد أيضا على كلمة الجنرال. ولو جاء إلي من أخبرني أنه قد خرج لمحاربتي، لذهبت لملاقاته دون أن تخالجني أية ريبة في أمره.

وبعد قليل أضاف:

- لقد وصلتني أخبار من الجزائر، من المؤكد أن الجنرال سيغتنم لها. لقد استولى العرب في سهل المتيجة على قطيع من الماشية الفرنسية، لكن سيفي سيمنع مثل هؤلاء الرعايا من ارتكاب مثل هذه الأعمال، وسوف لن يكون لحكومتكم ما تشكو منه بعد. إلا أن لدي الآن هما آخر أيضا، وهو أن جنودكم لا يشعرون بالخوف وهم يبتعدون عن وهران، فقد شوهد ضابط يصطاد على تلك الجهة من السبخة. فاطلبوا من جنرالكم أن يمنعهم من مثل هذه

الجولات، التي يمكن أن تشكل خطرا عليهم. ذلك أنه من المستحيل علي أن أضمن لي عربي واحد يفكر تفكيرا سينا، وسيكون ألمي كبيرا إذا ما وقعت لهم حادثة، لا يكفي لي التكفير عنها أقسى عقاب أنزله بمرتكبها. لكنكم ستعرفون سلطة عبد القادر وشيكا، وينبغي للقبائل، التي تخيم تحت مدافع مدينتكم، أن تكون مسئولة عن ولاء الآخرين وتزويد أسواقكم بما يكفي من المواد الغذائية. فعودوا إلى أسواركم وحدثوا جنرالكم بما شاهدتموه عند عودتكم."

وكان الأمير عبد القادر يشير بذلك إلى الدواوير والقطعان الكثيرة، التي جمعها على طريق عودة الفرنسيين إلى وهران، وذلك ليأخذوا فكرة عن ثروة البلاد وعن سكانها.

وعند السفر قدم لكل مبعوث فرنسي حصانا، وحمل الرائد دي توريني رسالة إلى الجنرال ديميشيل، أخبره فيها أنه أرسل عددا من الفرسان إلى الفريق فورول Voirol بالرسائل الرسمية، التي تسلمها من الجنرال ديميشيل. وكانت هذه الرسائل مرفوقة برسالة من الأمير عبد القادر، يبدو أن حاكم وهران كان قد نبهه إلى أن هناك قائدا عاما في الجزائر. فقد كانت هي الأخبار الأولى،التي تلقاها الجنرال فوارول عن جميع المفاوضات المتعلقة بتوقيع معاهدة السلم

الفصل الخامس

بعد معاهدة الصلح مباشرة أرسل الجنرال ديميشيل الرائد عبد الله عصبون إلى معسكر لتمثيل مصالح فرنسا فيه، وألحق به ضابطين من هيئة الأركان، هما دي ماليني De Maligny ودي رادبون De Radepont، وكانت وظيفتهما الاهتمام بالجوانب الإحصائية والجغرافية. وعين الأمير أيضا قناصله ووكلاءه في وهران ومستغانم وأرزيو. وجاء إلى وهران أحد أقارب الأمير، وهو الحاج الحبيب، ليقيم عند الجنرال، بينما أرسل الأمير الخليفة بن محمود، وهو رجل من أصحاب النفوذ في قبيلة الغرابة، وكان للمنصب، الذي عينه فيه الأمير هنا ذا أهمية كبيرة، فقد نصت المعاهدة أن التجارة في أرزيو لا تكون فيها إلا للأمير.

كانت أخبار المعاهدة قد انتشرت أثناء ذلك في جميع أنحاء البلاد، وكان القسم الثاني من المعاهدة، الذي لم يكن يعرفه غير الجمهور الأوربي، يحمل على الظن بأن التجارة ستكون حرة، واقتناعا بذلك أقام التجار الجزائريون في أرزيو عدة محلات تجارية، لكنهم فوجئوا أيضا عندما عرفوا أن احتكار الأمير عبد القادر للتجارة في المدينة يحد من نشاطهم التجاري، إذ جعل من نفسه التاجر الوحيد في دولته أسوة بباشا مصر، الذي كان قد درس سياسته عند رحلته إلى مكة، فمنع العرب من إقامة علاقات تجارية مباشرة مع الأوربيين. وكان عليهم أن يبيعوا بضائعهم إلى وكيل الأمير وفقا للأسعار التي يضعها هو، ليبيعها الوكيل بدوره إلى التجار الأروبيين، الذين فقدوا بذلك إمكانية شراء البضائع من البائع الأول. وكانت قلة المنافسة فوق ذلك سببا في تراكم البضائع، مما دفع البيوت التجارية الفرنسية إلى إرسال اعتراضاتهم على هذا الأمر إلى الجنرال ديميشيل. قد أدى هذا الاحتكار فوق ذلك إلى وقوع اضطرابات واتخاذ إجراءات غير ملائمة في أرزيو. وكانت هناك شكوى أخرى من الأمير عبد القادر، وهي أنه أقدم على شحن حمولتين في ميناء أرزيو لإرسالها إلى إسبانيا خلافا لنصوص القانون الفرنسي، الذي يمنع تصدير الحبوب من الممتلكات الفرنسية في إفريقيا الشمالية. وكان الجنرال ديميشيل، الذي تلقى رسائل من الجنرال فوارول، تتعلق بهذه الاعتراضات، قد أجاب بأن التجارة حرة وأنه ليس هناك أي احتكار. ولئن كان الجنرال قد أنكر وجود هذا الاحتكار، مع أنه كان موجودا فعلا، فإننا لا نكاد نجد تبريرا لهذا الإنكار. وبينما كان على

الجنرال أن يعترف أن عليه وحده أن يتحمل عواقب قلة التفكير أثناء تحرير المعاهدة، التي أبرمها مع الأمير، كان الأمير الشاب على وشك أن يرى انهيار قواعد سلطته، التي كانت لا تزال متداعية.

ومع أن الأوساط الشعبية، التي خرج منها، كانت تظهر له ولاءها، فقد كان له حساد كثيرون، يتكالبون عليه كلما ابتسم له الحظ قليلا. فقد لامه في سهل الشلف سيدي العريبي، شيخ قبيلة تحمل نفس الاسم 30)، لأنه أجرى المفاوضات من تلقاء نفسه وبمفرده مع المسيحيين، رغم أن العريبي هذا لم يشارك إلا بصورة غير مباشرة في الحرب، التي تحمل الأمير معاركها وحده. ولم يعترف له مصطفى بن إسماعيل، شيخ الدوائر، الذي كان أغا في أيام الحكم التركي، بلقب السلطان، الذي اعترف له به الشعب، إلا مرغما. أما شيخ البرجية، قدور بن المرفي، الذي كان متعودا على ملذات الحياة ومتعها، فلم يكن ليسره أن يسود النظام والهدوء، فكان أمثاله من الشهوانيين ينتظرون الفرصة للإخلال بمعاهدة السلام، وسرعان ما عثروا عليها. فبعد توقيع المعاهدة بفترة قصيرة امتنعت قبيلة بني عامر، وهي أكبر القبائل في المقاطعة، عن دفع ضريبة العشور، التي قررها القرآن، بحجة أن هذه الضريبة لم يعد لها من موجب بعد توقف الخصومة والعداء. فأمر الأمير عبد القادر في الحين الدوائر والزمالة بأن يكونوا على استعداد للهجوم على بني عامر عند جمع الحشود الأولى. ولما كانت طبيعته تأبى عليه أن يستعمل القوة إلا إذا فشلت المفاوضات ولم تؤد إلى أية نتيجة، فقد حاول إقناعهم قبل أن يبدأ بمحاربتهم.

صادف في هذا الوقت بالذات وجود عدد من شيوخ بني عامر بمدينة معسكر، وعندما كانوا ذات يوم مجتمعين في المسجد، ذهب إليهم، وألقى من فوق المحراب، الذي كان يعد بالنسبة إليه منصة وطنية، خطبة، تحدث فيها عن هذه ضرورة دفع هذه الضريبة، التي يجب على كل مواطن أن يدفعها للدولة في سبيل الصالح العام. عندئذ وعد بنو عامر بدفع العشور، وهو ما فعلوه فعلا. ولكن الدوائر والزمالة المغرمين بالسلب والنهب، الذين كانوا منذ العهد التركي يتولون تنفيذ أعمال القمع، طمعوا في الغنائم وبدأوا بالعداوة. فأمرهم الأمير عبد القادر بالكف عن ذلك، غير أنهم لم يهتموا بأمره . وما أن لاحظ رئيسهم مصطفى هذه الرغبة لديهم، حتى نزع القناع عن وجهه وحملهم على أن يثوروا على الأمير عبد القادر ثورة تامة. فخرج الأمير إليهم بسرعة، وبعد زحف طويل وسريع التقى بهم وهزمهم واستولى على بعض خيامهم. وتوقف القتال عند هبوط الليل، وضرب الأمير معسكره أملا في إخضاع من

بقي من الثوار في صبيحة اليوم التالي. غير أن تلك الليلة كانت مشئومة بالنسبة إليه، فقد هاجمه المحارب العجوز مصطفى بن إسماعيل تحت جنح الظلام فجأة بكل خيالته وهزمه هزيمة تامة. فاضطربت قواته وتفرقت بشكل مكّن الثوار من الاستيلاء على خيامهم وخيولهم وأمتعتهم. وقد قاتل هو نفسه قتالا معجزا، وسقط تحته حصانان صريعين، وقاتل فترة طويلة، تحيط به مجموعة من رجاله، حتى أصبح في النهاية بدون حصان وبدون سلاح تقريبا، ووقع في ظن رجاله أنه إما أن يكون قد قتل وإما أن يكون قد وقع في الأسر. وعندئذ اختطفه صهره مولود بن سيدي بوطالب من ضجيج المعركة وأركبه فوق حصانه. كان الأمير عبد القادر بمفرده تقريبا، عندما دخل مدينة معسكر، التي لم يجرؤ أعداءه على مطاردته إليها. وحاول مصطفى، الذي تعجب هو نفسه من النصر الذي تم له، التفاوض مع الفرنسيين عسى أن يتم له التحالف معهم بنفس الشروط، التي اشترطها عليهم الأمير عبد القادر في المعاهدة المبرمة بينه وبينهم. فأرسل حفيده المزاري الداهية الرسالة التالية إلى الجنرال ديميشيل، يحدثه فيها بطريقة خاصة عن هزيمة الأمير عبد القادر.

إلى الجنرال ديميشيل.

السلام عليك !

" أحيطكم علما أن ابن سيدي محي الدين قد قام بمهاجمتنا، ولم نكن نحن مستعدين لذلك على الإطلاق، لأن معسكراتنا كانت في طريقها إلى تلمسان. وقد فر أمامنا. فطاردناه وقتلنا رجاله دون توقف، ففقد 340 من فرسانه. واستولينا على خيامه وطبوله وخيوله المسرجة وبغاله، التي كانت تحمل أمتعته. وقضينا على فرسانه عندما هاجمناهم في الليل، أما شطارهم فقد أسرجوا خيولهم بسرعة ونجوا منا، ولكن أغلبهم اضطر إلى ركوب الحمير مثلما أجبر الأمير نفسه على فعل ذلك، وفي وسعكم أن تصوروا بأنفسكم كيف فر فوق حمار من هذا النوع بدون سرج وبدون شكيمة. لقد استولينا على الخيام والخيول والبغال وخرجنا من المعركة معافين سالمين غانمين، والحمد لله ! وستصلكم أخبار ذلك من مدينة معسكر. ونحن عازمون الآن على العودة إلى بلادنا، وسنزود أسواقكم بما تحتجون إليه من هناك. وإننا لنتوسل إليكم أن تبقوا كما كنتم وألا تعرقلوا تجارتنا معكم. وعندما نصل إلى ديارنا، سنزوركم ونتفاوض معكم حول شئوننا المشتركة. فاكتبوا إلينا رسالة لتطمئنونا، فنتمكن من **العودة إلى ديارنا في أمان تام. وابعثوا إلينا بهذه الرسالة في أقرب فرصة ممكنة 31).**"

لم يرد الجنرال ديميشيل على رسالة المزاري، وإنما كتب إلى الأمير عبد القادر وأكد له رضاه عن علاقته الطيبة به، وطلب منه ألا يدع هذه الهزيمة الأولى تفل من عزمه. وأرسل إليه 100 بندقية وعدة قناطير من البارود، دفع ابن عراش ثمنها في وهران.

وفي أثناء ذلك كان سيدي العريبي قد أعلن ثورته عند سماعه بهزيمة الأمير عبد القادر، وفعل قدور بن المخفي الأمر نفسه، أما الغماري، شيخ قبيلة أنجاد، فقد تحالف مع مصطفى بن إسماعيل، وعندئذ أدرك الأمير عبد القادر أن أعداءه يحيطون به من كل جانب. وتفاوض سيدي حميدي، قائد تلمسان، من تلقاء نفسه مع مصطفى، وكانت مدينة تلمسان على وشك أن تضيع من يده.

كان يبدو أن هذه الهزيمة المتعددة الجوانب قد تركت أثرها في نفس الأمير عبد القادر، لكن طبيعته القوية سرعان ما مكنته من السيطرة على الوضع، فكانت له الغلبة. كانت الأوضاع صعبة جدا، وكانت لذلك تتطلب السرعة في اتخاذ القرار والصرامة في التنفيذ. كان مصطفى بن إسماعيل، الذي لم يحظ بتأييد الجنرال ديميشيل، قد اتجه إلى الجنرال فوارول مباشرة. وكان من السهل أن تجد هذه العروض، التي تقدم بها أقوى خصوم الأمير عبد القادر، الرضا والقبول في ذلك الوقت، الذي كانت الآراء فيه متباينة حول شروط المعاهدة، التي أبرمت مع الأمير عبد القادر وكانت في صالحه، وأن يهتم الحاكم العام بمصطفى بن إسماعيل ويجعل منه تلك القوة، التي تقف في وجه الأمير عبد القادر في مقاطعة وهران. وكان الجنرال ديميشيل، الذي كان راضيا عن وضع أوجده بنفسه، سببا في تفاقم هذا القلق. فقد ألح على الأمير في الخروج إلى ميدان المعركة، وأخبره في الوقت نفسه أنه، دون أن يشارك في الحرب بصور مباشرة، سيقوم بحملة لصالحه، ويقيم معسكرا للمراقبة في مسرغين، ليكون من السهل عليه من هناك أن يكون على مقربة منه لمساعدته عند الضرورة وتزويده بالضروريات الحربية.

جمع الأمير عبد القادر القبائل، التي بقيت على ولائها له، وأقام معسكره على نهر سيق. وكان المتوقع أن يقوم أولا بمهاجمة مصطفى بن إسماعيل، ولكنه اتجه فجأة نحو الشرق، وهاجم قبيلة البرجية ودحرها دحرا تاما. واستولى على منطقة البرج الكبيرة، وتمكن بعد أيام قليلة من إخضاع هذه المنطقة بكاملها. وبعد أن انتهى من ذلك، هاجم مصطفى، وكان أعداد جيشه تتزايد باستمرار. والتقى الخصمان يوم 12جويلية في (وادي) الزيتون على بعد حوالي ميل من مدينة تلمسان. وكانت مقدمة الأمير بقيادة الآغا الحبيب بوعلام وحدها كافية لإلحاق

الهزيمة بقوات مصطفى، وجرح هو نفسه جرحا بليغا. ولم يبق لمصطفى بن إسماعيل بعد ان هزم ومرض وتخلى عنه جميع رجاله تقريبا من مخرج إلى أن يطلب العفو من المنتصر، فعفا الأمير عبد القادر عنه بشهامة. وشمل عفو الأمير جميع الثوار بدون تمييز، ولم يطلب منهم غير الوعد بالطاعة والولاء له. وكان بعض اللاجئين قد فروا إلى أسوار وهران طلبا لوساطة الفرنسيين، غير أن ذلك لم تكن له ضرورة، ذلك أن انتصار الأمير عبد القادر لم يتسبب في أي عمل انتقامي. فلم يكن لأعدائه ما يشكون منه غير الدماء، التي كانت قد سالت في المعركة معه. وأسند إلى المزاري، الذي اكتشف ما لديه من قدرة وموهبة، منصب الآغا ليضمن ولاءه له.

وفي اليوم الثاني بعد النصر، الذي أحرزه الأمير عبد القادر على أعدائه، أرسل صديقه ابن عراش إلى ميسرغين ليبلغ الجنرال ديميشيل هذه الأخبار، ولم يظهر عليهما يدل على أنه كان سعيدا بانتصاره على أعدائه دون المساعدة المباشرة للمسيحيين.

وسار في مقدمة جيشه الظافر إلى مدينة تلمسان، وقد بدا عليه أن الحظ لم يره ظهره إلا لحظة إلا ليكون نصيبه منه بعد ذلك أقوى. كان يقيم عنده منذ فترة ابن نونة، الذي كان ملك المغرب قد رده إليه، وحارب في الأيام الأخيرة إلى جانبه بشجاعة. ولذلك عزل سيدي حميدي، الذي جعله سلوكه جديرا بسخط الأمير عليه، وأعاد ابن نونة إلى وظيفته السابقة. واستقبل سكان مدينة تلمسان المنتصر بالزغاريد والهتافات، وأرسل له أتراك قلعة المشور حصانا مسرجا هدية منهم، ولكنهم أصروا، عندما طلب منهم دخولها، على مثلما فعلوا في الحملة الأولى. فحاصر القلعة مدة تزيد عن الشهر من غير فائدة . ولما رأى أنه من المستحيل عليه أن يتغلب على الأتراك بمدافعه الميدانية الصغيرة الأربعة، طلب من الجنرال ديميشيل أن يزوده بمدفعين جبلين، ليضرب بهما قلعة المشور. ولكن قائد وهران لم يكن على يقين بأن من حقه أن يقدم له مثل هذه الهدية على مسئوليته، ولذلك أجاب الأمير بأنه سيرفع طلبه إلى وزارة الحربية الفرنسية لإصدار قرار بشأنه، وعندئذ سمحت له بتقديم المدفعين الجبليين إلى الأمير إن هو عاود طلبهما مرة ثانية. على أن الأمير كان قد غادر تلمسان قبل وصول هذا الجواب واتجه إلى معسكر.

كان أعداؤه .كلهم قد خضعوا له، حتى رجال قبائل الدوائر والزمالة كانوا قد دانوا له بالطاعة تماما، وكان الأمير قد عاملهم كلهم بالحلم نفسه، ما عدا شيخ الدوائر العجوز المتكبر الأبيض اللحية، مصطفى بن إسماعيل، الذي لم يستطع العيش فترة طويلة تحت سيادة الأمير عبد القادر، فالتحق بالأتراك في قلعة المشور وأصبح رئيسهم.

كان الجنرال ديميشيل قد حاول عدة مرات الاجتماع بالأمير عبد القادر، وكان غرضه من ذلك أن يتعرف شخصيا على الشاب العربي الشهير من جهة، وللتفاوض معه في الشئون المشتركة من جهة أخرى، وقد عبر له عن رغبته مستعملا في ذلك أكثر العبارات مجاملة. ولكن الأمير كان يعرف دوما كيف يتخلص بهذا العذر أو ذاك من هذا الاجتماع. على أن مبعث ذلك لم يكن أبدا عدم ثقته في حليفه، الذي كان يعترف له بجميله ويكن له مودة صادقة، فقد كان الأمر، الذي حال بينه وبين ذلك، يكمن في أصول اللياقة، التي تقتضيها طبيعة الشعوب الشرقية وتخلع عليها أهمية كبير. لقد كان الأمير يرى أنه لا يستطيع أن يقدم نفسه أمام شعبه إلى الجنرال الفرنسي إلا بصفته أميرا، وهو المقام الذي أحله فيه شعبه. ثم إنه كان من ناحية أخرى يدرك أن مثل هذا الطلب من شأنه أن يجعل الجنرال الفرنسي أقل منزلة منه وأن يجرح شعوره وهو ما كان يريد تجنبه.

بعد أن أصبح الأمير سيد منطقة وهران كلها، التي تمتد من نهر الشلف إلى حدود المملكة المغربية، لم يتأخر فترة طويلة في إزالة ما وضعه بنفسه لتوسيع مشاريعه من حدود. لقد كان يريد إخضاع مقاطعة الجزائر والتيطري، وكانت أخبار انتصاره قد حملت عددا من شيوخ هاتين المقاطعتين على الالتحاق بمعسكر لمبايعته ودعوته إلى زيارة مناطقها. غير أن الأمير عبد القادر رأى أنه من الأولى به في هذا الصدد أن يحاول معرفة رأي الجنرال فوارول، ولذلك كتب إليه رسالة يخبره فيها أنه قد انتصر بعون الله على جميع أعدائه وأعاد الأمن إلى جميع مناطق القسم الغربي من البلاد، وأخبره في الوقت نفسه عن نيته في التوجه إلى الشرق لإحلال النظام بين القبائل المقيمة هناك. حمل هذه الرسالة إلى الجنرال القائد العام سيدي علي القليعي، وهو من مليانة وينحدر من عائلة مرابطة شهيرة، استولت على الحكم في المدينة المذكورة ووضعت نفسها في خدمة الأمير عبد القادر، الذي كانت تدين بالطاعة له. ولسوء فهمه وتحمسه لقضية الأمير عبد القادر أرفق بذلك رسالة منه هو نفسه إلى الجنرال فوارول، بالغ فيها في الإشادة بقوة الأمير ومناقبه الحميدة، ونسب لنفسه فيها الفضل في التخفيف من حدة غضبه بسبب الحملة، التي قام بها الفرنسيون على قبيلة حجوط 32) وأشار بهذا الصدد إلى أنه إذا كانت رجال قبيلة حجوط قد خدعوا الفرنسيين في الجزائر، فقد كان على الجنرال فوارول، بدل أن يعطي الحق لنفسه في معاقبتهم، أن يشكو أمرهم إلى الأمير، لأنهم من رعاياه.

لقد أجاب الجنرال فوارول عن هذه الرسالة الفظة والمهينة في آن واحد الجواب الذي تستحقه. أما فيما يتصل برسالة الأمير عبد القادر، فقد أجاب عنها بأنه يهنئه على الأمن

الذي أحله بين القبائل، التي تقع تحت حكمه، وأنه يفترض أن الأمير من غير شك لم يفكر، وهو يتحدث عن مشروعه في الوصول إلى ما يسميه بقبائل الشرق، في اجتياز نهر الشلف، فهو الحد، الذي يرى أنه من المناسب أن يرسمه له هو بصفته القائد العام. هناك من الناس من يتحدثون علنا أن الأمير ينوي التقدم أكثر إلى الأمام، لكن الجنرال يراه أذكى من أن يقوم بحملة تؤدي حتما إلى تغير كبير في علاقته بالفرنسيين، ثم إن الأمن يعم منطقة الجزائر كلها منذ أن تمت معاقبة قبيلة حجوط. ــ إن ما في هذا الجواب من تأكيد واعتدال في الوقت نفسه قد جعل الأمير عبد القادر يتأخر قليلا في تنفيذ مشاريعه، ولكن الأوضاع ساعدته على ذلك فيما بعد.

وأخذ سيدي علي القليعي، الذي شعر بإهانة كبيرة بسبب الطريقة، التي عامله بها الجنرال فوارول، يسعى إلى أن يكون له دوره في المناورات السياسية، لذلك ذهب إلى معسكر وراح يصوِّر للأمير عبد القادر أن الوضع ملائم بالنسبة إليه للإيقاع بين الجنرالين وإثارة أحدهما ضد الآخر، وذلك عن طريق مساندة نظام أحدهما، الذي يعارضه الآخر عند تجاوزه لحدود معينة. ومن أجل هذا الغرض حاول سيدي علي، الذي كان منافقا وداهية بطبعه، أن يخالط الضباط الفرنسيين في معسكر، ولما توصل إلى ذلك، أسر إليهم لثقته بهم بأخبار كثيرة، أراد من ورائها إقناعهم بأن الجنرال فوارول يشعر بالغيرة من الجنرال ديميشيل بسبب المعاهدة، التي وقعها مع الأمير عبد القادر، ويحاول بجميع المسائل الممكنة، يدفعه إلى ذلك إحساسه بالحقد عليه، تحطيم كل المنجزات السياسية، التي حققها قائد وهران. وبعد أن نجح في التغرير بهؤلاء الضباط، كتب رسالة طويلة إلى الجنرال ديميشيل، حدثه فيها عن كل هذه الترهات مضيفا إليها الكثير من الأكاذيب والتفاصيل والافتراضات، حتى إنه كان من الصعب أن يتصور المرء أن ينخدع الجنرال ديميشيل بذلك. على أنه كان يبدو في أثناء ذلك أن هذه الأخبار قد تركت أثرها في نفس الجنرال ديميشيل فلم يعد يفكر، اعتمادا على ما يتميز به نظامه، في شيء آخر غير الطريقة التي يوسع بها هذا النظام. ولذلك أعرب للأمير عبد القادر عن رغبته في أن يجعله أعظم مما كان يجرؤ على أن يأمله لنفسه، وأن حكمه ينبغي أن يشمل ما بين مراكش وتونس. لقد ابتسم الأمير نفسه في بداية الأمر، عندما حمل إليه الضباط الفرنسيون هذه الوعود المبالغ فيها، وأجاب الجنرال ديميشيل فيما بعد بنفس اللهجة، وذكر له فيما ذكر أبعد مقاطعة، وهي مقاطعة قسنطينة: أريد أن أزور هناك أحمد (باي) وأهزمه بعربه، الذين سيتركونه، ولن يكون هناك بعد ذلك حديث عن السلطة التركية.

ولكن الجنرال ديميشيل، بغض النظر عن رغبته في أن يجعل من الأمير عبد القادر رئيس كل العرب في شمال إفريقيا، كان وطنيا مخلصا، وما كانت وطنيته هذه لتسمح له بعدم وضع مصلحة فرنسا نصب عينيه. كان يعتقد أن سلطة مثل سلطة الأمير عبد القادر لا يمكن أن تقوم إلا على أساس من القوة العسكرية الفرنسية وأن الأمير عبد القادر سيكون بذلك خاضعا للسلطة الفرنسية. وكانت عصبية العرب ومقاومتهم، التي سيظلون على الدوام يجابهون بها السيادة المسيحية، هما اللتان حملتاه على أن يتجنب في معاهدته مع العرب تحديد المنزلة الرفيعة، التي تتناسب في البلاد مع كرامة فرنسا، على نحو دقيق. كان يخشى كثيرا أن يجرح مشاعر العرب، لكنه فقد بذلك نفوذه ووضع الصولجان، الذي كان ينبغي أن تحتفظ به فرنسا، في يد الأمير عبد القادر. ولتحقيق وعود الجنرال ديميشيل المحابية، كان لابد في أثناء ذلك من انتظار وصول الحاكم العام، الذي تم الإعلان عن وصوله قبل فترة طويلة.

لقد استغل الأمير عبد القادر هذه الفترة لتنظيم إدارته الداخلية في البلاد، فحقق أفضل النتائج المرجوة في مدة قصيرة. فإذا ما نحن تصورنا الصعوبات الكبيرة، التي اعترضت سبيله بين أفراد شعب، تعود حتى ذلك الحين على العيش في قبيلة تقوم العلاقات فيها على أساس أبوي، فإن علينا أن نعترف للأمير عبد القادر بحسن تدبيره وبموهبته الإدارية. فقد قسم البلاد، أو بالأحرى قسم القبائل العربية إلى خمسة أقسام، تتوزع في مناطق متساوية الحجم تقريبا، وعين على كل منها آغا. وأنشأ في كل قبيلة سلطة إدارية وسلطة قضائية، وعين ما يلزم لذلك من قادة وقضاة بمرتبات سنوية ثابتة، وهذا حتى لا يستلموا رواتبهم خلافا لما كان عليه الأمر في السابق من مداخيل التطبيقات العدلية. وتكفل بالقاصرين واليتامى، وأسند تسيير أملاكهم إلى رجال السلطة.

وما كان الأمير عبد القادر ليستطيع إقامة نظامه، الذي جعل منه مصلحا، لولا معرفته الدقيقة بعقلية أمته وميولها وأحكامها المسبقة وقدرته على ربط ذلك بنتائج أفعاله وقواعده السلوكية. لقد حاول أن يحسن طبيعة الروابط العربية، ولكنه لم يستعر شيئا من طبيعة الروابط القائمة بين الدولية الأوربية، مع أنه كان يعرفها معرفة تامة بناء على المعلومات، التي كان يقدمها له الضباط الفرنسيون، الذين كانوا يصلون إليه في بعثة من البعثات. كان عليهم أن يقدموا له دائما شروحا وتوضيحات، كانت نظرته المضيئة النافذة تسهل عليها إدراكها. كان يشعر بمتعة كبيرة وهو يستمع إلى الحديث عن حكومة نابوليون، وأهم ما كان يعجبه في هذا الرجل لم يكن انتصارات العسكرية، وإنما كانت تعجبه الانقلابات الشاملة، التي أنجزها

في الدول التابعة له. أما فيما يتعلق بتحسين الحياة المادية، فإنه كان كثير الميل إلى الاستفادة من فضائل الأوربيين ومزاياهم، ولذلك قام بخطوات عند الجنرال ديميشيل من أجل إرسال ثلاثين شابا عربيا إلى مرسيليا ليتعلموا هناك الفنون والمهن على حسابه الخاص. وليرفع من قيمة أمته، أبدى أيضا رغبته في أن يرسل مبعوثا إلى باريس، وعين لذلك ابن عراش المذكور (وهو جهازه السياسي المعروف في الجزائر)، ولكن ذلك لم يتم لمعارضة الحاكم العام ديرلون D'Erlon له.

وعمد الأمير عبد القادر إلى تنظيم جيشه أيضا، فأنشأ في معسكر جيشا صغيرا حدد له رواتبه، وقد أراد منه أن يكون نواة تنضم إليها القبائل العربية عند التجنيد في حالة الحرب. ودرب مشاته القتال ضمن كتائب متلاحمة، واستعمل في ذلك مدربين أوربيين ليعلمهم شيئا من فنون الدقة والفن والحركة، التي شاهدها بإعجاب عند الفرنسيين. لكن تغيير طريقة الحرب الحرة الطليقة المتبعة عند القبائل العربية كان لا يخلو من خطورة، لذلك اكتفى بأن تكون له رسوم يمكن الاعتماد عليها، تتعلق بالطريقة التي يصطف بها العدد الكبير من الخيالة والفرق المسلحة عند كل قبيلة في أوقات الحرب، وأصدر أمره بأن تظل القائمة المرسومة تامة العدد على الدوام. كانت هناك قبائل يمكنها أن تجند ما يزيد عن ألف من فارس، وكانت الإشارة الواحدة من الأمير عبد القادر تكفي لإحضارهم في الحين إلى ميدان المعركة.

وما أن عرف أن وجود دولة يتوقف على ما لديها من أموال، حتى اهتم بذلك اهتماما كبيرا، فكان يجمع، إضافة إلى المداخيل التجارية المعتبرة، ضريبة العشور السنوية، التي أ قرها القرآن في نصوصه، ووجه اهتمامه كذلك إلى إنشاء قاعدته النقدية. كانت العملة المتداولة حتى ذلك الحين هي الريال الإسباني (كل واحد منها يساوي تالرا) وما يسمى بالبوجو (وهو عملة جزائرية تساوي ثلث التالر)، فصعبت الحركة التجارية مع فرنسا، لذلك أمر رجاله بقبوله أنواع العملة الفرنسية الجيدة، التي يسهل تداولها، ومع ذلك كان تداول العملة الفرنسية بين العرب قليلا. ذلك أنه لم يكن في وسعهم صرفها في التجارة مع قبائل داخل البلاد، وكانوا يدركون أيضا أنه لابد أن يتوقف صرفها في حالة ما إذا نقض الفرنسيون المعاهدة.

ولتشجيع الحركة التجارية بين القبائل المختلفة وتنظيم البيع، وضع سعرا ثابتا للحبوب، فكان سعر الكيل من القمح أربعة بوجوات، وكَيْل الحنطة السوداء بوجوان 33) لقد عرف في مناسبات عديدة كيف يسافر من باب المجاملة رغبة الجنرال ديميشيل في خلق رابطة متينة قدر الإمكان بين الفرنسيين والعرب، ومضى في ذلك إلى الحد الذي جعل صديقه ابن عراش يصرح أمام الجنرال الفرنسي أنه يتمنى أن يتزوج سيدة فرنسية، وفي هذه الحالة سوف يبني

لها كنيسة صغيرة في عاصمته. ولم يكن الأمير جادا في هذا الأمر رغم ادعاء الجنرال ديميشيل، إذ كان الأمير متزوجا من امرأة واحدة ويعيش سعيدا معها وحدها.

إن العرب يحبون الكسب، ولما كانت التجارة تزدهر بعد كل حرب، فقد حدث أن حولت المصلحة المشتركة حربا دامية قاسية إلى علاقة سلمية في فترة قصيرة، فأمن الناس في مقاطعة وهران على أشخاصهم وممتلكاتهم، وكان ذلك مخالفا لكل ما خبره الفرنسيون في البلاد حتى ذلك الحين. فكان الضباط الفرنسيون والعلماء الطبيعيون والتجار يقطعون المقاطعة في كل الاتجاهات، لا يرافقهم سوى عربي بصفته دليلا، واذا ما هم تعرضوا لأي نوع من أنواع العنف، فإن العقاب الصارم لن يتأخر طويلا. وكانت المناطق الريفية تزود أسواق وهران وأرزيو ومستغانم بالكثير من المواد الغذائية، فكان العرب واليهود والحضر يحملون إليها من المدن الداخلية الصوف والجلود والبرانس والسجادات والبضائع القطنية والتمور والزيت. كان الناس من الجانبين قد تعبوا من الحرب، ولذلك كانوا ينعمون بثمار السلام في رضا تام.

الفصل السادس

كان مؤيدو سياسة ديميشيل ومعارضوها على السواء ينتظرون في أثناء ذلك وصول الحاكم العام، الكونت ديرلون، بنفاذ صبر. كان الأولون يأملون في إقامة نظام ثابت، يرونه دون شك أجدى على المستعمرة، بينما كان الآخرون ينتظرون أن تتفتح عيون الحكومة على العواقب الوخيمة، التي يمكن أن تنجم عن الاستمرا في هذه السياسة الخاطئة. ولم يكن الانطباع الأول، الذي أخذه الحاكم العام عن الوضع في صالح الأمير عبد القادر. فقد تمكن المكتب العربي34) من الحصول على رسائل، اتضحت منها مشاريع الأمير عبد القادر الواسعة كلها، حتى إنه أصبح من الصعب على الفرنسيين أن يتصوروه مجرد آلة لإنشاء سلطة فرنسية في البلاد كما تصورها الجنرال ديميشيل. كان الجنرال ديرلون قد تلقى خبر هذه الرسائل في تلك الفترة، التي كان الجنرال ديميشيل قد وصل فيها إلى الجزائر، وبرفقته ابن عراش، الذي كان يريد أن يكتشف نوايا الحاكم العام الجديد. ولم تكن للجنرال ديرلون بعد سوى فكرة غامضة عن الأوضاع في البلاد، فنتج عن ذلك زوال الانطباع السيء، الذي خلفته في نفسه الرسائل التي عثر عليها، عقب اجتماعه مع حاكم وهران والسفير العربي. لقد عومل ابن عراش معاملة حسنة، وغادر الجزائر راضيا عن نتائج مهمته، وحمل معه إلى سيدة هدايا كثيرة في الوقت نفسه. وقد كان الجنرال ديميشيل يعتقد في تلك اللحظة أن نظامه ستكون له الغلبة، ولكنه أجبر، قبل أن ينال الموافقة التامة عليه، على العودة إلى وهران بعد أن أخبره بضعة فرسان الأمير عبد القادر بانتشار الكوليرا الأسيوية في وهران.

وبعد ذلك بقليل انصرف الجنرال العجوز ديرلون إلى اهتمامات أخرى، فكان مرة يسير في هذا الاتجاه ومرة أخرى في ذلك الاتجاه. وكان الأمير عبد القادر، الذي كان الجنرال ديميشيل قد شجعه في هذا الطريق، الذي انتهجه، فاعتقد أنه في مأمن من أية معارضة تصدر عن الحاكم العام، قد مسك من جديد خيط مشاريعه التوسعية، التي كان الجنرال فوارول قد حال بينه وبين تنفيذها. فكتب رسائل إلى قبائل التيطري وإلى القبائل المقيمة في مقاطعة الجزائر، يخبرها فيها بوصوله. فثارت ثائرة الجنرال ديرلون عندما وصله خبر ذلك، وكتب من جهته إلى كل القبائل وأخبر رجالها أنه سينظر إلى الأمير عبد القادر، إذا ما هو نفذ ما عزم

عليه، وإلى كل من يؤيده في ذلك على أنه عدو لفرنسا. وأفهم الأمير في الوقت نفسه أنه لا يحق له أن يتجاوز نهر الشلف فقط، وإنما لا يحق له كذلك أن يتجاوز وادي الفضة.

كان هذا التحذير مفاجأة بالنسبة إلى الأمير عبد القادر، ولعله لم يكن ليهتم بذلك في غضبه لولا أن الكوليرا كانت في ذلك الحين قد فتكت بالكثير من رجال القبائل. كان له خلال هذا الوضع المادي الهادئ، الذي أجبر عليه إجبارا، ما يكفي من الوقت لتحليل العلاقة الحقيقية، التي تربطه بالجنرال ديرلون، فوجد أن هذه العلاقة يعوزها الوحدة والانسجام وأن هذا النفوذ المتواصل، الذي يجابهه، ينبغي أن يقابله نفوذ من الطبيعة ذاتها. لذلك قرر أن يكون له قائم بالأعمال في الجزائر، فاختار لهذا المنصب الصعب اليهودي الجزائري ابن دورانBen Durand، وهو رجل نبيه وداهية نشيط، تلقى تكوينه في أروبا وكان يتكلم عدة لغات أوروبية، خصوصا الفرنسية، بسهولة كبيرة.

في هذه الفترة، التي كان فيها هذا الرجل سفيرا لدى الجنرال ديرلون، بدأت الشكاوي الصارخة من الاحتكار التجاري، الذي كان الأمير عبد القادر يريد تطبيقه، فيما قيل، خلافا لنصوص المعاهدة.

طلب الحاكم العام توضيحات من ابن دوران، فأجابه بأن المعاهدة، التي يعتمد عليها، تنص على أن للأمير القادر الحق في توجيه التجارة في أرزيو الوجهة التي يريدها. لقد نفى هذا الزعم، وكان عليه أن يفعل ذلك، لأن الجنرال لم يكن يعرف غير المعاهدة، التي تم الإعلان عنها. لذلك اندهش عندما قدم له بن دوران نصوص المعاهدة كلها كما سبق أن قدمتها في الصفحات الماضية. ولم يكن في إمكان الجنرال ديميشيل بأية طريقة من الطرق توضيح الأمر المتعلق بإخفاء هذا الجزء المهم من المعاهدة عن الجنرال ديرلون، لذلك طلب من وزارة الحربية الفرنسية استدعاء الجنرال ديميشيل، وما أن تمت له الموافقة على ذلك حتى أرسل رئيس أركانه، الجنرال تريزيل Trezel، إلى وهران ليحل محله.

كان الجنرال ديميشيل قد أدرك، قبل أن يطرأ هذا التحول على الأمور بفترة قصيرة، أنه من الضروري أن يكون هناك وضوح أكثر دقة وأن تكون هناك محاولة لعقد معاهدة أخرى بدل تلك المعاهدة، التي كان قسمها الخفي باعثا على إثارة الكثير من الاستياء. لهذا السبب أرسل أحد ضباطه إلى الأمير عبد القادر ليعرض عليه التنازل عن مستغانم وأجزاء أخرى في مقابل أن يتنازل الأمير عن الاحتكار التجاري وأن يدفع إتاوة سنوية معتدلة إلى فرنسا.

واضاف إلى ذلك ان [illegible] على هذا، للقطيعة جديدة مع فرنسا. لأن الحاكم العام وأحزابا كثيرة كانوا يقفون ضد السلم. وبناء على هذا طلب من الأمير أن ينقل معسكره من وادي هبرة ويعود إلى معسكر. فأجابه الأمير عن هذه المقترحات جوابا يليق بمقامه قائلا إنه يتمسك بالمعاهدة الأولى، وإذا ما هو أراد أن يخالف الحق، ويتنكر للعدل، ويبدأ حربا جديدة معه، فإنه على استعداد لها. ورغم ما في جواب الأمير من هدوء وثقة بالنفس، فإنه ما كان في واقع الأمر ليرحب بقيام هذه الحرب، فدولته الفتيةلم تكن قادرة على تحمل أية ضربة سواء أكانت داخلية أم خارجية. ولذلك شعر بارتياح كبير عندما أرسل إليه الجنرال ديميشيل بعد ذلك مباشرة ضابطه المكلف بالمراسلات، الملازم الأول أليغرو Allegro 35) من فرقة السباهية ليخبره بأنه قد استدعي إلى باريس وأن هذه الاستدعاء إنما هو علامة على التغيير التام، الذي سيطرأ على السياسة، التي اتبعها الفرنسيون معه خلال العشرة أشهر الماضية. ومع ذلك لم يغير الأمير عبد القادر القرارات، التي كان قد اتخذها. وعندما أشار عليه اليغرو على نحو تلقائي مناسب بالتخلي عن بعض مطالبه ونصحه بألا يغتر بالحظ، الذي حالفه حتى هذه اللحظة في طموحه إلى تحقيق هدفه، الذي لا يمكن تحقيقه، أجابه قائلا: " قبل حوالي ثلاث سنوات، يا اليغرو، لم أكن سوى واحد من أبناء أبي الأربعة، وكان علي، إن أنا استطعت التغلب على خصمي في العركة، أن آخذ فرسه وأمتعته لأزيد في ممتلكاتي. أنت ترى ما وصلت إليه في هذه الآونة، ومع ذلك تريدني على ألا تكون لي ثقة في نفسي؟ 36).

في أثناء ذلك كان القائم بأعمال الأمير عبد القادر في الجزائر، اليهودي ابن دوران، يستعمل كل ما له من الذكاء وسعة الحيلة والدهاء لإبعاد العاصفة، وكانت الأوضاع في تلك الآونة في خدمة مهارته السياسية. ذلك أن الجنرال ديرلون، الذي كان قد هدد باستعمال القوة ضد سكان منطقة الجزائر والتيطري إن هم ساعدوا الأمير في تنفيذ مشاريعه، تلقى رسالة من سكان مدينة المدية، يعبرون فيها عن آراء سديدة، وأفكار صائبة، ويخبرونه فيها أنهم إذا كانوا قد رغبوا الآن في وصول ابن محي الدين إليهم، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا لأنهم كانوا يأملون أن يساعدهم في القضاء على الفوضى، التي يعيشون فيها منذ أربع سنوات، وأنهم كانوا قد وجهوا أكثر من مرة رسائل مختلفة إلى الفرنسيين، ولكن الفرنسيين لم يهتموا بهم ولم يقدموا لهم المساعدة، التي كانوا قد طلبوها منهم؛ وإنهم ليستغربون الآن أن يمنعهم الفرنسيون أنفسهم من البحث عن المساعدة، التي رفضوا تقديمها لهم، في مكان آخر. كان لا بد أن يكون لهذا العرض الذي قدموه عن الوضع، الذي يعيشون فيه، أثره في نفس الحاكم

العام، فادرك في الحين صواب ما ذكروه لـه. لذلك قرر إقامة حكومة في التيطري. ولكـن عوض أن يبدأ الأمر من حيث انتهى به الجنرال فوارول،فضل أن يعين القائد ابراهيم، الذي كان سخط الجنرال ديميشيل عليه قد جعله معروفا، بايا على التيطري. كانت خطة الحاكم العام أن يجند فيلقا من 500 رجل من الأتراك أو الأهالي ويسير به إلى المدية ويسند إليه مهامه هناك.

ولم تحرز هذه الخطة على موافقة الوزارة الفرنسية، فاقتنع الجنرال ديرلون بأنه لم تبق هناك من وسيلة لإيقاف طموح الأمير عبد القادر، وارتضى لنفسه تحمل نتائج ذلك في المستقبل. ومن ثم سلم نفسه للداهية بن دوران من غير تحفظ. وكان الجنرال تريزيل، الذي كان قد توجه إلى وهران ليمثل نظاما يخالف نظام الجنرال ديميشيل، قد وجد نفسه بهذه الطريقة في موقف غريب، يخالف موقف ذلك الذي كان قد أرسله لهذا الغرض.

ولم يدع الأمير عبد القادر، الذي كان بن دوران يبلغه بكل ما يحدث في الجزائر، أية فرصة تمكنه من كسب مودة الجنرال ديرلون والفوز برضاه. فكان الفرنسيون، الذين يجوبون ربوع مناطق دولته طولا وعرضا، يعاملون معاملة حسنة ويحظون بالحماية التامة. وقد استعمل كل ما في شخصية من جاذبية لكسب مودة ضباط هيئة الأركان، الذين كانوا يفدون عليه رسلا بين وقت وآخر وكان هو يعرف أن لهم مكانتهم الخاصة عند الحاكم العام. وسرعان ما أصبح الحديث لا يدور في الجزائر إلا حول الأمير عبد القادر، حتى أولئك الرجال، الذين اشتكوا من ضرر الأخطاء السياسية المرتكبة، كانوا يتكلمون بإعجاب عن صفاته وخصائصه العظيمة.

وبينما كانت شهرته تتسع هكذا، وعبر اسمه البحر ليتردد صداه في أوروبا بأسرها. تعرضت سلطته لهجوم جديد. فبعد أن خضع له سيدي العريبي في بداية الأمر، عاد فيما بعد ليتآمر عليه. وتم العثور على أدلة،كتبت بخط هذا الآثم، فاجتمع القضاة والعلماء للتشاور وحكموا عليه بالإعدام. على أن الأمير عبد القادر لم يسمح بتنفيذ هذا الحكم، إما لما في طبعه من مروءة وشهامة أو خوفا من عائلة العريبي القوية، لكنه أمر بحبسه. فمات فيه بعد فترة قصيرة بالكوليرا. فادعى أبناؤه أن موته لم يكن طبيعيا، وحملوا السلاح وحرضوا كل قبائل نهر الشلف تقريبا على الثورة على الأمير. ورفع مصطفى بن إسماعيل، عدو الأمير اللدود، صوته من قلعة المشور بتلمسان، وقدم عروضا إلى الجنرال تريزيل، ولكن التعليمات التي كانت لديه لم تسمح له بالاستجابة لعروضه. وكانت بواعث مصطفى بن إسماعيل على ما قام به تكمن في غيرته من الأمير عبد القادر وإصراره على حقده الدفين عليه. وكان التعصب الأعمى والكراهية المستحكمة للمسيحيين هما اللذان حملا القبائل على الاستجابة لدعوة سيدي العريبي إلى الثورة.

بينما كان مصطفى يبحث عن سند للثورة، التي كان ينوي القيام بها، عند الفرنسيين. حملت قبائل الشرق بأسرها السلاح ضد الأمير عبد القادر،متهمة إياه بالتحالف مع المسيحيين. حتى أخوه، الذي كان في السابق قائد قليتة، ثم انسحب من وظيفته بحجة أنه كان يريد أن يحيا حياة تقية، تحالف مع الثوار وحرضهم على الثورة على من كان فخرا لأسرته ولقبه. وتلقى الثوار من باب المصادفة حليفا آخر أكثر فظاعة في شخص موسى (الدرقاوي)، زعيم الصحراء، الذي كان وصل بقوات حربية كبيرة، وأعلن أنه جاء ليفني المسيحيين وأتباعهم، وعلى رأسهم ابن محي الدين. كان قد أحضر معه القبائل الصحراوية، التي يسميها الأتراك درقاوة أو المستقلين، وكثيرا ما كان البايات يرتعدون منها.

قرر الأمير عبد القادر، الذي رأى العاصفة تتجمع حوله، الخروج إليه لمجابهته. فترك معسكر في الثاني عشر من شهر مارس *1836* وهاجم بسرعة وقوة أبناء سيدي العريبي. فأجبرهم على الخضوع له دون ضربة سيف. وعندما تقدموا إليه،عاملهم بلطف وطيبة وأحسن إليهم، وقال لهم إن موت أبيهم يجعله ينسى أخطاءهم، وعين الابن الأكبر، سيدي شعبان، قائدا لقبيلتهم. وبعد أن انتهى من ذلك، مضى إلى جسر الشلف. وهناك ظهر لقبيلة صبيح أن تعترض طريقه، ولكنه قهرها وأرغمها على طلب العفو منه، وهكذا وصل إلى جسر الشلف. وكان اجتيازه خرقا تاما للحظر الذي أصدرته الحكومة الفرنسية. ولكنه كان في تلك اللحظة يعتقد أن من حقه أن يتجرأ على كل شيء. وكان في تلك الأثناء قد أخبر الجنرال تريزيل عن طريق قنصله في وهران أنه كان ينوي الذهاب إلى مليانة. ولكنه توقف لحظة قبل أن يعبر الحدود التي رسمت له، لأن هذه الخطوة من الممكن أن تقرر مصيره السياسي في المستقبل. وفي النهاية حاول أن يجرب حظه عندما وصله خبر دخول موسى (الدرقاوي) مدينة المدية، فعبر الجسر ووصل إلى مدينة مليانة، فاستقبله الشعب فيها بحماس كبير، وخرج الآغا السابق الحاج محي الدين الصغير وقائد مدينة شرشال السابق محمد البركاني، اللذان جعلتهما الظروف من أعداء فرنسا، لاستقباله، وعرضا عليه خدماتهما. فلم يكن له أن يرفض هذه الخدمات. وسار معهما لمحاربة موسى الدرقاوي، فالتقى به على مقربة من حوش عمورة في منطقة قبيلة سماتة. وكانت قطع المدفعية، التي حملها الأمير عبد القادر معه، حاسمة في إلحاق الهزيمة بموسى الدرقاوي. ووقع متاعه ومن كان معه من نسائه في يدي المنتصر. وطارد الحاج محي الدين، الذي كان يقود مقدمة جيش الأمير، موسى الدرقاوي حتى البرواقية، ولكنه لم يستطع اللحاق به. فعاد هذا الرجل المحظوظ إلى صحرائه، وبعد فترة

قصيرة أرسل الأمير خلفه نساءه، اللواتي عاملهن بشهامة ومروءة. واستقبل الأمير في المدية كما استقبل في مليانة، وعين محمد بن عيسى البركاني بايا لمقاطعة التيطري.

وضعت هذه الأحداث الجنرال ديرلون في موقف حرج، لأنه كان قد قرر ألا يقوم بأي عمل دون أمر من باريس، ولكنه لم ينس مع ذلك التحذيرات، التي كان قد وجهها للأمير عبد القادر في حالة ما إذا هو تجاوز نهر الشلف. وكتب الجنرال تريزيل إلى الجنرال ديرلون وطلب منه أن يأذن له في غزو مدينة معسكر لكي يرغم بذلك الأمير عبد القادر على العودة إلى داخل الحدود، التي رسمها له الجنرال فوارول والحاكم العام الحالي نفسه. لكن ديرلون، الذي كان واقعا تحت تأثير ابن دوران، انتهى بعد تردد قصير إلى أنه من الأفضل له أن يوافق على مطالب الأمير على أن يجرب حظه عن طريق إعلان الحرب عليه. فأخذ ابن دوران على عاتقه المحافظة على هذا المظهر، ولكن ليس بالنسبة إلى العرب، لأن ذلك لم يكن ممكنا، وإنما بالنسبة إلى الجمهور الأوربي، الذي لم يعد هو الآخر يقبل بانطلاء الحيلة عليه. ومن أجل ذلك أشاع أن الأمير عبد القادر قد فعل ما فعله بموافقة الحاكم العام، وكان قد سئل في الوقت نفسه كتابيا عما إذا كان مستعدا لاستقبال ضابط من هيئة الأركان، يود الجنرال ديرلون إرساله إليه، ليفاوضه في بعض الشئون، التي تخص الجانبين، ويحمل إليه بعض الهدايا. وعند وصول هذه الرسالة لم يكن للأمير إلا أن يعجب بمهارة القائم بأعماله وطواعية الحاكم الفرنسي، التي قد تكون لها تبعات معينة، من المؤكد أنها لم تكن في حسبان هذا الحاكم. وأكد للجنرال ديرلون في جوابه أن السفير والهدايا ستجد لديه القبول الحسن. ولإتمام عملية الخضوع اقترح على رجال حجوط أن يرافق بعضهم الضابط، الذي عين لإرساله إليه. وكان رجال حجوط، الذين كان الفرنسيون قد أعلنوا عليهم حربا ظالمة، ولم يتمكنوا من إخضاعهم، قد شعروا أن من دواعي الافتخار لديهم أن يرافقوا المبعوث الفرنسي إلى الأمير عبد القادر. وجاء ابن دوران أيضا مع هذا الضابط، الذي لم يرافقه مترجم آخر، ومن ذلك يتضح أن البعثة كلها قد اقتصرت على مجاملة الأمير بالكلمات الجميلة والهدايا الفاخرة، ولذلك كان من حق الأمير أن يرى فيها دليلا على الخضوع له. فكان عليه منذ هذه اللحظة أن يؤمن، وقد آمن بذلك فعلا، أن الفرنسيين قد تخلوا عن مشاريعهم الاستعمارية وأنهم لم يعودوا يفكرون إلا في أن تكون لهم مراكز تجارية تحت حماية ذلك الذي اعترفوا به، بكثير من اللياقة، بصفته حاكما للبلاد كلها. وطالب برفع الحجز عن 200 بندقية، كان قد طلبها من تاجر أوربي، وتم حجزها عندما كان الجنرال ديرلون على وشك إظهار عداوته له، ثم طالب بتزويده بمئات من قناطير البارود، وتمت له الموافقة على ذلك كله.

بعد أن عين الحاج محي الدين بالمليانة، وعين [illegible] تعيين قائد آخر في قبيلة بني خليل، سار من جديد باتجاه نهر الشلف وبرفقته المبعوث الفرنسي، الذي كان يبدو أنه لم يحضر إلا ليكون شاهدا على انتصاراته.

وعندما كان الأمير على الضفة اليمنى من نهر الشلف، قتل اثنان من ضباطه في منطقة فليتة، فاتجه عند عودته لغزو هذه القبيلة، التي لم تستطع تسليم القتلة، لأنهم كانوا كما قيل في حالة فرار، وأجبرها على دفع *150,000* بوجو لوضعها في خزانة الأمير، وكان قبل ذلك قد طلب مبلغا معتبرا لدفعه إلى عائلة القتيلين. لقد ساعد هذا المثل من التطبيق الصارم للعدالة على استتباب النظام في كل مكان. فتوقفت أعمال السلب والنهب، إذ كانت كل قبيلة تسهر على مراقبة المنحرفين وسيئي السمعة، كما شمل الأمن الطرقات، حتى إنه كان في وسع الصبي أن يجوب البلاد وعلى رأسه تاج من الذهب، على حد تعبير العرب. ولكن ذهن الأمير عبد القادر النشيط لم يكن ليهدأ لحظة واحدة، فما كادت الحرب تتوقف حتى عني بتنظيم الإدارة الداخلية في البلاد. ولكي يتمكن من التحكم فيما قد يكون في القوانين، التي سنها، من صرامة، حاول أن يحسنها ويخفف من صرامتها حتى يضع حدا لتجاوزات القضاة الشائعة. وأصدر قانونا يمنع من الحكم بالموت بسبب الخيانة الزوجية، ولكنه أبقى على حقوق الرجال في قتل زوجاتهم إن هم وجدوهن في حالة من التلبس بالجريمة. كانت عبقرية هذا الرجل تحيط بكل شيء، ولما كان لا يجد حوله في معظم الأحيان إلا القليل ممن يستطيع الاستفادة منهم، فكثيرا ما كان يجد نفسه بسبب ذلك مضطرا إلى الاهتمام بأصغر التفاصيل. لقد وسع قوته الحربية حسب ما كانت تسمح به أوضاعه المالية، وأنشأ زيادة على مأجوري الزواوة فرقة من رجال المدفعية (الطوبجية)، كان يأمرهم أحيانا بالقيام بمناورات أمامه. ودعا إلى معسكر عددا من صناع الأسلحة الأوربيين، فصنعوا بنادق عالية الجودة على النموذج الفرنسي، وكانت الأسلحة الأولى، التي صنعت في هذا المعمل الجديد، سببا في إقامة بعض الاحتفالات العامة. وأمر أيضا بصناعة البارود، وحاول أن يدخل عليه بعض التحسينات. لأن أخلاط المواد الأولية كلها كانت حتى ذلك الحين تتم يدويا. ولهذا الغرض أنشأ له فار الماني (36) من الفرقة الأجنبية نموذجا لطاحونة بارود، أعجب بها الإعجاب كله. ولكنه لم يكن لديه في تلك اللحظة الوقت لإعطائها حجمها الحقيقي. ويقال إن الأمير كان قد فكر، وهو يحلم باتساع رقعة سلطته، في إنشاء أسطول في كل من رشقون وتنس.

كان الأمير قد أولى القضايا المالية اهتماما خاصا. فكان على القبائل كلها أن تدفع له العشور، الذي رسمه القرآن، والذي كان يشكل الضريبة الوحيدة المباشرة، التي كان يعتقد أن من حقه المطالبة بها. وأصدر أوامره، لكي يزيد من مداخيله، بإحصاء دقيق لأملاك البلديات السابقة كلها وتسيير شئونها لحساب خزينة الدولة، ولم يعف من ذلك مواطنيه المقيمين في مدينة وهران، ولكن الجنرال تريزيل رفض ذلك بصورة قاطعة.

كانت للأمير مثل جميع أمراء الشرق مفاهيم خاطئة عن التجارة. فقد تصور أنه وجد منبعا لا ينضب معينه في احتكارها، وما أن تأكد لديه أن الحاكم العام لن يضايقه فيما يتصل بهذا الأمر، حتى قرر تنفيذ هذا النظام بشكل أقوى. فقدم لليهودي ابن دوران، الذي قدم له خدمات جليلة، امتياز ممارسة التجارة في أرزيو ومستغانم، ووقع كذلك معه صفقة تجارية تتصل ببيع الحبوب، التي تجمع من العشور، وعقد اتفاقية مماثلة مع تاجر فرنسي تسمح له بالمتاجرة في تنس، ولكن ذلك كله لم يؤد إلى نتيجة ملموسة.

كان الأمير في حياته الخاصة مقتصدا حد البخل، ولكنه كان تبدو سخيا دائما بصفته أميرا. كان يرتدي لباسا بسيطا خاليا من أية زينة أو علامة رغم المكانة الجليلة. التي كان يتمتع بها، وكانت الأبهة الوحيدة، التي كان يسمح بها لنفسه، تتمثل في الخيول والأسلحة. كان في السابق يرتدى برنسا مذهب الحواشي، كان قد طلب تفصيله للمناسبة الآتية. كان أحد أصهاره، وكان قد عينه قائدا على قبيلة كبيرة، قد أحاط نفسه بأبهة، بلغت حد إثارة الاستياء. فدعاه إليه، وبعد أن أوضح له ما في مظهره من خطأ، قال له: " خذني مثلا لك. أنا أغنى وأقوى منك، فانظر إلي اللباس الذي ألبسه. حتى هذه الحواشي المذهبة التعيسة لا أريد أن أحتفظ بها." عندما يقيم الأمير في عاصمته، يقضي الوقت، الذي يبقى له من أعماله. مع زوجته وأطفاله، وكانت له دار جميلة، يعيش فيها، دون حراسة. مثلما يعيش أي رجل غير رسمي. كان يتجه في كل صباح، مبكرا جدا، إلى قصر البايلك، ليقوم بأعماله الإدارية ويستقبل زواره. ويعود في المساء إلى منزله، فيجد في أسرته المحبوبة، وهي مكافأته على ما يعانيه في عمله. والأمير عبد القادر محب للدراسة والبحث إلى حد كبير، يخصص لذلك الوقت الذي تسمح له به حياته الحيوية النشيطة، وله مكتبة صغيرة تصاحبه في كل حملاته. وطريقة حياته في الميدان أكثر غنى ووفرًا منها في المدينة،فهو يسكن عندئذ خيمة فاخرة مريحة جدا، يوجد بها مكان صغير يستقبل الناس فيه ويؤدي عمله اليومي . وحين لا تقتضي الظروف القيام بعمليات حربية، يقضي وقته في المعسكر على الصورة الآتية. عند وصوله إلى

خيمته بعد سيره اليومي، لا يبقي عنده إلا خادما واحدا، ويخصص دقائق للعناية بمظهره، ثم يدعو كتابه وكبار ضباطه الواحد بعد الآخر، ويعمل معهم حتى الساعة الرابعة، ثم يخرج من خيمته، ويؤدي أمامها صلاة الجماعة، ويخطب حوالي نصف ساعة، مهتما باختيار نص يمهد به للحديث عن أفكار تتصل بالحرب والسياسة، يريد أن يرسخها في أذهان جيشه، ولكنه لا يجبر احدا على حضور هذه الخطب. وبعد ذلك مباشرة يجلس لتناول طعامه مع كاتبه الأول وأمين سره ابن عراش، وإخوته، إن كانوا في الجيش، ومع أحد آغواته عادة. والمواعين، التي يقدم له فيها الطعام، قليلة، ولكنها جيدة ومعدة بشكل جيد. ويدخن نوعا من التبغ، ولكنه لا يكاد يشرب القهوة، وهو رجل ورع المنزع، متين الخلق من غير تعصب، وله عقيدة دينية قوية. ولا يخشى من مناقشة المسائل الدينية مع المسيحيين، ويفعل ذلك دون قسوة وبأدب جم. ولمبادئه الخلقية دواع وجيهة، فهو يفي بالوعد، ولكنه في مفاوضاته دبلوماسي محنك وداهية. والقسوة نادرة في طبيعته، فقلما يعنف ويحتد، ويعرف دائما كيف يسيطر على نفسه. والحلم والعدل، تساندهما المحافظة على القوانين بصورة أدق، هما الميزتان اللتان يتميز بها نظام حكومته.

الفصل السابع

كان الحظ، الذي رافق خطط الأمير عبد القادر، قد أمده بفكرة كبيرة عن قوته، فكان أن جعلت تصرفات الفرنسيين المتذبذبة الغامضة هذه الأمة محتقرة في نظره وفي عيون العرب جميعهم. كلما قل نفوذ فرنسا، ارتفعت مكانته هو ومكانة شعبه على حساب فرنسا، يضاف إلى ذلك أن الظرف نفسه كان مناسبا، ذلك أن قوة الفرنسيين كان يمثلها في إفريقيا رجل، أنقص تقدم السن من قواه الروحية، التي اشتهر بها قبل ذلك. فما أن عاد الأمير من حملته الكبيرة إلى معسكر، حتى تجلى نوع من الإباء في علاقاته الدبلوماسية مع السلطات الفرنسية، فقد أصبح الآن أكثر وضوحا مما كان عليه في أي وقت مضى. عندما انتقل الجنرال العام إلى وهران في الأيام الأولى من شهر يونية 1835، كتب إليه الأمير عبد القادر أنه سعيد برؤيته في " مملكته "، وأرسل إليه بالمناسبة نفسها ابن عراش ليطلب منه أن يزوده بمدفع هاون ومدفعين جبليين لمحاصرة قلعة تلمسان، وكان على ابن عراش في الوقت نفسه إجراء مفاوضات جادة بشأن سلوك الملازم الأول مع العرب في سهل المتيجة. فوعده الحاكم العام بأنه سيفكر في الأمر عند عودته إلى الجزائر. أما فيما يتعلق بمدفع الهاون والمدفعين الجبليين، فلم يكن يرى من باب المراعاة مانعا من تقديمها إليه على سبيل الإعارة، ولم يمنعه من ذلك سوى معارضة تريزيل الشديدة لذلك. وكان ابن عراش قد أحضر معه اقتراحات تتصل بعقد معاهدة ثابتة تحل محل المعاهدة القائمة، يتم فيها الاعتراف باتساع سلطة الأمير وباستقلاله بشكل أكثر تأكيدا. وقد أجل الحاكم العام اتخاذ قرار بهذا الشأن إلى وقت آخر، وكان الدافع إلى ذلك معارضة الجنرال تريزيل لها معارضة دائمة كان لها ما يبررها عنده.

وبينما توجه الأمير إلى مليانة والمدية، أخذ الجنرال تريزيل يفكر أن خرقه لمنع الحكومة الفرنسية له (من اجتياز نهر الشلف) لا بد أن يكون سببا في حرب جديدة. لذلك حاول أن يضع عراقيل في طريق الأمير عبد القادر ويسعى إلى أن ينتزع منه قبيلتي الدوائر والزمالة، اللتين كان لا يزال من بين أفرادها من يحمل العداء له. وقد نجح في إقناع بعض دواوير القبيلتين، فأعلنوا أنهم من رعايا فرنسا إذا ما هي وفرت لهم الحماية القوية. غير أن الجنرال ديرلون، الذي وضع قاعدة احتمال كل ما يصدر عن الأمير، رفض الموافقة على هذه الخطوة.

وكان الأمير عبد القادر، الذي كان يعرف كل ما يتصل به، بل حتى ما كان يدور في مجلس الحاكم العام، قد تلقى معلومات عن هذه المفاوضات، فقرر أن يمنع من تجددها. فما كاد الجنرال ديرلون يصل إلى الميناء في طريقه إلى الجزائر، حتى أمر الأمير عبد القادر قبيلتي الدوائر والزمالة، اللتين كانتا تقيمان في منطقة وهران، بمغادرة مكان إقامتهما والانتقال إلى سفح الجبل. ولما لم يستجب رجلها لأوامره، أرسل الأغا المزاري مع مجموعة من الفرق العسكرية، وأمره باستعمال القوة إن دعت الضرورة إلى ذلك. وعند اقترابه منهم أرسل الدوائريون والزماليون رسولهم إلى الجنرال تريزيل يطلبون من الفرنسيين الحماية، وقد وقع ذلك في الرابع عشر من شهر يونية.

خرج الجنرال من وهران مع قسم من حاميتها دون أن يفكر في الأمر لحظة واحدة، وأقام معسكره قرب ميسرغين، وأفهم العرب أنه جاء لحمايتهم من المزاري. وعندما عرف في اليوم الموالي أن الأغا يقيم قرب البريجة، أرسل إليه مساعده مع كتيبة من القناصة، يطلب منه أن ينسحب وأن يترك الشعب، الذي وضع نفسه تحت حماية الفرنسيين، في سلام. وكان الأغا قد بدأ ينفذ أوامر الأمير عبد القادر بكل صرامة، فاعتقل ابن أخيه، اسماعيل بن القاضي، وكبله، لأنه رفض الامتثال لأوامره، ولكن اقتراب الضابط الفرنسي جعله يتخلى عن غنيمته ويبتعد بسرعة حتى إن الضابط الفرنسي لم يتمكن من محادثته. واتجه أولئك الدوائريون والزماليون وعلى رأسهم مصطفى بن إسماعيل إلى الجنرال تريزيل، أما الباقون، وكانوا أكثر عددا، فقد تبعوا المزاري، ولحقوا به في بحيرة السبخة، وأخبروه أنهم أرادوا أن يظلوا أوفياء لذلك الذي تسامح معهم بعد ثورتهم الأولى وعفا عنهم. وتم هذا الانفصال بهدوء ودون أي عداء، ذهب كل واحد إلى المكان الذي يناسبه من غير أن يسأل جاره عما يريد فعله.

في 16 يونية اتجه الجنرال تريزيل إلى الموقع المذكور سابقا قرب الكرمة على بعد ميل ونصف جنوب وهران ليتمكن من هناك من حماية كامل المنطقة، التي نزل بها الدوائريون والزماليون، الذين أعلنوا معارضتهم للأمير عبد القادر. وهناك كتبت المعاهدة وتم التوقيع عليها، اعترفت فيها القبيلتان بالسلطة الفرنسية بصورة دائمة. وفي يوم 19 تقدم الجنرال ميلين آخرين وضرب معسكره على ضفاف وادي تليلات. وكتب من هنا رسالة إلى الأمير عبد القادر، يخبرها فيها أنه سيقيم في هذا المكان إلى أن يستنكر الأمير أمر اعتقال إسماعيل ويتنازل عن كل حق له في حكم الدوائر والزمالة. وكتب في الوقت نفسه إلى الجزائر ليخبر الحاكم العام بهذه الخطوات، التي كان يعتقد أن عليه القيام بها، وطلب منه أن يوجه، إن لم يحط

إجراءه بإعجابه، إلى خليفته، موضحا له انه لا يمكنه أن يحتفظ بإمرته تحت شروط، لا يراها تتناسب مع شرف فرنسا.

أجاب الأمير عبد القادر الجنرال كريزيل بأن دينه لا يسمح له بترك المسلمين تحت الحكم الفرنسي وأنه لن يتخلى عن مطاردة القبيلتين الثائرتين حتى أسوار مدينة وهران. ورجاه في نهاية رسالته أن يرسل إليه قنصله في وهران لمبادلته بقنصل الفرنسيين في معسكر. وهكذا أعلنت الحرب، ومنذ تلك اللحظة لم يعد أحد من الجانبين يفكر في شيء آخر غير الاستعداد لها. ولم يعرف الجنرال الفرنسي ما بقي له أن يفعله بعد، فأخذ يحصن موقعه في تليلات حتى يكون بإمكانه أن يضع داخله أمتعته وفيلقا للدفاع عنه. أما الأمير فقد دعا العرب إلى التعبئة العامة، واتجه نحو بقواته إلى ضفة سيق. الذي جعله مكانا لتجمع قواته.

وبدأت العداوة في يوم 22 بهجوم على قافلة كانت في طريقها من وهران إلى تليلات، لكن الهجوم لم يكن قويا، ومن ثم لم تكن له نتيجة تذكر. وفي يوم 22 تعرضت عربات الإمدادات قرب تليلات لهجوم كتيبة تتألف من 200 حصان، وفي يوم 26 قرر الجنرال تريزيل، الذي لم يبق له من المؤونة إلا ما يكفي لأربعة أيام، الخروج لمحاربة الأمير عبد القادر، الذي كان في أثناء ذلك قد جمع قوات معتبرة. وكان الفيلق، الذي يقوده الجنرال الفرنسي، يتكون من 2500 رجل فقط، أي فوج الكتيبة 66، والفوج الأول من فرقة المشاة الإفريقية المزودة بالأسلحة الخفيفة، وفوج ونصف من الفرقة الأجنبية، والكتيبة الثانية للقناصة الإفريقية، و 20 مدفع هاون و4 مدافع جبلية، وكان الركب يتألف من20 عربة. بدأ هذا الفيلق الضعيف السير في الرابعة صباحا على الترتيب الآتي: الطليعة بقيادة العقيد أودينو *Oudinot* ، وتتألف من كتيبتين من القناصة، وثلاث سرايا من البولنديين ومدفعين جبليين. وكان يسير على ميمنة الموكب فيلق من الكتيبة 66 وكتيبة من الخيالة، وعلى الميسرة الفيلق الإيطالي من اللفيف الأجنبي وكتيبة من الخيالة. أما مؤخرة الجيش بقيادة العقيد بوفور *Beaufort* ، فكانت تتكون من فيلق من فرقة المشاة الإفريقية، وأربع كتائب من الخيالة ومدفعين جبليين. ولكن هذا الترتيب لم يخل من خطأ، أخل بنظام زحف الجيش، وهو أنه كانت هناك مبالغة في تشتيت الخيالة الفرنسية، كما أن الطابورلم تكن له مقدمة قوية، ومثل هذه الأخطاء يجب تجنبها في إفريقيا.

في الساعة السابعة صباحا دخل الطابور غابة مولاي إسماعيل، التي تتكون من أراض وعرة غير مستوية. وفي الثامنة ظهرت طلائع الأمير عبد القادر وقامت بهجوم عنيف، وأرغمت

الطليعة الفرنسية على التراجع بعد أن تكبدت خسائر معتبرة. وكان فيلق الكتيبة 66 قد انفصل عن الطابور بسبب وعورة الأرض، فهوجم أيضا ورد على أعقابه. وتصدى اللفيف الأجنبي في الميسرة لهجوم العرب، ومع ذلك استطاع أن يثبت في موقعه. غير أن العقيد أودينو 39) قتل وهو يحاول تنظيم صفوف الطليعة، وأدار الفرسان، الذين رافقوه، ظهورهم لقوات الأمير، فعمت الفوضى صفوف القوات الفرنسية وبلغت اللفيف الأجنبي، فأخذ هو الآخر ينسحب. فاكتنف الرعب الركب، الذي لم يكن له ما يحميه من الميمنة والميسرة، ورجعت جميع العربات باستثناء عربة كتيبة المهندسين. وفي ذلك الحين أمر الجنرال بأن تتقدم سرية من الفيلق الإفريقي من مؤخرة الجيش في حالة هجوم حتى تحتل مقدمة الركب. وقام الجناحان في الوقت نفسه بهجوم عاصف، وغسلوا عنهم عار اللحظة السابقة، ودحروا العرب وألحقوا بهم خسائر معتبرة.

وكان الأمير عبد القادر هو الذي قاد قواته في هذه المعركة، وكانت تتكون من *10.000* فارس، وبضعة آلاف من المشاة العرب وفيلق من الزواوة، يضم *1200* رجل، قاتل قتالا مستميتا بصورة خاصة. وقد جرح من القادة العرب الأغا المزاري وخليفة المناطق الشرقية، سيدي بوشدوس، في المعركة جرحا خطيرا. وكانت خسائر الفرنسيين 52 قتيلا و*189*جريحا، وحملهم كان على الفرنسيين أن يفرغوا عربات الخيام، بل بضع العربات الخاصة بنقل الإمدادات.

وفي الثانية عشرة توقف الطابور في سهل سيق خارج غابة مولاي إسماعيل ، وهناك حدثت فوضى حقيقية، عجز القادة الفرنسيون عن السيطرة عليها، ذلك أن عددا كبيرا من الجنود كانوا قد كسروا براميل بائع الخمور، وتعاطوا العرق والنبيذ ، فسكروا وأصبحوا عاجزين عن السير، فكان على البقية أن يصعدوهم فوق العربات، التي كانت قد امتلأت بالجرحى. ووصل الطابور، الذي كان قد استأنف سيره في أثناء ذلك، إلى وادي سيق في الساعة الرابعة بعد الظهر، وضرب مخيمه فيه على شكل مربع على ضفة النهر مباشرة. وكان الأمير عبد القادر قد أقام معسكره على بعد ميل ونصف الميل من معسكر الفرنسيين. وعند أوشكت الشمس على المغيب، تم تبادل قنصل الأمير بالمندوب الفرنسي، فحمل القنصل إلى الأمير رسالة من الجنرال تريزيل، جدد فيها مطالبه القديمة، ولم يطلب من الأمير أن يعترف باستقلال قبيلتي الدوائر والزمالة فقط، وإنما طلب منه كذلك الاعتراف باستقلال قبيلة الغرابة وكراغلة تلمسان ، وكان عليه زيادة على ذلك أن يتنازل عن كامل المنطقة، التي تقع على الجهة اليمنى من نهر الشلف، فأجاب الأمير كما أجاب في المرة الأولى. وكانت الهزيمة، التي مني بها

في غابة مولاي إسماعيل قد جعلته في البداية يميل إلى إجراء مفاوضات مع الفرنسيين. ولكن الأخبار التي نقلها إليه قنصله عن وضعهم وعن العدد الكبير من الجرحى، الذي أزعجهم ونال من معنوياتهم، كان لها دخل في رده على ذلك. وكان الجنرال الفرنسي قد عزم على مهاجمة معسكر الأمير عبد القادر، غير أنه تخلى عن ذلك فيما بعد خشية من أن يزداد عدد الجرحى. وبعد أن قضى يوم 27 من شهر يونية في هدوء على نهر سيق، بدأ ينسحب باتجاه أرزيو، وكان فرقة المشاة الإفريقية تسير في مقدمة الطابور، وخلفها الموكب، تتقدمه ثلاث عربات، وفي الميسرة السرايا البولونية وكتيبتا خيالة، وفي الميمنة الفيلق الإيطالي، ترافقه كتيبة من الخيالة. وكانت مؤخرة الجيش، التي كان يقودها العقيد بوفون، تتكون من فيلق الكتيبة 66 وكتيبتين من الخيالة.

وعلى هذا النظام من السير تقدم الطابور نحو سهل سيراط، يحيط به القناصة من كل جانب. وما أن تبين للأمير أن الفرنسيين قد بدءوا زحفهم، حتى أعد نفسه لمطاردتهم بجيش قوامه 8000 إلى 10.000 آلاف من الفرسان و1500 من المشاة، وأحاط عربه بالجيش الفرنسي كله وفي حوالي السابعة صباحا بدأ التراشق بالرصاص يشتد ويحتد، وساد النظام فوق ذلك صفوف الجيش الفرنسي حتى حوالي الظهيرة. ولما خشي الجنرال تريزيل أن يجد في طريقه إلى أرزيو صعوبة التنقل فوق أراض وعرة، تحول دون تقدم عرباته، قرر خلافا لما نصحه به من كانوا أكثر معرفة بالبلاد أن يتجنب جبال حميان، التي يسهل صعودها، ويسلك مضيق وادي الهبرة على مقربة من خليج البحر، حيث يخرج هذا الوادي من الأوحال ويتخذ اسم وادي المقطع. لكن الأمير عبد القادر فطن إلى هذه الخطة، فارسل عددا كبيرا من الفرسان، وخلفهم مشاة يمتطون ظهور الخيل، لاحتلال المضيق، الذي سيعبر منه الفرنسيون. وصله الفرنسيون في حوالي الثانية عشرة، ودخلوا فيه دون أن يتخذوا حذرهم اللازم ويعاينوا المكان، تاركين جبال حميان عن يمينهم وأوحال المقطع عن يسارهم. ولكنهم ما كادوا يدخلون المضيق، حتى ظهر القناصة العرب فوق جبال حميان. وبدل أن يهاجمهم الفرنسيون بقوات معتبرة، اكتفوا بارسال سريتين، ردتهما على أعقابهما جموع الأمير، التي كان أولئك القناصة مجرد تغطية لها. والتحقت سرايا أخرى شيئا فشيئا، فدحرت هي الأخرى. كان لا بد أن يخون التوفيق هذه الهجمات الضعيفة المشتتة ، فقد رمى العرب إلى الوادى بكل ما كان فوق الجبال، ثم نزلوا إليه بأنفسهم، وهاجموا الركب، الذي كان عليه بسبب وعورة المكان أن يعبر المضيق بعربة بعد أخرى. وكانت مؤخرة الجيش، التي وجدت نفسها معرضة للانفصال عن الجيش، قد

تجاوزت الموكب من الجهة اليمنى، وراحت تندفع في رعب نحو مقدمة الطابور. وانفتح الطريق أمام الموكب للحظات عندما قام الفرسان بهجمة قوية جعلت العرب يتراجعون فوق المنحدر الجبلي من الجهة اليسرى، ولكن عربات التموين والمهندسين انحرفت تجنبا للنيران، التي كان العرب يطلقونها منه، حتى إنها كادت تخوض في الأوحال. وفي هذه اللحظة أرسل الأمير من ميمنته حوالي 1000 فارس عبر تلك الأوحال وأصبح يهدد الموكب من ذلك الجانب أيضا. وعندما اقترب العرب، استولى الجبن على سائقي العربات المرعوبين حتى إنهم قطعوا الحبال وفروا فوق ظهور الأحصنة تاركين العربات والجرحى، وكان هذا أنكى على الفرنسيين، غنيمة بين أيدي العرب. ولم تسلم من ذلك سوى عربة واحدة، تحمل 20 شخصا، وذلك بفضل ضابط الصف فورني *Fournié* ، الذي أرغم السائقين، وهو يحمل مسدسه في يده، على القيام بواجبهم والسير إلى الأمام مع الطابور. أما عربات المدفعية، التي كان يقودها سواقون ماهرون، فقد تجنبت الأوحال ونجت كلها تقريبا، غير أن مدفعا جبليا واحدا وقع في أيدي العرب.

كانت الفوضى الرهيبة قد عمت في أثناء ذلك الجيش بكامله، فاختلطت الفرق بعضها بالبعض الآخر، فلم يكن من الممكن رؤية أي أثر لحسن النظام. وكان من حسن الحظ أن العرب توقفوا لحظة، وشغلوا أنفسهم بسلب ما في العربات وبقطع رؤوس الجرحى، فاغتنمت هذه الفرصة مجموعة كبيرة من الفرنسيين، ونظمت صفوفها فوق مرتفع منعزل، ونصبت به مدفعا رشاشا وأخذت تصب حممه على العرب . وكان الجنود، الذين اجتمعوا هناك، قد اصطفوا على شكل مربع وراحوا يطلقون النار بصورة منتظمة، وهم يتغنون بنشيد المارسييز، فكان في أفواههم أشبه بأغاني الإوز منه بأغاني النصر! وكان القسم الرئيسي من الجيش، الذي كان قد فقد معنوياته تماما، وكذلك ما تبقى من العربات، قد تجمع خلف هذا المرتفع في منخفض من الأرض. وكان يبدو أن هذا المنخفض لا مخرج له، ففيه يتجه طريق أرزيو، الذي كان غير ممهد تقريبا ، فجأة نحو الغرب. وكانت مجموعة من الجنود قد رأت المقطع على الجهة اليمنى وشريطا من الرمل في الجهة الأخرى، يظهر بمثابة الطريق، فألقوا بأنفسهم في النهر وغرقوا، بينما أخذ آخرون، ومن بينهم الضباط، يصرخون بأن عليهم أن يحاولوا الوصول إلى مستغانم. وضاع صوت الجنرال في الضجة، ولم تعد هناك من أوامر تعطى. وهذا مرت حوالي ثلاثة أرباع الساعة قبل أن يهتدي هذا الجمع، المختلف الألوان بعد أن قام بحركات متداخلة إلى طريق أرزيو. لكن الجنود، الذين بقوا فوق المرتفع الصغير، لم يكونوا يسمعون الأوامر، التي كانت تعطى لهم، أو على الأصح كانوا صما عن سماعها، وما كانوا ليفهموا أن عليهم أن

يتبعوا خطى الانسحاب العام للجيش. كانوا ينطقون بكلمات غير مفهومة لا علاقة لبعضها بالبعض الآخر، كانت توحي بأن القوة، التي لا يزالون يحاربون بها، ليست شجاعة، وإنما هي نوع من الحماسة المحمومة. هذا يودع الشمس، التي أضاءت أشعتها هذه الفوضى العامة والمشاهد الدموية، وذاك يعانق رفيقه. وأخيرا بدأت سرايا الكتيبة 66 ، التي كانت أكثر انتظاما من بقية السرايا، تواصل سيرها، وتبعتها الأخرى بسرعة شديدة، حتى إنها تركت خلفها مدفعا، لكنها استطاعت إنقاذه بعد ذلك مباشرة . وكانت مجموعة من 50 جنديا ينتمون إلى جميع الأسلحة، بدون نظام وبدون قيادة تقريبا، قد شكلت ما يشبه مؤخرة الجيش بمساعدة 40 فارسا قناصا بقيادة النقيب بيرنارد *Bernard*. كانت هذه الفرق تطلق نيران القناصة على العرب بشدة، وكان هناك عدد قليل من المدافع بقيادة ألود *Allaud* والملازم الأول باستوري *Pastoret*، تساند هؤلاء القناصة الشجعان، فكانت تطلق النار فوق رؤوسهم، فكان لهم بذلك الفضل الأكبر في عدم تحول انسحاب الجيش إلى فرار فوضوي. لكن عدد القناصة سرعان ما تناقص إلى أن وصل إلى 20 قناصا، فقد كان العرب قد أوشكوا مرة أخرى أن يقطعوا الطريق على عدد كبير من الفارين، فأمر النقيب بيرنارد عندئذ بإطلاق النار عليهم بشدة، فأرغمهم بذلك على التخلي عن غنائمهم. وكان رئيس أركان الجنرال ترزيل، العقيد موسيون *Maussion* قد شارك في كل هجمات الفرسان هذه ومات تحته ثلاثة أحصنة.

ومنذ هذه اللحظة أصبح في الإمكان مواصلة الانسحاب بسهولة أكثر، وبعد حين بلغت فرق الجيش الساحل، وأعاد مرأى مدينة أرزيو إلى الجنود شجاعتهم. أما العرب، الذين أتعبهم القتال الطويل وأثقلتهم الغنائم، فقد أخذوا يقللون شيئا فشيئا من هجماتهم، التي انتهت أخيرا في السادسة مساء. وبعد 16 ساعة من السير و14 ساعة من الاشتباكات بلغت الفرق مدينة أرزيو في الساعة الثامنة مساء.

كانت خسائر الفرنسيين في هذا اليوم الحزين 300 قتيل و200 جريح، وفقدوا إلى ذلك القسم الأكبر من تجهيزاتهم، ولم يأخذ العرب معهم سوى 17 أسيرا، كانوا باستثناء هؤلاء قد قطعوا رؤوس كل من وقعوا في أيديهم ومنهم عدد من الجرحى 40).

كان الأمير عبد القادر قد أظهر برجاله من العرب خلال هذه الغزوة القصيرة أن له قوة عسكرية، لم يعرفها الفرنسيون عنده من قبل، وقد دل على ذلك ما جاء في نهاية التقرير الرسمي، الذي قدمه الجنرال تريزيل وقال فيه: " في هذه المعركة رأيت تلك الآمال، التي كنت أعتقد أنني أستطيع أن أبني عليها، تختفي، على أنه كان من واجبي أن أنتصر حتى أستطيع

تحقيقها. لقد بالغت [illegible] بقوة العرب [illegible] معركة 26 من شهر يونية الماضي ، وكذلك جميع الأحداث العسكرية، التي شاركت فيها خلال السنوات الثلاث من إقامتي إفريقيا، تغفر لي هذه الآمال المبالغ فيها."

وأقامت فرق الحملة معسكرا قرب مدينة أرزيو سادته خلال ذلك فوضى كبيرة. وكانت تنتظر أن تهاجمها قوات الأمير عبد القادر بين لحظة وأخرى. كانت معنوياتها ضعيفة إلى حد كبير حتى. إن الجنرال تريزيل تصور أنه لا يمكنه أن يتجه إلى وهران عبر البر. ولهذا السبب أمر كل السفن، التي كانت راسية في المرسى الكبير بوهران وفي مستغانم، بالتوجه إلى أرزيو لحمل قواته هذه إلى وهران، وقد بين هذا الإجراء أكثر من الإجراءات الأخرى مدى فداحة الكارثة، التي حلت بهم 41). كان الحاكم العام، الكونت ديرلون، قد تسلم الرسالة، التي حدثه فيها الجنرال تريزيل عن خروجه إلى تليلات وطلب منه فيها جوابا حاسما حسب ما تتطلب ذلك الأوضاع القائمة. ولكن الحاكم العام تجنب الإعلان عن رأيه وبدا عليه أنه يريد أن يلقي المسئولية على مرؤوسيه. وكان كل ما فعله، هو أنه أرسل الرائد لاموريسير *Lamorciére* واليهودي ابن دوران إلى وهران لإجراء مفاوضات مع الأمير عبد القادر إن أمكن ذلك، وكان معهما القائد إبراهيم. وما كاد لاموريسير النشط، الذي كان قد سمع عند مروره بأرزيو بهزيمة الجيش، يصل إلى وهران، حتى جمع بمساعدة إبراهيم 300 مائة فارس من دواوير الزمالة والدوائر، وأسرع بهم بمرافقة الضابطين كافينياك *Cavaignac* ومونتوبان *Montauban* إلى أرزيو، التي كان الخيالة الفرنسية فيها لم تصعد بعد إلى الباخرة. وكانت نتيجة ذلك أيضا أن عاد الجنرال على رأس خيالته عن طريق البر، وكان من دواعي سروره أن يدخل وهران على الأقل من الباب، الذي كان قد خرج منه.

كان الأمير عبد القادر، الذي كانت له رغبة ملحة في تعويض ما خسره، قد توجه إلى معسكر وعادت القبائل إلى أوطانها.

وكاد الفرنسيون أن يرتكبوا أثناء هذه الأوضاع الحربية خطأ تزويد الأمير عبد القادر بالأسلحة والبارود ليحاربهم بها. فقبل أن ينتشر خبر خرق معاهدة الصلح في الجزائر. كانت هناك سفينة قد شحنت بالأسلحة والذخيرة لترسل إلى الأمير عبد القادر، وكان من المفروض أن تتوجه هذه السفينة إلى رشقون، ولكن الجنرال اليقظ تريزيل حال دون ذلك، إذ أرسل سفينة الحراسة من المرسى الكبير لإيقاف هذه الصفقة التجارية، التي كانت غير طبيعية.

لقد كلفت هزيمة المقطع الجنرال تريزيل قيادته في وهران، إذ كان عليه أن يتخلى عنها بأمر من الحاكم العام الجنرال ديلانج، الذي كان قد وصل إلى إفريقيا قبل ذلك بفترة قصيرة.

كان ابن دوران المكار قد سيطر على الجنرال ديرلانغ إلى درجة أنه أراد أن يقيم علاقة مع الأمير عبد القادر مهما كلفه ذلك، وهذه حقيقة، فقد كان الجنرال على استعداد للتضحية بحلفاء الفرنسيين الوحيدين في البلاد، وهم الدوائر والزمالة، من أجل هذه العلاقة مع الأمير. ولكن معارضة المجلس الاستشاري الحكومي، خصوصا معارضة الجنرال رابتيل *Rapatel*، والتأكيد على أن هاتين القبيلتين ستكونان تابعتين لفرنسا بصورة دائمة، حالت دون إتمام ذلك. وسمي القائد إبراهيم، الذي كان بعض الناس يعتبرونه من ألد أعداء الأمير، بناء على رغبته قائدا لهما. وأحاطوه زيادة ذلك بالأتراك، الذين كانوا قد بقوا في تلمسان عندما ترك هو هذه المدينة عام *1833*، فزحف بهذه الفرق وأقام معسكره قرب ميسرغين، غير أن قبيلة بني عامر سرعان ما أرغمته على أن يحتمي تحت مرمى مدافع وهران.

في هذا الوقت فقدت حامية وهران الفرقة الأجنبية، التي تنازلت عنها فرنسا لإسبانيا في صيف *1835*، وقد ساهم التقليل من عدد القوات الفرنسية بشكل أكبر في أن الحاكم لم يعد يضع نصب عينيه غير السلام.

لقد شعر الأمير، الذي اندهش هو نفسه لانتصاراته، أن مصلحته تقتضي ألا يتباهى كثيرا أمام فرنسا في هذه الظروف، التي رجحت فيها كفته، لذلك أظهر أيضا رغبته في المفاوضات، وأعلن أن ما حدث لم يكن سوى مسألة شخصية بينه وبين الجنرال تريزيل – وهي وجهة النظر، التي كان الحاكم العام شديد الميل إليها – وتمنى أن يبقى كل شيء على ما كان عليه قبل هذه القضية، غير أن المشهد سرعان ما تغير. فقد استدعي الجنرال ديرلون، وأظهر تعيين خلفه للأمير أن فرنسا عازمة على الانتقام لهزيمة جيشها في المقطع.

انتشرت أخبار انتصار الأمير وهزيمة الجنرال تريزيل في جميع أنحاء البلاد، وتنمق رجال الأمير في حديثهم عن ذلك، حتى إنهم تصوروا أن الفرنسيين عازمون على التخلي تماما عن ممتلكاتهم في إفريقيا. وبالغوا في هذا مبالغة كبيرة، فتحدث عرب منطقة الجزائر عن خسائر الفرنسيين، التي وصلت في نظرهم إلى *1500* قتيل و*600* جريح، و *27* مدفعا، غنمها العرب، وذكروا أن الجنرال تريزيل، الذي وقع في الأسر، أرغم على كنس اسطبلات الأمير في معسكر، وأشاعوا في النهاية أن وهران نفسها قد استسلمت.

وكانت هذه الإشاعات سببا في إثارة العداوة ضد السلطات الفرنسية، وشيئا فشيئا أصبح بالإمكان، وقد تفطن الأمير بذكائه إلى ذلك، إقناع العرب بأن النصر الذي حقق سيجبر فرنسا على بذل مجهودات جديدة. فهذه القوة، حتى وإن هي أظهرت في إفريقيا أشياء غير ثابتة ونقائص في الإجراءات المبرمجة، على استعداد دائم لغسل ما لحق بجيوشها من عار.

وزعت السلطات الفرنسية في المدن وبين القبائل في القرى الريفية مناشير تتحدث عن القيام بحملة كبيرة في وقت قريب، عينت لقيادتها مارشالا شهيرا. وعين بأمر ملكي بتاريخ *8* يونية المارشال كلوزيل حاكما عاما للجزائر خلفا للكونت ديرلون، ووصل إلى الجزائر في *10* من شهر أوت. قبل وصوله بيومين كانت القوات الفرنسية قد قامت بحملة ضد قبيلة حجوط، التي كانت قبل ذلك بفترة قصيرة قد قامت بعدة أعمال وقتلت من قتلت، وزرعت الخوف في منطقة الجزائر. فقد قام طابور يتكون من *1700* رجل بقيادة العقيد شوونبورغ **Schauenburg** بهجوم على قبيلة حجوط وقتل *13* رجلا من أفرادها وأخذ منها قطيعا من ماشيتها.

كان المارشال كلوزيل قبل وصوله قد أعلن أن الهدف من إرساله إلى إفريقيا هو محاربة الأمير عبد القادر والانتقام لمعركة المقطع. ولما كانت الكوليرا قد انتشرت في الجزائر وكان الفصل فصل الحرارة، فقد قرر أن ينتظر الخريف، ليطلب فيه وصول الإمدادات، التي وعد بها، وقوامها *12000* رجل، وإرسالها مباشرة إلى وهران عن طريق البحر.

كانت تقع من وقت لآخر اشتباكات مفردة دون أن تكون لها تبعات مهمة. وفي *29* من شهر أوت وقعت مناوشات بين كتيبة من قوات الأمير وبين حلفاء الفرنسيين من قبيلتي الدوائر والزمالة بقيادة إبراهيم، الذي قاوم مقاومة عنيفة، فأسرعت القوات الفرنسية إلى نجدتهم وأرغمت بمدافعها العرب على التراجع بعد أن ألحقت بهم خسائر معتبرة.

الفصل الثامن

كانت سياسة الحاكم العام تستهدف حينئذ إثارة النزاع بين العرب أنفسهم لإضعاف قوة الأمير عبد القادر عن طريق ذلك، ومحاولة إيجاد سلطات عربية أخرى منافسة لسلطة الأمير، خصوصا في منطقة الجزائر ومنطقة التيطري. كان الأمير قد عين قائدا على قبيلة بني سعد، بينما عين الحاكم العام قائدا آخر، هجم بمجموعة من أربعين فارسا على قائد الأمير وطرده ونزع منه منصب القائد نفسه. ولم يكن في وسع الأمير دائما أن يحول في ذلك الوقت دون وقوع مثل هذه الفوضى نظرا لبعد المسافة. وكان الحاكم العام قد عين في المدية أيضا بايا، هو محمد بن الحسين، وكان من المقرر أن ينصبه فيها فيلق قوامه ألفا رجل بقيادة العقيد شونبورغ ظنا منه بأن العرب لن يجرؤا على مقاومته. وفي السادس من أكتوبر وصل هذا الفيلق إلى ظهر جبل الثنية، الذي يعد من أصعب الممرات الجبلية في إفريقيا (الجزائر). وكانت طلائعه تتألف من بضع سرايا من الزواوة وكتيبة من فرسان القناصة. وما كادت تدخل الممر، حتى وجدت نفسها محاصرة من الأمام ومن الجانب من قبل مجموعات لا حصر لها. راحت تطلق عليها النار بكثافة. فنصح محمد بن الحسين الجيش الفرنسي بالانسحاب. فأمر العقيد شونبورغ بنفخ البوق إيذانا بالانسحاب. ولكن فصيلة من قناصة إفريقيا بقيادة النقيب برو *Bro* ، ابن الجنرال برو، كانت قد تقدمت داخل الممر حتى إنها لم تعد تستطيع سماع الإشارة، فوقعت لذلك في كمين نصبه لها العرب، الذين كانوا متخفين خلف الأدغال، وراحوا يطلقون عليهم النار القاتلة بغزارة. فقتل حصان النقيب برو تحته، وتلقى هو نفسه رصاصة في فخده، وسقط إلى جانبه مجموعة من رجاله في حين لاذ البقية بالفرار. عندئذ هجم عليهم العرب لقطع رؤوس قتلاهم . وكانوا سينجحون في ذلك لو لم يتلق النقيب غيار *Guillard*. وهو زميل وصديق للنقيب برو. إذنا من العقيد شونبورغ بمهاجمة العرب. ووصل في الوقت المناسب وقتل عربيا، كان قد جرد يتاغانه ليقطع رأس النقيب برو، الذي دافع عن نفسه بسيفه، رغم جرحه، أمام العديد من العرب، فتم إخلاء المكان من العرب من جديد وأنقذ الجرحى. ولكن العقيد شونبورغ، الذي جابه مقاومة شديدة، رأى أنه من سداد الرأي أن يتخلى عن تنصيب الباي في المدية، وعاد إلى الجزائر.

عندما سمع الحاكم العام بهذه الحادثة، حاول أن يجد تعويضا لخسارته ؛ فقام بهجوم مفاجئ على قبيلة عمرونة، التي رفضت الخضوع للسلطة الفرنسية، وألحق بها خسارة كبيرة.

وفي نفس اليوم، الذي وقعت فيه حادثة الثنية للفرنسيين، خرج الجنرال دارلانج من وهران لمهاجمة قبيلة الغرابة، التي كانت تعادي الفرنسيين وطلبت من الأمير أن يمنع وصول المؤونة إلى وهران عن طريق الجبال. فسار الجنرال إلى طريق عليتة، حيث التحق به إبراهيم مع أتراكه ومع العرب التحالفين مع الفرنسيين، فهجم هؤلاء على مخازن قمح43) الغرابة وأخذوا كل ما عثروا عليه. ولكنهم ما أن هموا بالانسحاب، حتى ظهر عدد كبير من محاربي هذه القبيلة، فوقعت معركة عنيفة، ولم تهزم قبيلة الغرابة ، رغم أنها كانت قد فقدت عددا من القتلى والجرحى، إلا بعد تدخل المدفعية الفرنسية.

كان الأمير عبد القادر في أثناء ذلك قد ضيق الخناق على مدينة وهران، وعندما ظهر الفرنسيون في المنطقة، هاجمهم وطاردهم حتى أسوار المدينة. كان الأمير قد رأى العاصفة تقترب منه فخاف على نفسه وعلى مدينته. ولكي يبعد أنظار الفرنسيين عن منطقة وهران، أمر قوات المقاومة بالقيام ببعض العمليات العسكرية في منطقة الجزائر. فقد أرسل أحد الشيوخ ، وهو الحاج الصغير، إلى قبيلة حجوط وطلب منها جمع عدد كبير من المحاربين للهجوم عل المعسكر الفرنسي قرب مدينة الجزائر. غير أن الجنران كلوزيل، الذي كان يلازم مكان عمله بصفة دائمة، خرج بنفسه لمحاربة القوات العربية في سهل المتيجة، وأمر في 7 من شهر أكتوبر بالهجوم عليهم. ووقعت في هذا اليوم ثلاث معارك دموية، تم خلالها التلاحم بالأسلحة البيضاء أكثر من مرة، وقتل الفريق راباتيل بنفسه عددا من العرب. وبعد مقاومة عنيفة، أرغم العرب على الانسحاب، إلى الجبال وأخمدت محاولة الحاج الصغير في مهدها.

وفي خلال ذلك بدأت الاستعدادات النشيطة في الجزائر وفي جنوب فرنسا على حد سواء للقيام بحملة على مدينة معسكر. وكان ولي العهد الفرنسي نفسه يرغب في المشاركة في هذه الحملة، فالتحق بمدينة تولون في *10* من نوفمبر ، وركب الباخرة والتقى بالمارشال كلوزيل في الجزائر، وفي *21* من الشهر نفسه وصل إلى وهران مع المرشال، الذي كان قد تلقى من فرنسا إمدادات عسكرية قوامها أربع كتائب من المشاة ومدفعية معتبرة. وأرسلت زيادة على ذلك إلى بعض الفرق المقيمة في الجزائر إلى وهران ، فوصل عدد الحملة إلى ما يزيد عن *10.000* رجل إلى جانب *26* مدفعا. وقد قسم إلى *4* ألوية بقيادة الجنرالات أودينو. وبيريغو *Perregaux* ، ودارلانج، والعقيد كومب *Combes*-قائد كتيبة المشاة *47*. وكانت قوات

الاحتياط بقيادة الملازم الأول بوفور. واجتمعت الفرق أمام وهران في منتصف شهر نوفمبر، وكانت إحدى الفرق قد احتلت معسكر الكرمة.

دعا الأمير عبد القادر بدوره رجاله إلى حمل السلاح، وأمر الدواوير العربية القريبة من وهران بالانسحاب إلى جبال الأطلس لتكون نساؤهم وقطعان ماشيتهم وأملاكهم في أمان، وبذلك أصبحت مسافة كبيرة في نواحي وهران خالية من أهلها.

وكان مكان تجمع المحاربين العرب، كما جرت العادة في أيام الحرب، على ضفاف نهر سيق، الذي كان الأمير عبد القادر قد أقام معسكره فوقها. وقد قدم له حضر المدينة سرا مساعدات مالية وتآمروا بجميع الطرق والوسائل على سلطة الفرنسيين، الذين كانوا يحملون لهم كراهية شديدة.

وأرسل ملك المغرب إلى الأمير ، الذي كانت تربطه به صداقة متينة، بعض الضروريات الحربية كالأسلحة والبارود، حملت السفن بعضها إلى الخليج المقابل لمدينة تلمسان. كان الفرنسيون قد احتلوا هناك جزيرة رشقون، ولكنهم كانوا عاجزين عن منع السفن من الوصول إلى الشاطئ. ووجه الأمير نداءات إلى الشعب ليحثه على الدفاع عن الوطن، وسلح من لم تكن لهم أسلحة، ووزع عليهم الذخيرة، ووضع مدفعيته السيئة فوق المضائق الجبلية، التي تؤدي إلى معسكر، ووعد رجاله بالنصر حتى وإن اضطرهم المسيحيون في البداية إلى التراجع. وقام في 24 و25 بمعاينة الجانب الآخر من نهر تليلات وأظهر نفسه لرجاله وهو دوما أكثر نشاطا وعزما كلما اقترب منه خطر الحرب. وفي 26 اجتمعت القوات الفرنسية في الكرمة، وفي يوم 27 توجه اللواء الأول بقيادة الجنرال أودينو إلى تليلات، يتقدمهم إبراهيم باي بمن معه من أتراكه وعربه. وفي يوم 28 تقدم إبراهيم ميلين آخرين في اتجاه غابة مولاي إسماعيل، وسارت الفرق كلها في اليوم نفسه إلى تليلات. وفي يوم 29 زحف الجيش الفرنسي في السابعة صباحا على الترتيب الآتي: اللواء الأول، ويليه الموكب بين اللواء الأول واللواء الثاني، وخلفه قوة الاحتياط ، وفي الأخير اللواء الرابع، الذي يشكل مؤخرة الجيش.

وقطع الجيش غابة مولاي إسماعيل، التي كانت فيها للجنرال تريزيل معركة خطيرة مع الأمير عبد القادر، دون أي اشتباك مع القوات المعادية له، ولكن أفراده تذكروا طبعا المعركة الحربية الأخيرة، فقد أمر المارشال بدق الطبول وعبر الجنرال أودينو عما كان يشعر به بكلمات كانت قصارا،ولكنها كانت قوية مؤثرة، ومر فوق المكان الذي سقط فيه أخوه 44) بشجاعة وهو يسير في مقدمة فرقته.

وصل الجيش إلى نهر سيق دون أن تبدي المقاومة أخرى غير طلقات للإبل، صدرت عن قبيلة بني عامر، التي كانت على ميمنتها. وقد عانى الجنود من قلة المياه الصالحة للشرب، لندرتها في هذه المناطق. فكان لا بد من التوقف قرب نهر سيق، إذ كان على الجيش ابتداء من هذا الموقع أن يتوقع عوائق خطيرة، ولذلك طلب المارشال العقيد لامورسيير من هيئة الأركان أن يضع مخططا لإقامة معسكر منيع في الضفة اليمنى من النهر، يتسع لكل المعدات وتستطيع الدفاع عنه حامية من 1000 رجل وصد أي هجوم يمكن أن يتعرض له. وقد دل هذا الإجراء الحذر على أن المارشال لم يكن يستهين بقوات الأمير عبد القادر، وإنما كان يقدرها حسب ما كان لها في واقع الأمر من مكانة واعتبار.

وأقام الجيش الفرنسي في معسكر كبير مربع الشكل، يتوسطه الموكب وقوات الاحتياط، بينما أقامت طليعته في الضفة اليمنى من النهر، وعلى جانب الضفة نفسها من نهر سيق أقام عن يمين الفرنسيين 4000 آلاف محارب من قوات الأمير عبد القادر، تحمي ظهورهم جبال الأطلس. وكانت مهمة هذه القوات الهجوم على الفرنسيين من الميمنة والخلف عندما يدخلون الممرات الجبلية، بينما يهاجمهم الأمير عبد القادر من الأمام بمن بقي معه من جيشه. لذلك اتخذ موقعه قبالة الفرنسيين، وتراجع قليلا نحو الجبال ليصدهم عن المدخل القصير المباشر إلى معسكر.

كان الأمير عبد القادر قد اختار مواقعه بصورة جيدة بحيث لا يستطيع الفرنسيون، ولو كان قائدهم جنرالا نشيطا صاحب خبرة واسعة، أن يحتلوا عاصمته دون أن يلحق بهم خسائر كبيرة من القتلى والجرحى.

سار المارشال في الأول من شهر ديسمبر في الساعة الواحدة بعد الظهر برفقة الدوق دورليان، على رأس جيش قوي يمثل مختلف الأسلحة متجها نحو المعسكر العربي على مقربة من قروف، لكن هذا المعسكر تم رفعه بسرعة فائقة، حتى إن العرب أضاعوا قسما من خيامهم، التي حاولوا نقلها بسرعة إلى الجبال، ثم صمدوا بعد ذلك، وكان عددهم يزداد بشكل مستمر حتى وصل في النهاية إلى 6000 آلاف فارس مع جموع من المشاة، أحاطوا بالقوات الفرنسية، واشتبكوا معها حوالي 5 ساعات. وقد أظهر العرب كثيرا من الشجاعة والصمود، حتى إنهم كانوا يقتربون أحيانا من مرمى مدافع الفرنسيين. ويفضلون السقوط في ميدان المعركة على التراجع إلى الوراء. وفي الساعة السادسة مساء عاد الجيش الفرنسي إلى معسكره قرب نهر سيق، وقد كانت خسائره عددا من القتلى و43 جريحا. وكانت خسائر

العرب أكبر من ذلك بكثير بسبب ما انصب فوق رؤوسهم من نيران المدافع الفرنسية. وقرر المارشال أن يكون اليوم الثاني من شهر ديسمبر يوما يستريح فيه الجنود. وفي اليوم الثالث منه سار الجيش كله وعبر نهر سيق فوق جسرين، كان المهندسون الفرنسيون قد أقاموهما في أثناء ذلك. كان القسم الأكبر من العرب، الذين انهزموا قرب قروف، قد انسحبوا إلى الجبال، التي تفصل معسكر الفرنسيين عن مدينة معسكر، وانضموا إلى بقية قوات الأمير. فرأى المارشال، الذي لاحظ ذلك، أنه، إن هو أخذ الطريق المباشر إلى معسكر، سيكون لديه كثير من الجرحى من أفراد جنوده، يصعب عليه إلى حد كبير نقلهم أثناء زحفه نحو مدينة معسكر ، لذلك قرر التخلي عن هذا الطريق، واتجه إلى مستغانم، فتجنب بذلك مواقع الأمير عبد القادر في الجبال.

تحرك الجيش الفرنسي في السابعة صباحا من يوم 3 ديسمبر، وتلقى الجنرالات الثلاثة، أودينو وبيريغو ودارلانج، أمرا بتنظيم ألويتهم على شكل فصائل والسير بمقدماتها على نفس الارتفاع، وجعل المدفعية، والجمال، وعربات النقل، والركب في مكان يحتل ما بين الطوابير. وكانت مهمة اللواء الرابع بقيادة العقيد كامب حماية مؤخرة الجيش والاهتمام بتنظيم كل ما يتصل بسير الركب بشكل خاص. كانت طريقة السير هذه هي الطريقة الوحيدة المناسبة لمسافة الأميال السبعة ، التي كان على القوات الفرنسية أن تقطعها قبل الوصول إلى وادي الهبرة. في التاسعة صباحا قام 3000 آلاف فارس عربي بمهاجمة مؤخرة الجيش. كما قامت فرق أخرى ما بين 1000 و1200 رجل بمهاجمة ميمنة الجيش في الوقت نفسه، ولكن ذلك لم يحل بين الفرنسيين وبين مواصلة زحفهم. ولما رأى الأمير عبد القادر أن الجنرال كلوزيل لم يسلك الطريق المباشر إلى معسكر، حاول أن يهجم على الجيش الفرنسي بقواته الرئيسية من خط الجبهة ليجتاز قبلهم معبر وادي الهبرة، وقام جيشه بهذه الحركة في ميمنة الفرنسيين. ولم يترك المارشال كلوزيل هذه اللحظة، التي كان ظهور العرب فيها ظهورا قويا، تمر دون أن يستغلها. فقد أمر لوائي بيريغو ودارلانج بتغيير خط الجبهة نحو الميمنة، وعندما بدأ يسيران بسرعة في اتجاه جبال الأطلس مباشرة، أمر بسحب ثمانية مدافع إلى خط الجبهة، وبعد نصف ساعة كان الميدان الممتد حتى جبال الأطلس قد خلا من العرب تماما.

كانت الفائدة، التي جناها المارشال من هذه المناورة، مهمة جدا، لأنه قسم بذلك جيش الأمير عبد القادر إلى قسمين، فقد أدى ذلك إلى تأخر قبيلة بني عامر الكثيرة العدد كما أدى إلى تأخر بعض القبائل الأخرى. ولما رأت نفسها قد انفصلت عن الأمير، ولم يعد في وسعه هو

ان يصدر إليها أوامره ، وكانت فوق ذلك قد عانت كثيرا من معركة ذلك الصباح ومن معركة أول ديسمبر قرب قروف، شعرت بالتعب، الذي نال منها ما نال، وانسحبت من المعركة والتحقت بالجبال. وكان الأمير عبد القادر في أثناء ذلك قد وصل معبر وادى الهبرة، واستطاع أن يحتل الغابة وما يقع قبلها من ممرات ما وسعه ذلك إلى جانب مسجد سيدي مبارك. وأقام زيادة على ذلك خمسة مدافع فوق الجبال وأخذ، بمجرد ظهور طلائع الجيش الفرنسي، يطلق عليها نيرانا بطيئة، ولكنها كانت بفضل الموقع الخاص، الذي كان فيه، مصوبة تصويبا محكما. كانت المعركة التي انطلقت في هذا المكان مدمرة، وقد أظهر العرب بقيادة الأمير نفسه من الثبات والصمود في الدفاع عن أنفسهم ما أظهره الفرنسيون خلال هجومهم العنيف من شجاعة لم يكن من السهل بحال من الأحوال مقاومتها.

حين ارتفع الصياح " إلى الأمام *en avant!* "، اندفع الجنود قُدُما واحتلوا بالحراب موقعا بعد آخر. فتلقى الجنرال أودينو رصاصة في فخذه الأيمن، وأصيب أيضا الدوق دورليان، الذي كان قد شارك في هجوم الخيالة وأبى أن يرفق بنفسه في أية مناسبة من المناسبات. برصاصة ضعيفة في فخذه. واضطر العرب كلهم إلى التخلي عن مواقعهم، وفي الساعة السابعة مساء أقام الجيش الفرنسي معسكره في وادي الهبرة . وفي الليل أقامت فرق المهندسين الفرنسيين جسرا للمشاة، وفي 4 من شهر ديسمبر انتظم الجيش كل عند مطلع النهار فوق الضفة اليمنى. ولم يظهر من العرب سوى بضع مئات من الفرسان، تمكنت طلقات من سلاح المدفعية من إبقائهم بعيدا عنهم. وحين شرع الطابور في سيره بانتظام، وأخذ المارشال طريقه في اتجاه مستغانم، وصاح العرب ساخرين خلف الفرنسيين : " طريق السلامة ! "، أصدر فجأة أوامره بتغيير اتجاه طلائع اللوائين الأولين (كان الجنرال ماربو **Marbot** من حاشية الدوق دورليان قد تولى قيادة لواء الجنرال أودينو) نحو اليمين والسير قدما نحو مدينة معسكر. وقام الأمير عبد القادر،الذي كان يراقب تحركات الفرنسيين، بعدة هجمات، غير أن الأمر بالسير نحو مدينة معسكر كان قد ملأ نفوس الجنود الفرنسيين بالحماسة والحمية ، فكان لا بد من العدول عن كل شيء في تلك الآونة. فضرب المارشال معسكره قرب المرابط سيدي ابراهيم. ولم تحدث أثناء الليل أية معركة. وللوصول إلى معسكر كان على الجيش الفرنسي أن يقطع أربعة أميال في جبال، تزداد على الدوام اتساعا ووعورة، ولكن نظام السير، الذي كان المارشال قد أمر به، مكنه من عبور الممرات دون حدوث معركة حقيقية. وفي 5 من شهر ديسمبر تحرك الجيش من سيدي مبارك، وحاول رجال قبيلة بني مغران في موقع أجادوا في

اختياره بمضيق بني شقران الحيلولة دون مواصلة الجيش لسيره، ولكن الرائد لامورسيير دحرهم بفرقة الزواوة وبسرية من رماة الرمانات التابعة لكتيبة المشاة الثانية ، وكان هذا الاشتباك آخر اشتباك وقع قبل الوصول إلى مدينة معسكر نفسها. وتقدم إبراهيم باي ولواء الجنرال بيريغو إلى أن بلغا منابع وادى العين الكبيرة، أما الفرق الأخرى والموكب فقد عسكرت إلى الوراء عند سفوح الجبال.

وفي 6 من شهر ديسمبر زحف الجيش الفرنسي، وعند الوصول إلى منطقة البرجية سار المارشال والدوق دوليان في مقدمة اللواء الأول بقيادة بيريغو، وبعد أن انضم إليهم لواء الجنرال ماربو، أخذوا طريقهم في اتجاه مدينة معسكر ودخلوها في الخامسة مساء.

كان الأمير عبد القادر، الذي أدرك في معركة سيدي مبارك استحالة إنقاذ مدينته من الفرنسيين، قد انسحب خلف المدينة واتجه إلى قبيلة هاشم، وأخذ معه سكانها من المسلمين. وهكذا لم يجد فيها الفرنسيون من سكانها سوى 600 أو 800 من اليهود وكان هؤلاء في أسوأ حال، لأن فرقة من جيش الأمير كانت قد سلبتهم أمواله وممتلكاتهم وأحرقت عدة أماكن في الدينة بحيث تحول فيها عدد من الدور والدكاكين إلى رماد. وكان على المارشال أن يتخلى عن مشروعه في تعيين إبراهيم بايا على مدينة معسكر، وذلك بسبب الوضع، الذي ساد المدينة بعد ما أن غادرها سكانها ـ حتى من تبقى من اليهود طلبوا من الفرنسيين السماح هم بالذهاب معهم ـ من جهة ، وبسبب صعوبة الاتصال بالساحل على نحو سريع وملائم من جهة أخرى. ولما اتضح ذلك لإبراهيم، طلب من المارشال أن يعينه مع أتراكه على مستغانم، التي كان فيها سابقا، فهي مكان حصين، يسهل عليه الدفاع عنها وفي وسع الفرنسيين إنقاذها إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

أعطى المارشال كلوزيل قواته ثلاثة أيام تستريح فيها في معسكر ونواحيها، في الوقت التي جرت فيه محاولة تدميرها عن طريق وضع ألغام البارود طورا وإشعال النيران طورا آخر، فالتهمت النيران كثيرا من مخازن الحبوب والملح والبارود والكبريت. ووقعت في يد الفرنسيين المدافع الجبلية، الذي كانوا قد فقدوها في معركة المقطع السابقة، فاستولوا على 22 مدفعا، عثروا عليها أمام خنادق المدينة وأمام منزل الأمير، وقد تم نسف منزله هذا.

غادر الفرنسيون مدينة معسكر في 9 من شهر ديسمبر، وسلكوا الطريق، الذي يؤدي مباشرة إلى مستغانم، فوصلوها في 12 ديسمبر من غير أن تعترض زحفهم اضطرابات خاصة،

ولكنهم عانوا من صعوبات ومتاعب كثيرة عندما تحتم عليهم أن يعبروا جبال الأطلس، التي كادت الأمطار المتهاطلة بدون انقطاع تحول بينهم وبين صعودها.

لم تكن لهذه الحملة، كما برهنت الأيام على ذلك، نتائج مهمة جدا من الناحية السياسية، ولكنها لم تخل من أهمية من الناحية العسكرية، فقد قاد عملياتها قائدان جادان ماهران. فعندما يلقى المرء نظرة على الخارطة، يستطيع أن يتتبع في وقت قصير حملات الجيشين. فقد جمع الأمير عبد لقادر جيشه في نهر سيق، لأنه النقطة الحقيقية، التي يبدأ منها دفاعه نظرا لما لهذا المكان من ملاءمة لذلك ، فقد ترك هنا جيشا قويا، يهاجم الفرنسيين عند تقدمهم من الخلف كما يهاجمهم من الميمنة. أما هو نفسه فقد جعل موقعه في ممرات الجبال على الطريق الذي يقود إلى مدينة معسكر، وأقام مدفعيته فوق أهم الممرات في المنطقة. وما أن رأى أن المارشال قد اتخذ طريقا آخر، حتى اندفع بسرعة لا تصدق، واحتل الممر الخطير عند سيدي مبارك، وهو يقود معه خمسة مدافع لم يتم تركيبها بشكل جيد. ومن هنالك تصدى للفرنسيين لمنازعتهم على الممر، إلا أنه كان عليه أن يتراجع أمام ما كان للأسلحة الفرنسية من تكامل كبير فيما بينها، وهذا بعد أن حاربهم بمهارة وصمد في وجوههم فترة من الزمن. لقد حاول بجيشه المهزوم أن يحول بين أعدائه وبين التقدم عن طريق الهجمات المتكررة، ولما لم يتم له ذلك كما أراد، انسحب عبر مدينة معسكر وأسلمها للنيران آخذا معه سكانها من المسلمين. وعلى هذا النحو ترك للفرنسيين عاصمته كما ترك لهم الروس تقريبا موسكو عام *1812*.

وكان المارشال كلوزيل على الجانب الآخر قد برهن على موهبته بصورة فائقة، وذلك عندما قاد حملة عبر منطقة لا يعرف عن طبيعتها إلا الشيء القليل، ولم تكشف له نظرته الحادة المحنكة خباياها إلا في عين المكان. فقد تقدم حتى نهر سيق، الذي كان في الواقع قاعدة عملياته، وهناك كون جيشه لمواصلة الزحف، وأمر بالاستراحة مدة يومين، استغل منهما يوما لمهاجمة القوات العربية، التي كانت قد أقامت معسكرها على ميمنته لتهدده من الخلف عندما يواصل زحفه، وإلحاق الهزيمة بها. وبعد هذا الاشتباك سار بكل قواته في الطريق المؤدى إلى تلمسان تجنبا لمواقع الأمير عبد القادر الحصينة في تلك الجبال. وما كاد الأمير يتجه إلى وادي الهبرة ليشله قبل الفرنسيين، حتى هاجمه في الحين نفسه وقام بمناورة تنظيمية ماهرة، قسم بها جيش الأمير إلى فيلقين. وبعد ذلك احتل بالقوة مسجد سيدي بارك وألحق بخصمه هزيمة معتبرة ، وعبر وادي الهبرة، وتظاهر بأنه في طريقه إلى مستغانم، لكنه استدار يمنة على حين غرة، وهاجم العرب وردهم على أعقابهم، وزحف مباشرة على مدينة معسكر، واستولى عليها دون مقاومة.

كانت النتائج السياسية لهذه الحملة، كما سبق القول، قليلة الأهمية. على أن سقوط مدينة معسكر في أيدي المسيحيين ترك انطباعا سيئا في نفوس العرب ودفع الأمير عبد القادر، الذي تأبى عليه طبيعته وحيويته الخلود إلى أي نوع من أنواع الراحة، إلى إن يعد العدة لمهاجمة الفرنسيين ومطاردتهم عند انسحابهم من معسكر. كان يعرف أخيلة مواطنيه المتقدة ويعرف الثورة التي تعتمل في نفوسهم عند وقوع حادثة من الحوادث، لم يكونوا لما هم عليه من عصبية يعتبرونها من الحوادث الممكنة. ثم إن فيالقه كانت قد تكبدت في المعارك المختلفة خسائر فادحة، وكان من شأن كل معركة تطول مدتها أن تجعلها معرضة للإنهاك التام. كانت خطة انسحابه إلى قبيلة هاشم، التي كانت مهد سلطته، ملائمة للوضع، الذي كان فيه. فقد كان الغرض منها أن يجمع حوله من يدينون له بالطاعة والولاء وأن يظهر أمام بقية القبائل العربية بكل ما له من سلطة وقوة ونفوذ. لم يكن يريد الدخول إلى عاصمته معسكر، التي أصبحت في نظره مدينة، دنست جوانبها وأرجاؤها ، ومن ثم قرر أن يبني لنفسه مدينة جديدة في أرض غير ممهدة داخل جبال الأطلس، تستطيع أن تصد عنها الجيوش الفرنسية. واستغل زيادة على ذلك مناسبة عيد الفطر، الذي كان على الأبواب، ليخطب في العرب ويحافظ بذلك على نفوذه الفكري لدى القبائل المختلفة. وتخلى بعض الشيوخ، الذين كانوا في السابق أعداءه، عن قضيته، ولكنهم لم يستطيعوا حمل قبائلهم على أن يفعلوا فعلهم ويتخلوا بدورهم عن مساندته والوقوف إلى جانبه. ولم يعلن خضوعهم له إلا أولئك الذين كانوا معرضين مباشرة لحملات القوات الفرنسية. على أن هذا الخضوع لم تطل مدته، فقد اضطرتهم الحاجة إلى رفضه بصرة قاطعة. كان خصمه المزاري، باعتبار ما كان له من مهارة وشجاعة في الحرب، أهم شخصية تخلت عن الأمير عبد القادر وتولت مناصب هامة في الجيش الفرنسي، إذ أصبح خليفة الباي إبراهيم، وعين زيادة على ذلك أغا عرب مستغانم. وجعله المارشال كلوزيل، الذي عرف مقدرته ومواهبه ومزاياه ، قائدا للإمدادات العسكرية العربية، التي كان يريد ضمها إليه في حملة كان يريد القيام بها ضد مدينة تلمسان، التي كان محاصرا بها خال المزاري، الشيخ العجوز مصطفى بن إسماعيل، واستطاع صد كل الهجمات، التي قام بها الأمير ضده.

في *18* من شهر ديسمبر كانت القوات الفرنسية كلها قد عادت إلى وهران، وبعد أن استراحت من تعبها، أعد المارشال فيلقا جديدا قوامه *6200* رجل، وذلك ليقوم بحملة في القسم الغربي من المقاطعة، ويظهر للقبائل فيها قوة الفرنسيين، ويحتل مدينة تلمسان، التي يتمركز بقلعتها حلفاؤهم . وكان الدوق دورليان، الذي عانى كثير من الشرور، التي تصاحب حملات من هذا النوع في إفريقيا، قد انتقل عن طريق البحر إلى مستغانم ورجع منها إلى فرنسا.

الفصل التاسع

في *8* من شهر يناير *1836* ترك المرشال كلوزيل وهران على رأس فيلق صغير مقسم إلى ثلاثة ألوية، يقودها الجنرالات بيريغو ودارلانغ والعقيد فيلموران ***Villemorin***. وكان الوقت وقت الخروج إلى جبهة القتال، لأن الأمير عبد القادر كان قد بدأ ثورته عليهم من جديد، ولم يجد المزاري من يقلده في انفصاله عنه سوى عدد قليل. صحيح أن أبناء سيدي العريبي كانوا قد كتبوا إلى إبراهيم وأخبروه أنهم يريدون أن ينفصلوا عن الأمير، ولكن تصرفاتهم لم تكن تدل على ذلك بشكل قاطع. وكان كراغلة القلعة قد أرسلوا وفدا إلى المارشال، ووافقوا على القائد الذي أرسله إليهم، غير أن الأمير عبد القادر، الذي كان قد وصله خبر ذلك، أرسل قبيلة بني شقران لمحاربة الكراغلة وإخراجهم من المدينة. والواقع أنه لم تكن هناك من حركة جادة ضده إلا في الغرب، إذ استطاع هناك أولاد سيدي الغماري أن يثيروا عليه عددا من قبائل الأنجاد في الصحراء. وكان هؤلاء الشبان على أهبة مهاجمة تلمسان ومحاصرة قلعة المشور، حين انتشر خبرهم، فبادر الأمير، الذي كان يقيم آنئذ في سهل مليتة على بعد ستة أميال من وهران ويضايق انطلاقا منها قبائل الدوائر والزمالة، إلى تلمسان، التي كان الأنجاد لا يبعدون عنها إلا ببضعة أميال. وعندما اقترب من المدينة، خرج إليه مصطفى بن إسماعيل على رأس الأتراك الكراغلة، ولكن الأمير دحره وقتل سبعين رجلا من أتباعه. وسار بعد ذلك لمحاربة عرب الأنجاد، وهزمهم هزيمة كبيرة، قتل فيها ابن الغماري الأكبر. وبعد هذين الانتصارين دخل الأمير تلمسان وأخلاها ، لأن المارشال كان قد اقترب منها عندئذ، وأخذ معه كل سكانها المسلمين، ولم يحاول عرقلة زحف الفرنسيين، الذي تم على الوجه الآتي تقريبا: كان المارشال قد وصل في *9* من شهر يناير الوادي المالح أو ***Rio Saldo***، وعبر وادي يسر في الثاني عشر منه، وضرب فيلق الحملة كله خيامه قرب وادى أمغين الصغير، الذي يجرى على بعد ثلاثة أميال من تلمسان. وكان في الإمكان من هناك رؤية الدخان المتصاعد من معسكر الأمير والعرب والحضر.

وفي الثالث عشر أمر المارشال بتحرك جيشه وعبر وادي الصفصاف، والتحق به على ضفافه العجوز مصطفى بن إسماعيل، يحيط به الأتراك من أعيان قلعة المشور وشيوخ قبيلة

الأمجاد. ولقد اختلط بألبستهم الشرقية بهيئة أركان الجيش الفرنسي. وفي وسط هذه الكتلة الملونة دخل المارشال كلوزيل تلمسان، وأطلقت المدافع من قلعة المشور تحية له.

ولكن الأتراك والأنجاد كانوا في أثناء ذلك قد هجموا على القسم الأسفل من المدينة بمجرد خروج الأمير منها وسلبوها ونهبوها. واستولى الفرنسيون على أقسامها المختلفة، وجهز المارشال نفسه للإقامة فيها فترة طويلة، فكان لهذه الإقامة الفضل في القضاء على هذا الموقع الجميل بصورة تامة!

وفي 15 من شهر يناير أمر المارشال بخروج لوائين بقيادة الجنرال بيريغو للهجوم على معسكر الأمير، الذي كان يقع، كما سبق القول، قرب قرية صغيرة تدعى لجباح على بعد بضعة أميال شرق المدينة، والالتفاف حوله. وعندما وصل اللواء الأول إلى القرية علم أن الأمير كان قد سار في الليل وهو الآن في طريقه إلى مدينة معسكر. ولذلك أسرع الجيش الفرنسي في سيره واستطاع بعد مجهودات كبيرة اللحاق بمشاته وفصل الأسر الحضرية عنه. والفضل في نجاح الفرنسيين في هذا اليوم يعود إلى الرائد يوسف 45) ". الذي تقدم القوات الفرنسية بالحلفاء العرب وفصل خيالة الأمير عن مشاته.

ولم يرافق الأمير عبد القادر أثناء فراره سوى بضع مئات من رجاله، ويبدو أنه قد تعرض هو نفسه لخطر فصله عن رجاله من قبل يوسف، الذي كان خلفه الرائد ريشبانتس Richepanse (46 والنقيبين توماس Thomas ودي فيبير de Villiers مع دورية تتكون من 50 فارسا عربيا. ويقال إن يوسف هذا، الذي كان على الدوام يسبق قوات الأسلحة الخفيفة، وضع الأمير نصب عينيه بصورة مستمرة، ويعود الفضل في إنقاذه منه إلى حصانه السريع. وبعد خمس ساعات من الركض السريع تعبت الخيول وتوقفت المطاردة.

عادت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال بيريغو يوم 17 إلى تلمسان، وقادت معها ما بين ألفين وثلاثة آلاف من العرب والحضر من مختلف الأعمار من الرجال والنساء.

لقد وجد المارشال كلوزيل في تلمسان ونواحيها ما يكفي من تموين جيشه الصغير مدة طويلة، بحيث كان في وسعه تنظيم شؤون البلاد في أجواء ملائمة. كان هناك فائض من قطعان الماشية والحبوب والزيت والزبدة والزيتون والخضر والعلف وغير ذلك مما سهل عليه عملية التموين بصفة منتظمة.

كان حضور الفرنسيين نحسا على المدينة، التي كانت تزدهر فيها صناعة الأنسجة القطنية والصوفية إلى جانب الطرز بالذهب. فعندما حضر الشتاء ببرده المفاجيء مصادفة، اتخذت

مئات من المناسج حطبا للتدفئة، وقلعت الدوالي الفاخرة، التي كانت أوراقها تلقي بظلالها على الشوارع في مواسم الحر، وألقي بها طعاما للنيران. وعندما قيل للمارشال أن السكان، الذين لحقهم الدمار، كانت لهم أملاك كثيرة، فرض عليهم ضريبة تقدر بمليوني فرنك فرنسي، ولما أعلنوا أنهم غير قادرين على جمع هذا المبلغ، ألقى بأعيان الحضر واليهود، بل حتى بأعيان حلفائهم من الأتراك، في السجن. وكلف يوسف ومصطفى بن إسماعيل واليهودي الوهراني لاصري Lassery بجمع الضرائب، فنفذوا ذلك بصرامة حتى إنهم استعملوا الفلقة في تحصيل هذه الضرائب.

و بالرغم من ذلك لم يتجاوز ما تم جمعه نقدا 35,000 إلى جانب عدد كبير من الحلي والأحجار الكريمة، التي انتزعوها غصبا من النساء، كانت قيمتها كلها 94,000 فرنك. ولما رأى المارشال أن هذا الإجراء لن تكون له أية نتيجة ، تخلى عن طلبه في مقابل ضريبة سنوية قيمتها 200,000 فرنك فرضها على بايليكية تلمسان الوهمية. وهكذا انتهت هذه المسألة التعيسة، التي لم تعالج بطريقة مناسبة للإكثار من أصدقاء الفرنسيين في البلاد.

لم يكن في نية المارشال الاستيلاء على مدينة تلمسان فقط، وإنما كان يريد أيضا ربط هذه المدينة بالبحر وذلك بواسطة الطريق المؤدي إلى مصب نهر التافنة مباشرة قرب جزيرة رشقون، التي كانت بحوزة الفرنسيين، ولكنه لم يوفق في هذا القسم الأخير من الحملة، كما يتبين مما يلي. ففي 23 من شهر ي يناير خرج الرائد دي غوي Du Gouy على رأس كتيبة وعدد من المهندسين للتعرف على النقطة، التي يلتقي فيها وادي التافنة بوادي يسر. وفي 25 منه ترك المارشال نفسه تلمسان بسريتين وستة مدافع، وسار في الاتجاه نفسه ليبلغ إن أمكن ذلك الساحل، حيث كان يريد في الوقت نفسه إرسال مرضاه من الجنود بالباخرة. وكان قد أمر لهذا الغرض بحضور عدد من السفن إلى رشقون. وكانت المنطقة، التي كان على المارشال قطعها، تعترضها الجبال والهوى السحيقة، تجعل المرور منها في غاية الصعوبة. يضاف إلى ذلك أن المنطقة كانت تسكنها قبائل محاربة، كانت على أهبة الاستعداد بمساعدة المحاربين المغاربة للقيام بكل شيء لمنع الفرنسيين من المرور عبر ديارها. كان الأمير عبد القادر قد أقام بمساعدة المغاربة خطا دفاعيا برئاسة القائد بن نونة. وما أن دخل الفرنسيون تلك الممرات، حتى أطلقت عليهم نيران البنادق بقوية وبصورة متواصلة، إذ كانت القبائل قد استولت على كل فجوة جبلية، وكان عددها يزداد كلما تقدم الفرنسيون في تلك الممرات. ووقعت هناك معركتان شديدتان في 26 من شهر يناير، انسحبت بعدها القبائل إلى موقع تم اختياره بشكل

جيد، يقع عند ملتقى نهر يسر والتافنة، ويغطيه عدد من الصخور، كانت بمثابة جدران تحول دون تقدم الفرنسيين. وفي صبيحة يوم 27 قامت قوات الأمير عبد القادر بهجوم عام على القوات الفرنسية، التي كانت لا تزال معسكرة في سهل التافنة، ووثبت خيالته إلى أسفل وراحت تهدد الفرنسيين من الخلف، وفي الوقت نفسه نزل المشاة من الميمنة بشجاعة نادرة من صخرة إلى صخرة وأمطروهم بوابل من الرصاص تحية لهم. فكان على الخيالة الفرنسية والمتحالفين معها من العرب التراجع أمام الفرسان العرب، الذين هجموا عليهم هجوما عنيفا. لم ير الفرنسيون مثله عند هجومهم على المعسكر. لكن النقيب جيرار *Gerard* . قائد فرقة المشاة، استطاع بشجاعته ورباطة جأشه أن يصد تلك القوات المهاجمة ويبدد صفوفها الكثيفة برصاص المدفعية.

لم يكن المارشال يتوقع أن تقاومه القبائل مثل هذه المقاومة، فحتم عليه ذلك أن يغير خطته، وسار في اتجاه تلمسان في يوم 28 من الشهر، وواصل حوالي 1000 من الفرسان العرب مطاردة الفرنسيين أثناء انسحابهم حتى غابة حانية الصغيرة، وعندئذ أطلقوا العديد من العيارات النارية تعبيرا عن انتصارهم. وعندما عرف المارشال كلوزيل مدى أهمية موقع تلمسان للسيطرة على الوضع في المنطقة من جهة، ولأهمية الحركة الصناعية والتجارية فيها وما في نواحيها من ثروة، ولموقعها على بعد ثمانية أميال من المغرب من جهة أخرى، قرر تعيين باي بها وترك حامية فرنسية في قلعتها المشور. وعين مصطفى بن مكالش، ابن أحد الشيوخ، في 5 من شهر فبراير بايا بها، بينما عين سيدي حميدي بن سكال قاضيا. وعين النقيب المهندس الحنك كافنياك قائدا للحامية المتكونة من 500 متطوع فرنسي، كان من المفروض أن تقيم في القلعة مدة عام، وكان ينبغي بعد مضي هذه المدة أن يرقى كل ضابط وضابط صف إلى مرتبة أعلى، وحددت للجنود زيادة تقدر بأحد عشر سنتيما ونصف سنتيم يوميا. وبعد أن تم تحصين القلعة وتزويدها بالمؤن والذخيرة، ترك المارشال المدينة يوم 7 من شهر فبراير، ولكي يضلل الأمير عبد القادر ويتعرف على داخل المنطقة بصورة أفضل ، اختار الطريق الواقع إلى الشرق، وهو ما يعرف بالطريق الوسط.

لم يعرف الأمير عبد القادر الراحة في أثناء ذلك ، فقد جمع القبائل القوية من بني عامر وهاشم والغرابة، وانتظر على رأسها انسحاب الفرنسيين ليظهر للمارشال أنه لم يقض على قوته بعد.

الفصل العاشر

عندما وصل الطابور الفرنسي في 9 من شهر فبراير إلى جبال قبيلة بني عامر، هاجمت كتيبة قوية مؤخرة الطابور الفرنسي، الذي كان يقوده الجنرال بيريغو ، وحاولت تطويق ميمنة الجيش الفرنسي. وحين اقترب الفرنسيون من منابع وادي المالح، زحف الأمير عبد القادر من معسكر بجيش قوامه 4000 رجل وقام بهجوم عام عليهم. وقد وقع ذلك في الوقت الذي كان فيه عدد كبير من العرب يناوشون مؤخرة الطابور الفرنسي ويطلقون النار عليه، ولكن الجنرال بيريغو أحبط محاولتهم الجريئة، التي كانوا يريدون من ورائها فصل المؤخرة عن الطابور، الذي كان عليه أن يتوقف أكثر من مرة حتى يمهد المهندسون الطريق أمامه. وفشلت كذلك هجمات الأمير عبد القادر المتكررة أمام مناورات المارشال الذكية. وفي اللحظة، التي كانت فيها المعركة على أشدها، وقعت حادثة، كانت في واقع الأمر قليلة الأهمية، ومع ذلك فهي تلقي ضوءا غريبا على مدى ما يمكن أن يبلغه الإهمال العقلي وتطابق الطبع عند الشعبين المحاربين في هذا الأمر. فقد وثب خنزير بري أزعجته ضجة المعركة بين الجيشين المتشابكين، فانقطع العرب والفرنسيون على السواء عن إطلاق النار على بعضهم البعض، ووجهوها نحو الضيف الغريب، فتحولت الحرب فجأة تحت الصراخ والهتاف المتبادلين إلى شوط من أشواط الصيد. وما أن مضى الخنزير البري، الذي أنقذ نفسه من غير أن يهتم بذلك، حتى عاد إطلاق الرصاص إلى وضعه السابق، وظلت قوات الأمير تناوش الفرنسيين حتى مغيب الشمس، وانسحبت بعد ذلك.

بلغ الفرنسيون عين العامرية في 11 من الشهر، ووجدوا أنفسهم في الطريق الذي كانوا قد سلكوه في اتجاه تلمسان. وفي 21 عادت فرقة الاكتشاف إلى وهران، وبذلك انتهت هذه الحملة العسكرية دون أن يكون لها في الحقيقة أثر في إدخال أي تغيير على وضع الفرنسيين في المقاطعة. وكانت النتيجة الوحيدة لذلك هي أن الأمير عبد القادر كانت له حامية فرنسية أخرى يحاصرها، وهي حامية قلعة المشور في تلمسان، لو استطاع المارشال أن يترك فيلقا في تلمسان، لا ليتحكم في القلعة فقط، وإنما يتحكم كذلك في المنطقة الخصبة، لكانت لقضية الفرنسيين من ذلك فائدة أكبر. لقد كان في استطاعة الفيلق القوي أن يحصل على مواده

الغذائية بنفسه، أما الفيلق الضعيف، فكان يكلف فرنسا مبالغ ضخمة، إذ كان من الضروري تزويده بالمواد الغذائية كل ثلاثة أو أربعة أشهر. كان قائد قلعة المشور السابق مصطفى بن إسماعيل قد التحق بالفرنسيين في وهران، وقد تسلم هذا الشيخ المثير للعجب، الذي احتفظ بقوته التامة وكان قد برهن على شجاعته وموهبته الحربية في مناسبات عديدة، الوسام الشرفي من يد المارشال نفسه.

كانت لقوات الاحتلال في وهران أثناء غياب كلوزيل مناوشات مختلفة بنواحي المدينة مع مجموعات من فرسان قبيلة الغرابة، التي أرادت منعهم من قطع الأخشاب. وأرغم من بقي من شيوخ قبيلة الدوائر والزمالة ونسائهم وأطفالهم على التخلي عن مراعيهم الخصبة واللجوء بقطعانهم ليكونوا تحت حماية مدافع الجزائر. وأرغمت التحركات المعادية، التي ظهرت بين قبائل المنطقة، إبراهيم التركي، الذي كان قد نصب قائدا على مازغران ومستغانم، على التحصن في المدينة الأخيرة، هكذا كان العرب يحاصرون الفرنسيين وحلفائهم رغم تفوق أسلحتهم.

عاد المارشال كلوزيل، الذي كان حضوره من جانب آخر ضروريا بصفاته حاكما عاما، إلى الجزائر وترك قيادة القوات الفرنسية للجنرالين بيريغو ودارلانغ.

كان الأمير عبد القادر، الذي كانت بحوزته مدينة تلمسان وجزيرة رشقون وكان قد أدرك إلى جانب ذلك الهدف من خروج المارشال في هذا الاتجاه قصد الإقامة في غرب المقاطعة ليمنع عنه قدر الإمكان الاتصال بالمغرب ـ كان قد استقر في منطقة تلمسان ليزيد من عدد أتباعه من جهة، ويوقع من جهة أخرى معاهدة سرية مع ملك المغرب بحثا عن أسندة لسلطته الخاصة عنده.

وبينما كان الأمير عبد القادر مشغولا في غرب المقاطعة، قام الجنرال بيريغو بحملة ضد قبيلة الغرابة، التي لم تتوقف عن معاداتها للفرنسيين. فعبر نهر سيق في 24 من شهر فبراير، وهاجم عددا كبيرا من الدواوير في سهول وادي غروف، وحمل قطعانها معه، وقد قدم له مصطفى بن اسماعيل بدوائره وزمالته مساعدة كبيرة في هذه الحملة. وفي الربيع قام الجنرال بيريغو بجولة عسكرية في الأقسام الشرقية من المقاطعة، ولما كان العرب المقيمون فيها قد عادوا إلى أعمالهم السلمية، فقد وجدت القوات الفرنسية فيما يبدو أمزجة مطمئنة عند معظم قبائل الشلف وما جاوره. وكانت قد ساعدت على ذلك بشكل خاص النداءات، التي كان العجوز مصطفى بن اسماعيل قد أرسلها إليهم قبل وصول القوات الفرنسية، ووعدهم فيها بأنه لن

يتعدى على أمنهم [illegible] من أنواع اللوة. وبعد أن هزم الجنرال بيريغو 16 من شهر مارس حليفة للأمير عبد القادر بوادي الهبرة، وجد البلاد في غاية الهدوء، ووصل إلى عدد كبير من الخيام، التي بقيت على حالها خلافا لما جرت به عادة الفرنسيين عند المرور بأمثالها. ففي كل مرة يقترب فيها الجنرال من دوار، يأمر بإطلاق طلقة مدفع، فكان الشيوخ يأتون إليه ويبايعونه، حتى النساء والأطفال لم يشعروا بالخوف منه، وحملوا معهم أنواعا من المواد الغذائية لبيعها إلى الفرنسيين. وقد اغتنم بعض أعداء الأمير وحاسديه القدامى هذه الفرصة للتنفيس عن كراهيتهم له، إذ لم يستطع شعبان، الابن الأكبر للعريبي، نسيان موت والده، فانضم في بهجة إلى فيلق الجنرال بيريغو ودعا الكثير من القبائل إلى الاقتداء به. وبهذا الطريقة بايعت الجنرال بيريغو 19 قبيلة عربية، وأرسل إليه كل شيخ من شيوخها حصانا علامة على خضوعه له وتبعيته لسلطته، وكانت هناك أربع قبائل وعدت بالخضوع له، ولكنها لم ترسل خيلا، بينما استقبلت قبائل بني زروال وبني جعيط، التي كانت تعيش آمنة في جبالها، الفرنسيين بنيران بنادقها.

وكانت نتيجة تقرير الجنرال بيريغو عن هذه الحملة أن باريس كانت تعتبر المنطقة أكثر أمنا مما هي عليه في واقع الأمر، وشاعت زيادة على ذلك إشاعات خرافية عن الأمير عبد القادر، فقيل عنه حينا إنه قد جرح، بل قتل أيضا، وقيل حينا آخر إن أتباعه نهبوه ففر إلى المغرب. ولم تكن الوزارة الفرنسية، التي كانت تخشى المناقشة القادمة للميزانية الجزائرية في البرلمان أكثر مما تخشى الحرب الدموية، التي يتعرض له الجنود في إفريقيا، في سحب جزء من القوات الفرنسية، التي قامت بحملة على معسكر وتلمسان، من المقاطعة. وقد برهنت الأيام على العواقب الوخيمة، التي تسبب فيها هذا الأمر.

لم يكن على الحكومة الفرنسية، وذلك من أجل المحافظة على بقاء السيادة الفرنسية في مقاطعة وهران، أن تقيم حصونا قوية في الأماكن الحصينة فقط، وإنما كان عليها فوق ذلك أن يكون لها طابور نشيط قوامه آلاف من الجنود، يجوب البلاد من حين لآخر في كل الاتجاهات، ويخضع القبائل العربية، التي لم تكن قد خضعت بعد، ويطاردها ويلحق الضرر البالغ بها، فيجعلها بذلك تنعم بنوع من الاستقلال. وعندئذ لن يجد الأمير عبد القادر نقطة مركزية لسلطته، وتكون القبائل قد عادت إلى فوضاها القديمة، لعله كان عندئذ من السهل على الفرنسيين القيام بجزء من الدور الذي كان يقوم به الأمير! إلا أنه كان من الضروري هاهنا القضاء على نفوذ الأمير قضاء تاما، وكان جميع الرؤساء الفرنسيين، الذين أقاموا في البلاد فترة طويلة، يرون هذا الرأي أيضا 47)

وفي الوقت الذي عاد فيه الجنرال بيريغو إلى وهران من حملته الناجحة تقريبا، خرج الحاكم العام بجيش قوامه خمسة آلاف رجل من المشاة، و100 حصان وبطارية ومدفع جبلي وعدد من الصواريخ الحارقة إلى جانب خمسة سرايا من المهندسين – خرج من بوفاريك للقيام بحملة ضد مقاطعة التيطري ليعاقب خلالها القبائل المعادية ويجبرها على احترامه قبل أن يغادر هو نفسه الجزائر، فقد كان من واجبه أن يعود إلى باريس ليشارك في اجتماعات البرلمان المتعلقة باستعمار الجزائر. وكانت نتيجة هذه الحملة إخضاع قبيلتي موزاية ووزيرة وتزويد الباي محمد، الذي كان الفرنسيون قد نصبوه في المدية، بالأسلحة والذخيرة حتى يستطيع مقاومة خليفة الأمير عبد القادر، لكنه لم يوفق في ذلك فترة طويلة. وقد وجد الفرنسيون أثناء زحفهم مقاومة وصفها الجنرال رابتيل، الذي تولى القيادة بعد المارشال مباشرة، بأنها كانت عنيفة بشكل غير عادي، خاصة في طريق ممر جبل الثنية الوعر. ففي خلال الأيام التسعة، التي استغرقتها الحملة، كان على الفرنسيين أن يناوشوا بصفة دائمة مجموعات عديدة من القبائل، التي صمدت في جبالها بعناد وشجاعة لا مثيل لهما. وفي 4 من شهر أبريل نجح الجنرال ديميشيل باتفاق مع المرشال في الخروج بجيش صغير في اتجاه مدينة المدية. وفي 8 من شهر أبريل اجتمعت الفرق كلها ثانية في بوفاريك، وفي 14 منه سافر المارشال إلى باريس للغرض المذكور سابقا، وناب عنه الجنرال رابتيل.

وكان المارشال قبل سفره قد أمر الجنرال ديرلانغ في وهران بالتوجه إلى مصب نهر التافنة وإقامة مكان حصين مقابل جزيرة رشقون ليكون مركزا لخطوط المواصلات من هذا الجانب من الساحل مع مدينة تلمسان، وهو المشروع الذي كان المارشال قد اتخذ قرارا بشأنه في حملته الأخيرة على مدينة تلمسان.

غادر الجنرال ديرلانغ وهران في 7 من أبريل 3000 رجل من جميع أنواع الأسلحة و8 مدافع، وأخذ طريقه على معسكر الكرمة وقام بجولة في جبال قبيلة بني عامر المعادية دون أن يزعج سيره شيء. ولم يتعرض الطابور الفرنسي لأي هجوم إلا بعد عبوره وادي المالح ووادي سنان ووادي الحلوف ووادي غوسر، فقد هاجمت ميمنته قوات كبيرة، كان يقودها الأمير عبد القادر نفسه. وقعت هذه المناوشات في 15 من الشهر، واستمرت من الصباح الباكر إلى الساعة الثالثة بعد الظهر. وقد قدر الفرنسيون خسائر العرب 2000رجل 48)، هو أمر مبالغ فيه جدا، وكانت خسائرهم هم أنفسهم 10 قتلى وسبعين جريحا. وكانت المعركة كبيرة جدا، وانتهت لصالح الفرنسيين، فساروا بعد ذلك إلى أن بلغوا مصب التافنة. ومنذ ذلك اليوم

بدءوا في إقامة الحصون الدائمة في هذا المكان، يقوم على حفظها ما بين 200 و300 رجل، وتولى العقيد لوميرسي Lemercier (49 التابع لفيلق المهندسين الإشراف على هذه الإعمال بنشاط ودراية.

لقد جعل الانتصار في معركة يوم 15 من أبريل الجنرال ديرلانغ يعتقد أنه من السهل عليه تموين تلمسان بالمواد الغذائية، ولكنه لم يجرؤ على التعرف على جبال تلفات، التي لم يعرف أمرها حتى تلك اللحظة، قبل أن يتعرف عليها، لا سيما وأن أخبارا قد وصلته من وهران تفيد أن الأمير عبد القادر قد دعا إليه في الغرب قبيلة الغرابة وأن قوات هامة من القبائل والمغاربة قد ظهرت على الضفة اليسرى من وادي التافنة.

لذلك قاد الجنرال ديرلانغ في 25 من شهر أفريل قوة استطلاعية كبيرة، وكان في مساء 24 منه قد اتجه إلى الضفة اليسرى من نهر التافنة، وسار في الليل ومعه فرقة من المشاة تقدر بحوالي 1500 رجل، مقسمة إلى طابورين تحت قيادة كل من العقيد بن كومب وكوربان Corbin، وكانت المدفعية تتكون من نوعين، من مدفعية الجبل ومدفعي ميدان، والخيالة من 180 من قناصة إفريقيا ومن الحلفاء العرب من الدائر والزمالة بقيادة مصطفى.

وقد التقت هذه الفرقة الاستطلاعية عند مطلع الشمس بقوات معادية قليلة العدد، لا يفصلها عنها سوى هوة كبيرة. وكانت طلقات قليلة من سلاح المدفعية كافية لحمل العرب على إخلاء المكان. وواصلت الفرقة طريقها في اتجاه الرابط سيدي زكوب. وهناك تأكد للجنرال أن عليه أن يجابه قوات كبيرة، ولذلك قرر العودة إلى المعسكر الواقع قرب التافنة. على أن فرق الخيالة، خصوصا خيالة الحلفاء العرب، كانت قد تجرأت على التوغل في الأراضي، التي كانوا يسلكونها، وتفرقت بحيث أصبح تقريبا من غير الممكن جمعها. ولم ينجح الجنرال في استدعائها إليه إلا بعد مرور خمسة أرباع الساعة، وذلك ما لم يحدث دون خسائر فادحة. ذلك أن قوات الأمير كانت قد تراجعت فقط لتتمكن من القيام بهجومها من جميع النواحي. قبل أن يبدأ الجنرال في انسحابه، كان 10.000 فارس عربي، كان عددهم يزداد باستمرار، قد أحاطوا به، وقد أفرغ القناصون بنادقهم وانضموا إلى الطوابير، فأحدثوا الخلل والاضطراب في صفوفها. وأصبحت كلمات الأوامر لا تسمع، ولم يعد أحد منهم يفكر في غير إنقاذ شخصه. وكان الأمير عبد القادر يقود بنفسه الهجوم، الذي تم في جنون أعمى، فقد رئي بعض الأفراد من القبائل والمغاربة يهجمون على الفرنسيين وليس من سلاح آخر اليتغانات والعصي أو الحجارة. ولم يتمكن الضباط إلا بعد فترة طويلة من جمع رجالهم شيئا فشيئا، فراحوا يصدون العرب بحرابهم، فتم لهم الانسحاب بشكل أكثر تنظيما.

ونظمت المدفعية، التي كانت كثيرا ما منعها من إطلاق النار الخوف من إبادة فرقها الخاصة، صفوفها واتخذت مواقع، تم اختيارها بعناية، وراحت تمطر الأعداء بوابل من رصاص المدافع والقذائف، ومع ذلك لم يتخلوا عن مواقعهم. وقد اختلطت كتائب كاملة من الجيش الفرنسي بعرب الأمير عبد القادر. وكان شيخ الدوائر الشجاع مصطفى بن إسماعيل قد قام مع رجاله بالعديد من الهجمات الممتازة، فكان يقوم هكذا بحماية المدفعية كلما أوشكت أن تنفصل عن الجيش. ومع أن الفرنسيين لم يكن يفصلهم عن معسكرهم سوى ميل واحد ونصف، فقد تطلب منهم انسحابهم خمس ساعات ونصف الساعة، لم يتوقف خلالها إطلاق النار لحظة واحدة. وعند نهاية المعركة جرح الجنرال دارلانغ في رقبته، فترك القيادة للعقيد كومب، الذي حافظ على رباطة جأشه الخاصة إضافة إلى الموكلة إليه هاهنا مقرونة بنشاطه وطاقته.

كانت خسائر الفرنسيين 33 قتيلا، من بينهم 3 ضباط، وبلغ عدد الجرحى 150، من بينهم 10 ضباط. وكانت خسائر العرب أكثر من ذلك بطبيعة الحال، ولكن النصر كان حليفهم، ويمكن القول أن الأمير عبد القادر قد استعاد في هذا اليوم النفوذ، الذي كان يمكن أن يفقده عند حملة المارشال والجنرال بيريغو، ولم يفته أيضا أن يفيد من انتصاره هذا كل الفوائد الممكنة. وأرسل إلى جميع قبائل المقاطعة مناشير، حدثهم فيها عن أخبار هذا النصر، وكان هذا يعني الدعوة إلى القيام بثورة جديدة على الفرنسيين، الذين سرعان ما وجدوا أنفسهم محاصرين في النقاط المحصنة، التي احتلوها في هذه البلاد. ونزعت القبائل العربية، التي كانت قبل ذلك قد أظهرت طاعتها للفرنسيين، لأنها كانت تعتقد أنهم الأقوى في البلاد، القناع عندئذ وأظهرت للفرنسيين كرهها الطبيعي لهم.

رأى الجنرال دارلانغ أنه، بعد المعركة الدموية، التي أ ضعفت قوة رجاله من الناحية الجسدية والمعنوية، عاجز عن خوض حرب مكشوفة ، ولذلك أرسل أفضل باخرة إلى الجزائر لإحضار ما طلبه من إمدادات عسكرية. وكان الجنرال رابتيل، الذي كان في حاجة إلى قواته كلها بسبب العداوة كانت قد قامت بين خليفة الأمير والخليفة الذي نصبه الفرنسيون، قد وجد نفسه مرغما على إرسال باخرة إلى طولون ليطالب بإرسال الإمدادات، التي كان قد طلبها من الوطن الأم.

ويعود ذلك إلى أن الباي محمد كان قد تعرض في المدية في نهاية أبريل لهجوم قام به عليه خليفة الأمير عبد القادر في مليانة سيدي علي بن مبارك 50)، واستمرت المعركة ثلاثة أيام، وكان البركاني، الذي ساعد بن مبارك، قد جرح جرحا قاتلا، وسقط العديد من القتلى من

الجانبين. وعندما كان الباي محمد مشغولا بالإشراف على المدفعية المكلفة بالدفاع عن المدينة، غدر به السكان، واعتقلوه، وقيدوه وسلموه في السلاسل إلى ابن مبارك، فنصب هذا وليد سيدي محمد بن عيسى بايا على المدية، ولم يكن الجنرال رابتيل في ذلك الحين قادرا على الانتقام منهم على الإساءة التي لحقت السلطة الفرنسية.

وقع اختيار الحكومة، من أجل مساعدة الفرنسيين المحاصرين قرب التافنة، على الجنرال بوجو، الذي اتجه إلى وهران بجيش قوامه ما بين 4000و5000 رجل، وأرسل المقدم دى لاري *de Larue* من هيئة الأركان في الوقت نفسه إلى طانجة ليقدم للبلاط المغربي باسم الحكومة الفرنسية مقترحاتها بشأن المساعدة التي يقدمها للأمير عبد القادر. فاعتذر ملك المغرب بأن القبائل، التي تسكن الجبال المحاذية لمقاطعة وهران، تعيش في وضع مستقل، يجعل من المستحيل عليه أن يتحمل مسئولية ما تقوم به، لكنه وعد بإرسال فرق من الجيش لزرع الخوف في نفوس أفرادها.

استمرت محاصرة الأمير عبد القادر للقوات الفرنسية على نهر التافنة من 25 أبريل إلى الأيام الأولى من شهر يونية، الذي وصلت فيه الإمدادات المطلوبة، ولم تتلق في الفترة المذكورة من المساعدة سوى 125 رجلا. لقد أفادتهم الباخرة لوبرازي *le Brazier* فائدة كبيرة حين حملت جرحاهم ومرضاهم إلى وهران وحملت إليهم المواد الغذائية والذخيرة. ومع ذلك فقد عانت معاناة خاصة من قلة اللحوم الطازجة والأعلاف. لذلك كان لا بد من التضحية بالقسم الأكبر من خيولها، لأن المراعي، التي حاول مصطفى بن اسماعيل الاستيلاء عليها، قد صدته عنها ومنعته من الوصول إليها الخيالة العربية المتفوقة عددا وعدة. وكانت تقوية الحصون والمعسكرات تتم تحت صفير الرصاص، فبينما كان قسم من الحامية يقوم بهذه الأعمال، كان على القسم الآخر أن يقاتل القبائل، التي كانت تنزل يوميا من الجبال لإطلاق النار على العمال.

لذلك كان الفرحة كبيرة عندما اكتشف الجنود في 3 من شهر يونية الأسطول الفرنسي، الذي أحضر الإمدادات المنشودة منذ مدة، فقد وصلت كتيبة الصفوف 23 و24 و62، ومجموع أفرادها حوالي 5000، في 5 و6 و7 من شهر يونية، وتسلم الجنرال بوجو، الذي وصل في 26، القيادة على القوات المتحدة.

كان الجنرال قد قرر في البداية الذهاب إلى مساعدة الحامية المحاصرة في تلمسان، ولكنه عدل عن قراره عندما علم أن الأمير عبد القادر ينوي الاقتراب من وهران ليشعل النار في

حقول القمح الخاصة بالدوائر والزمالة. وسلك في 11 من الشهر الطريق المؤدي مباشرة إلى وهران، التي يستطيع منها تشكيل طابوره بصورة أفضل لمجابهة الأمير عبد القادر، ولم يترك في المعسكر القريب من وادي التافنة سوى 1800 رجل. كان قد بدأ السير في الليل، ولكنه لم يبتعد عن الموضع، الذي كان فيه أكثر من ثلاثة أرباع الميل ، إذ كان عليه أن يتوقف بين الحين والآخر، لأن المنطقة لم تكن لصعوبتها وتشابكها تسمح بالسير ليلا. وعندما واصل سيره هاجمته كتيبة من قوات الأمير عبد القادر، ولكنه وصل مع ذلك إلى وهران في 15 من شهر يونية دون أن يخوض معركة حقيقية، واقتصرت خسائره على بضعة رجال من الكتيبة 62 المكلفة بالإغارة من أجل السلب والنهب 51)، ، الذين لم يبقوا في الطابور، ومن ثم لحق بهم العرب وقطعوا رؤوسهم. في 19 من شهر يونية ترك الجنرال بوجو وهران مرة أخرى مع فيلق متحرك قوامه 6000 رجل، ووصل في 24 منه إلى وادي الصفصاف على بعد ميل من مدينة تلمسان. في هذا اليوم كانت فرقة من فرق المؤخرة قد اشتبكت مع مجموعة من الخيالة العربية، ولكنها استطاعت إلحاق الهزيمة بها. وفي معسكر الصفصاف استقبل الجنرال النقيب كافنياك وباي تلمسان إلى جانب أعيان العرب واليهود.

كانت حامية المشور تعيش تحت حصار دائم، فقد كان الأمير عبد القادر في اليوم السابق يحاصرها بقوات تتراوح بين 5000 و6000 رجل و120.000 رأس من مختلف قطعان الماشية، كانت قد أتت على كل نبتة وساق في دائرة تتراوح مساحتها بين 4 و5 أميال، لم يكن في وسع الجنرال بوجو والحالة هذه الإقامة فيها مدة طويلة ، ولذلك قرر الوصول إلى التافنة بأقصى سرعة ممكنة، ليجمع القافلة الضرورية لتموين تلمسان، وأخذ معه النقيب كافنياك و 200و300 كرغلي، وترك في مقابل ذلك 300 مريض في قلعة المشور. وكان سعيدا بتمكنه من عبور جبال تيلغات من غير أن يخوض أية معركة، وهو ما لم يستطع فعله المارشال كلوزيل، ووصل التافنة في 29 من شهر يونية.

و في 4 من شهر جويلية توج إلى تلمسان مرة ثانية بجيش قوامه 6000 رجل، وكانت القافلة، التي أخذها معه، تحمل على ظهور 500 جمل و300 حمار من الإمدادات لحامية قلعة المشور ما يكفيها مدة أربعة أشهر ، وعبر جبال تيلغات دون أن يلتقي بأعدائه، ونزل في 6 من شهر جويلية إلى وهدة وادي السكاك الواسعة الى حد ما والمحاطة بالجبال. كان الأمير عبد القادر قد عزم على أن يحاصر القوات الفرنسية في هذا المكان، ويحول دون تقدمها، ويفصل القافلة إن أمكن عن بقية الجيش، وهو ما صعب بطبيعة الحال من مناوراتهم. فقد أرسل الأمير

قائده بن نونة بخيل يتراوح عددها بين 1500 و2000 إلى الميسرة الفرنسية، أما هو نفسه فقد توجه إلى الضفة اليسرى لوادي السكاك بكامل جيشه، بحوالي 3000 حصان، و3000 رجل من رجال القبائل والفيلق النظامي، وقوامه ما بين 1000 و1100 رجل. وبعد أن بحث الجنرال بيجو فترة طويلة عن طريق آخر يرسل منه القافلة الكبيرة إلى تلمسان دون جدوى، وجد نفسه مضطرا إلى السير لمجابهة الجيش الرئيسي للأمير عبد القادر.

وقبل أن يتم تنظيم قواته على الضفة اليسرى من وادي السكاك، هاجمه القناصة والسباهية (الصبائحية) بأعداد كبيرة وهم يصرخون صراخ الحرب، وكان إطلاق النيران كثيفا حتى إنه كان لتواصله واستمراره يعادل ما يطلقه عدد من الكتائب. فرأى الجنرال أنها اللحظة المناسبة لإرسال الكتيبة الثانية من الخيالة للقيام بهجوم على القوات الجزائرية المهاجمة، فنجح في البداية نجاحا جيدا، ولكن نيران العرب تلقت الفرسان الفرنسيين من الجنب حين حاولوا التقدم مرة أخرى، فعادوا أدراجهم تحت حماية المشاة. وبعد أن انضم إلى الخيالة الفرنسية 400 رجل من الدوائر عاودت الهجوم بكاملها، فحالفها التوفيق في هذه المرة ، وتم لها دحر قوات الأمير، وبقيت الناس والخيول والأسلحة في ميدان المعركة. وعندما رأى الأمير عبد القادر رجاله يفرون، تقدم بمشاته النظاميين وحاول التحكم في الفوضى، التي تمكنت من صفوف قواته، وأمر بإطلاق النار بكثافة، ولكن المناورات، التي أراد القيام بها، باءت بالفشل تماما وألحقت الضرر برجاله 52). فمشاته، الذين كانوا ماهرين في الاشتباكات المتفرقة، لم يستطيعوا القيام بالحركات المغلقة المنتظمة، التي كانوا قد تعلموها قبل فترة قصيرة، تحت نيران عدوهم.

وهكذا توقفت آلة الحرب من جهتهم، فتفوق عليهم أعداؤهم وتراجعوا لسوء حظهم نحو مجرى وادى السكاك، الذي تحيط به منحدرات يتراوح ارتفاعها بين 30 و40 قدما. وبذلك كاد انسحابهم يكون مستحيلا، خصوصا وأن كتيبة من الفرنسيين كانت هي الأخرى قد نزلت من طريق آخر إلى مجرى الوادي. وهناك وقعت مذبحة رهيبة، استطاع خلالها الدوائريون والزماليون إرضاء رغبتهم الوحشية في قطع الرؤوس. لقد كانت لهؤلاء مساهمتهم في الإنتصار في هذه المعركة، إذ أن خيالتهم كانت قد قامت بالهجوم الحاسم على نحو ممتاز، حتى إن قائدهم الموهوب مصطفى قد جرح في يده بعد أن أظهر بطولة مميزة. وكانت نتيجة المعركة أن مشاة الأمير هزموا هزيمة تامة، وأن الفرنسيين وحلفاءهم — الذين كانوا قد تعبوا من التقتيل والذبح وقطع الرؤوس ـ أسروا أكثر من 110 محاربا جزائريا، وكانوا أولَ الجنود الذين أسروا في المعارك الفرنسية ضد العرب (53).

عندما رأى الجنرال بوجو أن النصر أصبح أكيدا، أمر بسير القافلة إلى تلمسان، وضرب معسكره في المكان الذي اختاره، وبنى له رماة الرمانات الفرنسيين كوخا من أوراق الغار، وأحاطها حلفاؤهم من العرب بأكاليل من الرؤوس الدامية للقتلى من مواطنيهم ! وكانت الفرحة عامة في المعسكر الفرنسي، فقد تصور الفرنسيون أنهم أصبحوا بعد هذا النصر سادة البلاد، غير أن هذه الآمال الجريئة اختفت في اليوم الموالي. فقد كان هناك عدد كبير من الجرحى، وكانت الشمس فوق ذلك محرقة وكان الجنود مرهقين، بينما كان العرب يمتطون ظهور جيادهم المتشوقة إلى الحرب فوق الجبال البعيدة كما كانوا في السابق ينتظرون اللحظة المناسبة للهجوم على الجيش الفرنسي. لم يستفد الجنرال بوجو من انتصاره، لأنه لم يجد أعداء يطاردهم، إذ أنهم كانوا قد اختفوا في الأفق، وكل ما كان يستطيع عمله، هو التفكير في إصلاح خسارته في المكان الذي اختاره، فهو النتيجة الوحيدة للمعركة. وقدر الجنرال بوجو أن خسائر الأمير عبد القادر كانت بين 1200 و1500، زيادة على عدد كبير من الخيل والأسلحة و6 أعلام. أما الفرنسيون فكانت خسائرهم 32 قتيلا و70 جريحا.

الفصل الحادي عشر

دخل الجنرال بوجو في اليوم الموالي، وهو 7 جويلية، مدينة تلمسان، ومنها أرسل كتيبة لمعاقبة قبيلة بني ورنيد، التي كانت قد منعت وصول المواد الغذائية من المناطق المجاورة إلى المدينة، وأقامت هذه الكتيبة يومين في أراضي هذه القبيلة وغنمت غنائم معتبرة، خصوصا الحبوب. وبعدئذ بدأ الجنرال بوجو طريق عودته إلى وهران، ومر خلال ذلك بمنطقة قبيلة بني عامر، ولكن دون أن يتعرض لمقاومة العرب له.

وبذلك انتهت مهمة الجنرال في إفريقيا، وعاد إلى فرنسا ليتلقى وسام الفريق مكافأة له على انتصاره على الأمير عبد القادر، وترك سمعة طيبة عند الجيش الفرنسي في إفريقيا، إذ كان قد كسب ثقة الجنود ومحبتهم، لأنه حاول أن يخفف عنهم أعباء الحملة واعتنى بإطعامهم عناية كاملة، ثم إن أعماله كلها تميزت بالصمود والقوة والشجاعة.

أسندت القيادة في وهران إلى الجنرال ليتان خلفا للجنرال ديرلانغ، الذي دعي للعودة إلى فرنسا.

كان الحاكم العام، الذي كان في فرنسا، قد ألقى خطبة حامية في مجلس النواب بخصوص الميزانية الجزائرية، فقد دار الحديث حول الوقائع المختلفة في المستعمرة، ولا سيما ما يتصل من ذلك بشكوى سكان تلمسان من معاملة المارشال القاسية. ودار الحديث، كما حدث في السنة الماضية، رغم تصريح الوزير بهذا الصدد ، أكثر من مرة حول هذا السؤال التعس: "هل ينبغي الاحتفاظ بالجزائر أم لا؟". واعترض دوفجير دي هوران *Duvergier de Hauranne* بأسلوب بليغ وبمرارة في الوقت نفسه على احتلال نقاط كثيرة في بلاد البرابرة وعلى السياسة المتبعة، التي اتبعت منذ ذلك الحين، حتى إن المجلس كله اجتاحته حركة عاصفة وصاح النائب أرغنسن *Argensen* : " إنه يدافع عن قضية عبد القادر ! "

كان المارشال كلوزيل قد طلب أن يرفع العدد المخصص لاحتلال المستعمرة من 21.000 رجل إلى 30.000 ألف؛ ولكن الوزارة، التي كان من حقها دائما أن تحول الميزانية عن طريق ما يتم توفيره في ناحية وترفعها في ناحية أخرى، وعدت المارشال بأن تقدم من الفرق العسكرية ما يقارب ما طلبه منها.

عاد الحاكم العام في نهاية أوت إلى الجزائر، ورأسه مملوء بأفكار تتصل بالفتوحات الجديدة قبل أن تستقر في ذهنه الأفكار القديمة كما ينبغي لها أن تستقر.

كان طالع الأمير عبد القادر خلال ذلك في صعود، فقد جلب منافس لـه في البلاد أنظار الفرنسيين إليه في تلك اللحظة، التي كان فيها يتوقع أن يشنوا عليه هجوما جديدا! كان الكرغلي أحمد باي، حاكم قسنطينة، رئيسا آخر، غير الأمير عبد القادر، كان على الفرنسيين أن يحاربوه أيضا من أجل السيطرة على إيالة الجزائر، وكان نفوذه يمثل آخر ضوء منعكس مما بقي من السلطة التركية. كان المارشال كلوزيل قد وضع منذ مدة خطة للقضاء على سلطة أحمد باي حتى إنه عين قبل ذلك الباي القادم، وهو يوسف الذكور آنفا، الذي حتم عليه أن يتخلى عن هذا اللقب من جديد بعد الحملة الفاشلة. فقد بدأ كلوزيل عند وصوله إلى الجزائر في التجهيزات والاستعدادات لهذه الحملة، ولذلك أمر بتوزيع الفرق المختلفة قصد تعبئة جيش في عنابة. بناء على ذلك أخلى تقريبا كل الحصون المتبقية من الإيالة، فأخذ من وهران مثلا الكتيبة 62، فأضاعت العمليات المحتملة في منطقة وهران نتيجة لذلك كل الأسندة الضرورية. ورأى الأمير عبد القادر نفسه قادرا على محاصرة مدن وهران ومستغانم وأرزيو وتلمسان وكذلك معسكر التافنة، الذي كان الفرنسيون لا يزالون يواصلون إتمام بناء تحصيناتهم فيه. حقا كان الجنرال ليتان قد قام خلال الخريف بعدة حملات في المناطق المجاورة. خصوصا ضد قبيلة بني عامر وقبيلة غرابة الخطيرة الأبية، غير أن هذه الحملات في آحر فصل من فصول السنة لم تكن لتنال النجاح، لأن الجنود كانوا يعانون من نقص المياه، الذي انضمت إليه الحرارة والمتاعب البالغة، فتحطمت معنوياتهم بحيث أصبحت عمليات الانتحار من الحوادث اليومية.

في هذه الفترة كان بعض الفرنسيين من حامية السفينة الراسية قرب مدينة أرزيو قد نزلوا إلى البر للصيد، فهاجمهم العرب، وجرح النقيب ديفرانس *Defrance* من البحرية في هذه المناسبة جرحا بليغا وحمل أسيرا إلى الأمير عبد القادر، فعامله معاملة حسنة، وأطلق سراحه فيما بعد في مقابل إطلاق سراح من أسروا من أعيان العرب في معركة وادي السكاك.

في نهاية أكتوبر توجه المارشال إلى عنابة بعد أن اسند القيادة في الجزائر إلى الجنرال رابتيل، فكان على هذا أن يخرج بعد ذلك بقليل لمحاربة الحجوطيين والقبائل، لأنهم انتهزوا فرصة ضعف القوات الفرنسية وتجرئوا على الهجوم حتى على مدينة الجزائر نفسها. وقد فقد الفرنسيون في أحد الاشتباكات ثلاثة من ضباطهم، ولكنهم أرغموا العرب على الانسحاب إلى الجبال.

وفي تلمسان كانت القبائل العربية تحاصر النقيب كافنياك بصورة مستمرة، إذ كانت قبيلة بني ورنيد قد نزلت مرة أخرى من الجبال ومنعت وصول التموينات إلى المدينة. لذلك بدأت المواد الغذائية تقل بصورة محسوسة، وأصبح من الضروري القيام بحملة جديدة من وهران لسد الحاجيات الضرورية لقلعة المشور. فسار الجنرال ليتان صحبة 4000 رجل و 9 مدافع إضافة إلى مركب لتزويد تلمسان بما يكفي من المواد الغذائية مدة ثلاثة أشهر. وبلغ المدينة دون أن يجد أثرا لعدوه، ولكنه خاض عند عودته معركة حامية فيما يسمى شعبة اللحم 54)، جرف الغرب، عندما حاول 4000 إلى 5000 منعه من العبور، لكنه التف حولهم وهزمهم، ووصل وهران في اليوم الثاني من شهر ديسمبر.

بينما كان الفرنسيون مشغولين بحملة قسنطينة، وجد الأمير عبد القادر الوقت لتقوية نفوذه في داخل البلاد، فلم يدع هذه الفرصة تفوته. لقد حرص على أن يبعد القبائل، التي تعيش في الأراضي المجاورة للحصون الفرنسية المنيعة، إلى الداخل قدر الإمكان، وذلك ليكونوا بمنجاة من الهجمات المفاجئة، التي كثيرا ما تعرضت لها مرارا عديدة في السابق، وألحقت بها أضرارا كبيرة، وبذلك أصبحت هذه الحصون الفرنسية وكأنها في صحراء خالية. لقد سبق أن ذكرت أن الأمير عبد القادر كان قد وضع، بعد تهديم معسكر مباشرة، خطة لنقل عاصمته إلى مكان بعيد في الجبال، يقع على بعد أيام من السير. كان يرى أنه من الصعب الاستيلاء عليه تقريبا، وتوجد به آثار قديمة تدعى تاقدمت. فأمر ببناء الدور فيها وأحضر إليها السكان من معسكر ومن مدن أخرى، وحرص على توسيعها وإعلاء مكانتها بصورة تتناسب مع مطامحه، فصار من عادته أن يقيم في هذه المنطقة ليشرف بنفسه على تنفيذ مشاريعه.

كانت الحملة على قسنطينة قد وقعت في أثناء ذلك، وقد أظهر المارشال كلوزيل بصفته موهبة عسكرية الكثير من الصمود والحيوية، ولكنه وجد نفسه بسبب نقص الوسائل والأمطار المتواصلة، التي تهاطلت مصادفة، مرغما بعد أيام من الهجمات الفاشلة على أن يدير ظهره لمدينة قسنطينة في 24 من شهر ديسمبر. وبعد عودته راح يبذل كل ما في وسعه لتعويض خسائره، فأخذ يعد العدة لحملة جديدة، ولكن الوزارة جعلته يحس بالهزيمة، التي حلت به، بصورة مضاعفة، وذلك عندما حرمته من فرصة القيام بذلك على النحو الجيد، الذي كان يريده، وفوتت عليه فرصة إعادة مجد الأسلحة الفرنسية فوق الأراضي الافريقية (الجزائرية) . فقد دعته إلى باريس في منتصف شهر يناير وأعفته في 12 فبراير من منصبه بصفته حاكما عاما، وعينت مكانه الفريق الكونت دامريمون *Damremont*، الذي كان في

قائد الفرقة العسكرية 8 في مرسيليا، وهو رجل يعود الفضل في اختيارها له إلى حظوته في القصر الملكي أكثر مما يعود إلى مواهبه الخاصة.

وتواصلت الاستعدادات في موانئ جنوب فرنسا بدون انقطاع وبجد ونشاط، وفي اللحظة التي كانت فيها الأنظار كلها متجهة إلى قسنطينة، أمرت الوزارة الفرنسية باستئناف الحرب ضد الأمير عبد القادر. وكانت مواقع الفرنسيين في مقاطعة وهران قد بدأت تعرف بعض البوادر الأولى للمطالبة بالتغيير. لذلك قررت الحكومة ألا تقوم بأي هجوم على قسنطينة قبل أن تضع قاعدة متينة لقضيتها مع الأمير عبد القادر، الذي يعد بصورة قاطعة خصمها الأول في بلاد البرابرة!

كان المنتصر في معركة السكاك، الجنرال بوجو، قد عاد إلى وهران في نهاية مارس عام 1937، وقد زود بوكالة كادت أن تجعله مستقلا استقلالا تاما عن الحاكم العام الجديد، الذي وصل إلى الجزائر في الأيام الأولى من شهر أبريل. وكانت هذه القاعدة المتمثلة في إرسال جنرالين مستقلين إلى الإيالة سببا في نشالة خصومة لم تخل من ضرر، كان من نتائجها عدم الاتفاق التام بين الرجلين، اللذين كان من المفروض أن يكون هما من وراء ذلك هدف واحد. فلئن كانت الإرادة متجهة إلى التغلب على الأمير، فقد كان على الجنرالين أن يمد أحدهما يده للآخر، لأن الأمير كان يسيطر على البلاد من مصب التافنة إلى أبواب الجزائر. فالقيام بهجوم جانبي من وهران والجزائر قصد التمويه، يحتم أن يلتقي الجيشان في داخل البلاد، ويظلا فترة طيلة في أرض المعركة، وعلى أحد الجنرالين أن يضع نفسه تحت قيادة الآخر وفقا لما قد يطرأ على المنطقة من ظروف وملابسات وأوضاع. عندئذ فقط يصبح من الممكن زعزعة سلطة الأمير وإرغام القبائل العربية على الانفصال عنه.

على أن الوزارة الفرنسية لم تعد لديها رغبة في القضاء على الأمير عبد القادر، ذلك أنها رجعت إلى سياسة ديبشيل وحرصت على أن تحتفظ به بصفته ممثلا لمجموع السلطة العربية وتعقد معاهدة معه. وعندئذ يمكن في تصورها أن يكون لها في هذه السلطة سند، لا يمكن أبدا أن يهدد الأسلحة الفرنسية. ولكي تتوصل إلى الحصول على أنسب الشروط لعقد هذه المعاهدة، أرسلت إلى وهران جنرالا حازما معروفا في المقاطعة على رأس جيش معتبر، يستطيع أن يقف في وجه الأمير بقوة، إذا تطلبت الظروف القيام بعمل حربي من هذا النوع.

عندما وصل الجنرال بوجو إلى وهران كان قائد حاميتها هو الجنرال بروسارد Brossard، وكان قد خلف الجنرال ليتان، الذي كان قد دعي للعودة إلى فرنسا. وجاء الجنرالان ليدي

Lalder ورولير [illegible] لتحول كل منهما [illegible] كتيبة في جيش الحملة، الذي يتكون من 6800 من المشاة، و 1400 حصان، ومدفعين جبليين، ومعدات لبناء الجسور. ومدفعية احتياطية، وكتيبة من فرق المهندسين، ورجال الدرك والإسعاف والعمال إلى جانب قافلة من المواد الغذائية تكفي 40 يوما. وقسمت الفرق إلى ثلاثة ألوية، الأول بقيادة الجنرال ليدي، والثاني بقيادة الجنرال رولير، والثالث بقيادة العقيد كامب، أما العقيد موسيون Maussion فقد عين رئيس أركان الجنرال بوجو. ولكي يتم الدفاع عن مدينة وهران بشكل أفضل وضعت في حالة حصار وأسندت القيادة فيها أثناء الحملة إلى الجنرال بروسار.

كان وضع الفرنسيين في داخل المقاطعة قد تغير في أثناء ذلك بصورة معتبرة، فقد كانت هناك مفاوضات مع الأمير عبد القادر حول تموين تلمسان بالمواد الغذائية، تسببت في هدنة ظاهرية، غير أن الفرنسيين ظلوا مع ذلك محاصرين في كل الحصون التي كانوا يحتلونها، وما من أحد كان يتجرأ على اجتياز الخطوط، التي تلي معسكراتهم دون أن يعرض نفسه لقطع رأسه. وكان الأمير عبد القادر قد زود في شهر مارس تلمسان بالقمح والأبقار مقايضة بالحديد والمال والتسريح الوهمي لأسرى معركة السكاك من الفرنسيين. وقد تمت هذه العمليات التجارية بواسطة اليهودي بن دوران والجنرال بروسارد. وكان الجنرال بروسارد، وهو ماركيز قديم مفلس سيء الطبع، قد استغل هذه الفرصة لفائدة مالية تخصه هو. فاعطى بتسليم الأسرى العرب إلى الأمير عبد القادر وعدا نظير مبلغ من المال. وكان يأمل أن يتم ذلك على أساس أن المعاهدة ستتم قطعا، وكان يعلم أن الجنرال بوجو يميل إلى عقد هذه المعاهدة.

كان الجنرال بوجو قد أعد العدة لذلك في جيشه، إذ كان يأمل أن تخول له أقصى ما يمكن من الحركة. وكان يعتقد أن في وسعه بلوغ ذلك إن هو اقتصر على استعمال الدواب والاستغناء عن استعمال العربات. فوضعت المدافع الجبلية فوق البغال، وقد أعدت الإسعافات، التي تتضمن حمالات وكراسي المرضى، بحيث يوضع فوق كل جانب من جانبي البغل جريح أو مريض ويستريح فوقها جالسا أو نائما. وحمل الموكب على 500 جمل إلى جانب عدد كبير من الخيول والحمير التي استعملت لذلك، حتى الثيران المخصصة للذبح، التي كانت تتبع الجيش، استعملت للنقل، وقد كون هذا كله طابورا لا حصر له ولا حد لامتداده. أما ما يتصل بألبسة الجنود وأمتعتهم فلم يحمل منه إلا ما تقتضيه الضرورة والتموين. كان المشاة يرتدون ألبسة قصيرة وقبعات الميدان برفارف كبيرة، ونزعت عنهم أغمدة الحراب وسنج البنادق، وحلت حافظة خراطيش معلقة في الحزام محل الحافظة العادية.

ولم يكن هناك غير القليل من التجهيزات. وما من مكان حل به الجنرال بوجو إلا أظهر عناية خاصة بالتقليل من معاناة الجنود من نقص المواد والمتاعب الكبرى، التي كان على سلاح المشاة تحملها في كل حرب أكثر من غيرها. ولم يقبل في جيش الحملة غير الجنود الأشداء، ولم يعترف أحد، كما كان يحدث في السابق، بأن المرضى، الذين لم يكونوا قد أبلوا من أدوائهم تماما، كانوا يغادرون المستشفيات ويسرعون إلى الصفوف بمجرد أن يسمعوا صوت نفير الحرب. وحدد نظام السير بدقة، وفي 15 من شهر ماي خرج الجيش إلى ميدان المعركة.

كان الأمير عبد القادر طيلة هذه المدة كلها على علم بجميع التفاصيل المتعلقة بما يبيته له الفرنسيون ، فقد كان له في وهران وفي الجزائر، بل حتى في باريس نفسها، وسطاؤه وعيونه المأجورون، بعضهم سري وبعضهم الآخر لا يخفى أمره على أحد من المسئولين . كانوا يعرفون تمام المعرفة كل مواقف الجنرالات الحاكمين في الجزائر ووهران وطريق تفكيرهم واهتماماتهم كما يعرفون اتجاهات الوزارة الفرنسية ومدى ما لمجلس النواب من أثر في اتخاذ القارارات والتدابير ووضع الخطط والمشاريع. فلم يكن الجنرال بوجو في وهران ليستطيع وضع أي مشروع دون أن يتلقى الأمير عبد القادر خبره خلال 24 ساعة. حتى أحاديث الجنرال مع من حوله كانت تصله، وكثيرا ما كان ذلك ذا أهمية كبيرة بالنسبة إليه. ذلك أن الجنرال بوجو كانت له رغبة خاصة في إثارة المسائل العسكرية عند كل مناسبة، ولم يكن يناقشها بدون تحفظ في الحديث عما يريد أن يفعله في محاربة الأمير فقط، وإنما كان يتحدث أيضا عما سيفعله الأمير للدفاع عن نفسه.

كان الجنرال بوجو قد أمر، قبل أن يتجه إلى الميدان، عددا من الفرسان العرب بتوزيع بعض المنشورات في أراضي أعدائه من العرب، ولكن هذه المنشورات لم يكن لها الأثر المنشود، فقد تولى مرابطو قبيلة الغرابة الإجابة عنها بالكلمات الآتية، التي أرادوا منها حمل الفرنسيين على عدم الثقة في حلفائهم من العرب: " إن رسالتك لتظهر لنا مدى قلة ما تملكه من العقل. فتهديداتك لا معنى لها. والأرض كبيرة، وهي بالنسبة إلينا مفتوحة على جميع جهاتها. إياك أن تتكل على أصدقائك من الدوائر والزمالة، فهم يسرقون ثيرانك ونعاجك ويحملونها إلينا، ويقتلون جنودك غيلة وغدرا، ويقطعون رؤوسهم، ويبيعوننا أسلحتهم وألبستهم، ويوهمونك أن الغرابة هم الذين يفعلون ذلك."

دعا الأمير عبد القادر، الذي كان على علم بنية الجنرال بوجو في السير إلى تلمسان والتافنة، كل قبائل الغرب إلى حمل السلاح، وأقام معسكره في وهدة وادي يسر على بعد

أميال من تلمسان. وأمر كل الدوائر ، الذين كانوا على طريق الفرنسيين، بمغادرة المنطقة ونقل ما فيها من الخيام وقطعان الماشية إلى الجبال لتكون في أمان، ولم يتعرض للفرنسيين وهو في طريقهم مدينة تلمسان .

وعبر الجنرال بوجو ميسرغين في 16 ماي، ووادي المالح في 17منه، ووادي سنان في 18 منه، ووصل وادي يسر في يوم 19 منه. وكانت الطوابير الفرنسية قد مرت بجميع المسافات، التي قطعتها في اتجاه تلمسان في مرات سابقة، ولذلك كانت خالية من الدور والمزارع. وفي 19 من شهر ماي هاجمت سرية من الفرسان العرب مؤخرة الجيش الفرنسي، وأطلقت عليها النار من مسافة بعيدة، وتبعت الطابور رغبة منها في الاستيلاء على ما يمكن أن يضيع منه في الطريق. وعند عبور وادي يسر كانت القوات العربية تحتل المرتفعات المقابلة له، فهاجمها مصطفى بن اسماعيل بجيشه الوحشي وعاد إلى المعسكر حاملا رأسا فوق ماسورة بندقيته.

و في يوم 30 ماي تم عبور *Amegle* 55)، فالتقى النقيب كافنياك ، الذي كان يقود القسم الأكبر من حامية المشور عند وادي الصفصاف بالجنرال بوجو. وكان الالتقاء بالمواطنين قد أثار فرحة عارمة في النفوس، خصوصا عندما أخبرهم الجنرال أن الملك قد وافق على مكافآت الترقية التي وعد بها الحامية، وعلى وضع لواء جديد في قلعة المشور وتحويل اللواء القديم إلى جيش من الزواوة مع رفع رواتبه. وكان باي تلمسان مصطفى بن مكالش قد جاء بدوره مع حاشيته وكتيبة من الكراغلة والحضر لملاقاة الجنرال. وتم عبور وادي الصفصاف فوق جسر حجري فاخر ـ معلم أثري يعود إلى أيام السيادة الإسبانية على البلاد ـ واعترت الجميع فرحة كبيرة، لأنهم وجدوا أنفسهم في أراضي تلمسان الخصبة، التي تمتلئ في هذا الوقت من السنة بالنباتات الوفيرة. وأقيم المعسكر في غابة كبيرة من أشجار الزيتون، واتخذ الجنرال بوجو مقره في قلعة المشور، التي كانت قد تلقت تموينات جديدة. وحل فيلق المشاة 47 بقيادة العقيد سمونفيل *Simonville*، محل فيلق المتطوعين، الذي كان يقوده العقيد كافنياك. وكان قاضي تلمسان، سيدي حمادي بن سقال، قد سجن أربعة أشهر بسبب رسالة سرية، كان قد وجهها إلى الأمير عبد القادر واكتشفها العقيد كافنياك. فأطلق سراحه عند وصول الجنرال بوجو، وكان عليه أن يتوجه إلى معسكر الأمير ليخبره بمفاوضات الصلح التي يطالب بها الجنرال.

سار الجيش الفرنسي من تلمسان في 21 من الشهر، وبلغ مصب التافنة في 23 منه بعد أن قطع مناطق جبلية شديدة الوعورة، لكنه عثر في كثير من الأماكن على حقول كبيرة من القمح وأكواخ، كانت القبائل قد تخلت عنها قبل فترة قليلة.

عندما وصل الجيش إلى التافنة، بدأ في هدم تلك الحصون، التي كلفت الفرنسيين كثيرا من الدماء وكثيرا من الأموال. وكانت الوزارة الفرنسية قد أمرت بالتخلي عن البنايات، التي لم تعد لها أهمية كبيرة. كانت قد اقتنعت الآن بأن المواصلات المباشرة مع تلمسان، التي كان الفرنسيون يريدون إقامتها بواسطة هذه البنايات، من الصعب تحقيقها نظرا لصعوبة الأراضي من جهة، ولما في طبائع سكانها من إباء وعناد من جهة أخرى. وكانوا يريدون الاحتفاظ بجزيرة رشقون وحدها حتى تتم لهم السيطرة على الساحل، وهي صخرة بركانية ناتئة عارية، تقع على بعد 4000 خطوة من مصب التافنة.

لم تكن مضامين الرسائل، التي تلقاها الجنرال بوجو من النقاط الأخرى في الإيالة، سلمية على الإطلاق. كانت قد وقعت للحاكم العام قضية مع العرب في سهل المتيجة، وكان لواء وهران قد دعي ليلة 12 ماي إلى حمل السلاح، وكان السبب في ذلك هجمة وقعت على خيام قبيلتي الدوائر والزمالة، التي تركها الفرنسيون تحت حماية مدفعية وهران. كان أعداؤهم من العرب قد هاجموهما وأطلقوا النار على الخيام، فألحقوا الجراح بالشيوخ والنساء الأطفال وأخذوا الكثير منهم معهم قبل أن يتمكن لواء الجيش الفرنسي من مساعدتهم.

كان جيش الحملة، الذي كان ينوي الحرب طبعا، يأمل أن تكون نتيجة هذه الأخبار القيام بحملة في داخل البلاد، ولكن الظروف سرعان ما جعلت الحدث يتجه اتجاها معاكسا. فقد اعتذر الأمير بأن الذي حدث كان قد تم دون علمه، وكان الجنرال الفرنسي قد وضع الصلح نصب عينيه وفقا لتعاليم الوزارة، يضاف إلى ذلك أن الأوضاع نفسها لم تكن ملائمة للقيام بحملة جديدة.

كان الجنرال بوجو، الذي كان فخورا بأنه قد كون أقدر طابور فرنسي على النشاط والحركة، لم تعرفه أفريقيا (الجزائر) أبدا، قد وجد نفسه فضلا عن ذلك في موقف حرج عند وصوله إلى التافنة فيما يتصل بوسائل التموين. فكلما كانت نظرية نظام ما أكمل، كان من الواجب عادة أن يتم تطبيقها بكثير من الدقة والعناية. ولم يكن الجنرال، كما سبق القول، قد أخذ معه العربات، وإنما اقتصر على دواب النقل. ولكي يقوم بهذه الحركة، كان ينبغي أن تكون هذه الحيوانات قوية، وأن تكون لها السن المناسبة، وأن يتم علفها بصورة جيدة، وأن تكون صناديق النقل ذات تركيب محكم، أن تحتل مكانها الصحيح وأن تكون محشوة على نحو أفضل قدر الإمكان. ولكي يتم هذا كان ينبغي أن يكون للمرء ما يستلزم ذلك من وقت ومناسبة وتجربة، وهو ما يعوز جيش الحملة . كان نظام النقل شبه ارتجالي، يضاف إلى ذلك أن

سوق دواب النقل كان يتطلب من المختصين حسن النية، وهو ما لا يستطيع المرء العثور عليه في الجيش الفرنسي.

كانت إحدى نتائج هذه المطالب، التي لم يتم توفيرها، أن جيش الحملة تخلى في كل معسكر تقريبا عن بغال نال منها التعب والوهن، فلم يبق له منها عند وصوله إلى التافنة سوى 276 بغلا لم تكن حالتها لتسمح باستعمالها في كل الأحوال. فكان لا بد من تغيير خطة الجنرال، فبدل أن يأخذ قافلة تسمح بتموين الميدان مدة 40 يوما، اقتصر على أخذ ما يكفي مدة 14 يوما لا غير، ولم تكن أوضاع الفرق على ما يرام أيضا. حقا لم يجرح في الطريق أي فرد من أفراد الجيش، ولكن عدد المرضى كان قد ارتفع بصورة معتبرة، وكان من المنتظر أن ينمو عددهم يوميا باعتبار موسم الحرارة المقبل. كانت رطوبة ليالي المعسكرات وبرودتها بعد حرارة النهار تضعفان الجنود وتسببان لهم الحمى. وكان تغير الحرارة من 3 درجات صباحا إلى 12 درجة ظهرا ينتقل في بعض الأحايين من 7 درجات إلى 38 درجة (مئوية)، أي إلى 31 درجة. وهكذا لم يكن له في أغلب الظن أن ينتظر من هذه الحملة فائدة أكبر من فائدة الحملة السابقة. ولهذه الأسباب كان الجنرال في غاية الرضا عندما وصل إليه سيدي حمادي بن سقال من معسكر الأمير ومعه مقترحاته المتعلقة بالصلح. وأعاده الجنرال في اليوم الموالي إلى معسكر الأمير، الذي كان يقع في على بعد 6 أميال في اتجاه البرج. وعاد من هناك في المساء نفسه وأرسل إلى الأمير من جديد في 27 من الشهر برفقة مساعد النقيب سينا *Cynard* ، مساعد الجنرال بوجو، وفروسارد *Frossard* من الحرس الباريسي، الذي أذن له الجنرال بالانضمام إلى الموكب.

استقبل الأمير المبعوث الفرنسي وسط جيشه وهو جالس أمام خيمته فوق بساط، كان هو الوحيد المبسوط في الخيمة. وبعد أن قدم له النقيب سينار رسائل الجنرال العاجلة وقدم له التوضيحات الشفهية، التي طلبها الأمير، جهزت له خيمة قضى فيها ليلته وحظي بمعاملة ممتازة. وشعر الضباط الفرنسيون حين زارهم هنالك عريف فرنسي، يدعى مونسل *Moncel*، كان قد فر إلى الأمير عبد القادر وأصبح مسلما. كان مونسل هذا قد اتهم تهمة فظيعة تتمثل في أنه نقش اسمه الدموي، بعد معركة وقعت في سهل المتيجة وقتل فيها بعض الفرنسيين، بخنجره في جثة قتيل من مواطنيه 56).

عاد المبعوثون في اليوم الموالي إلى التافنة ومعهم بعض رسل الأمير، كان من بينهم شيخ القبائل بوحمدين (البوحميدي)، وجرت المفاوضات بسرعة، إلا أنه كانت هناك مسائل كان الجنرال يريد أن يتحدث فيها مع الأمير بنفسه، ولذلك تم الاتفاق على اللقاء بين

الرنيسين في أول يونية، وكان من المقرر أن يكون مكان اللقاء على بعد بضعة أميال من المعسكر الفرنسي.

لقد سمح الأمير عبد القادر للجنرال بوجو ما لم يكن ليسمح به قبل ذلك أبدا للجنرال ديميشيل، لكن السبب في ذلك يعود إلى رغبته في أن يظهر لجموع الفرق، التي جمعها حوله، وأن يذلل جميع الصعوبات، ويحول دون تلك التفسيرات الخاطئة، التي تسببت فيها معاهدة الصلح السابقة.

وفي 31 من شهر ماي أمر الجنرال بوجو الفرق التالية أن تكون مستعدة للسير في الخامسة صباحا، وهي: كتيبتان من كل لواء من الوية المشاة، والخيالة كلها إضافة إلى 12 مدفعا جبليا بكامل ذخيرتها، وأن تكون كلها على أتم الاستعداد، بينما بقي غيرها لحماية المعسكر والدفاع عنه. وبقي العجوز مصطفي بن إسماعيل، عدو الأمير اللدود، في المعسكر، لأنه لم يكن يريد مصافحة الأمير عبد القادر، وكان ذلك، كما يفهم من تلك الأوضاع، هو الغرض من سير الجيش إليه.

الفصل الثاني عشر

في أول يونية تحرك الجيش في الخامسة والنصف صباحا، ووصل في العاشرة والنصف إلى مقطع (معبر) التافنة، الذي حدد موعدا للقاء. وهناك التقى بأربعة من فرسان الأمير مع بعض الثيران، عرضت على الجيش الفرنسي، ولكنه لم يستعملها، لأنه لم يكن يحمل معه أدوات الطبخ.

ووضع الجنرال جيشه في الضفة اليمنى من التافنة وقد نظمت صفوفه لخوض المعركة، وانتظر في هذا الموقع وصول الأمير عبد القادر، الذي كان في أثناء ذلك يسير بصورة بطيئة، إذ كان عليه أن يقطع مسافة أطول من المسافة، التي قطعها الفرنسيون، ثم إن هناك حادثة وقعت خلال اليوم حالت دون الإسراع في سيره. كان مبعوث الأمير عبد القادر، الذي رافق الجيش الفرنسي، قد طلب محادثة الجنرال بوجو وقدم له رسالة، تسائل فيها الأمير بإسهاب كبير عن شروط تتعلق بقضايا مختلفة، منها بيع البارود والأسلحة وغير ذلك، وهو ما لم يتم الحديث عنه ومناقشته بصورة مفصلة من الجانبين في مسودة المعاهدة، التي كان الأمير عبد القادر قد وضع ختمه عليها. لقد ثار الجنرال، الذي كان أقدر على العمل العسكري منه على الصبر والرزانة في المفاوضات، بسبب هذه المصاعب، التي وقفت حجر عثرة أكثر من مرة، وأجاب مبعوث الأمير بإيجاز أنه غير راض إطلاقا عن هذه العراقيل، التي يضعها الأمير في طريقه، فإذا كان لا ينوي أن يتفاوض معه بصراحة وصدق ولا يريد أن يتقدم إليه بشروطه دفعة واحدة، فإنه سيأتي هو (الجنرال بوجو) بجيش، لا يشكل في الحقيقة سوى نصف جيشه، ولكنه مستعد في هذه اللحظة لحسم الأمر عن طريق السلاح، فالظروف مناسبة لذلك تماما 57).

بعد أن أعطى الجنرال بوجو هذا الجواب إلى مبعوث الأمير، أدار حصانه وروى ما حدث هيئة أركانه، فرأوا أن جوابه يليق بجنرال فرنسي وأن هذا اليوم لم يمر دون أن يخوضوا فيه معركة جدية مع العرب. إلى هذا الحد كان قد اقترب السلم النهائي والمعركة الدموية من بعضهما البعض. فاجتمع رسل الأمير فترة قصيرة بعد أن تلقوا جواب الجنرال بوجو وتشاوروا فيما بينهم، ثم ركضوا بخيولهم ليلحقوا بالأمير ونقلوا إليه ما وقع. وكان الجيش الفرنسي قد انتظر 5 ساعات عند مقطع التافنة دون أن يروا أثرا لا للأمير ولا لرجاله. وفي الساعة الثانية وصل عدد من العرب، الذين كانوا قد شهدوا في المعسكر في اليوم الماضي

وأخبروا الجنرال أن الأمير قادم بنوايا سلمية وأنه لم يعد بعيدا، ولكنه كان مريضا ولم يبدأ جيشه السير إلا في وقت متأخر- وقدموا اعتذارات أخرى من هذا القبيل. فأرسل الجنرال مترجمه أمامه، وتم تبادل مختلف الرسل بين المعسكر الفرنسي والمعسكر العربي دون أن يشاهد أحدهما الآخر نظرا لطبيعة المنطقة الجبلية المهيبة، التي لم تكن تسمح بالنظر بعيدا.

في حوالي الساعة 5 خشي الجنرال بوجو أن يكون قد أضاع اللقاء المتفق عليه تماما. لذلك تقدم إلى الأمام بصحبة سرية تتكون من 20 ضابطا. وجاء مبعوث من المعسكر العربي وطلب من الجنرال بوجو أن يواصل سيره وأخبره أنه سيلتقي بالأمير بعد حين. وسار الجنرال بوجو استجابة لهذا الطلب خطوة مع سريته الصغيرة حتى ابتعد عن جيشه بحولي نصف ميل. عندئذ وصل شيخ قبائل التافنة بوحميدين (البوحميدي) وأخبر الجنرال أن سيده خلف هذا التل الصغير، وأشار إلى التل بيده. واتسع المنظر من تلك النقطة بحيث ظهر جيش الأمير بكامله وهو يسير في خطوط طويلة فوق الجبال الواسعة. وما كاد الجنرال، الذي سار خلف بوحميدين صوب هذا المكان، يبلغ رأس التل، حتى استقبله جمع غفير من الفرسان العرب، وكان الأمير يتقدم 150 من الشيوخ والمرابطين.

كان الجنرال بوجو في تلك اللحظة قد انفصل تماما عن جيشه، لا يكاد آخر موقع من مواقع الحراسة فوق القمم الجبلية في المؤخرة، فكان وسط الجيش العربي تقريبا. كان هذا الموقع شيئا غريبا بالنسبة لجنرال فرنسي في إفريقيا (الجزائر)، التي لم يتعود فيها المرء أبدا على التمتع بالضيافة العربية ولم يكن هو نفسه قد قدم الدليل على أنه ضيف طيب صادق الكلمة. وعبر الجنرال عن استيائه من هذا الوضع، وطلب من رئيس أركانه، العقيد موسيون، وحاشية قائده، أن يهيئوا مسدساتهم لكي يطلق النار كلهم على الأمير عبد القادر فيما إذا ظهر ما يدل على خيانته.

لكن الأمير ورجاله قدموا مشهدا في منتهى الروعة، فقد كان للرؤساء العرب كلهم مظهر حربي مهيب. كانت وجوههم السمراء الرزينة النحيفة متلائمة مع ألبستهم الشرقية البيضاء الفاخرة، فلم يكن النظر ليخطئ خيولهم الرائعة، والبراعة، التي كنوا يقودونها بها. كان الأمير عبد القادر قد وقف إلى الأمام فوق حصان أسود رائع الجمال على بعد خطوات من بقية رجاله، فاقترب من الجنرال بوجو، وقد جعل حصانه يحني كفله ثم يثب وثبات قوية إلى الأمام ، وكان ستة من خدمه أو عبيده ماسكين بسرجه في أثناء ذلك، وأخذت جوقة تعزف موسيقى عربية رتيبة وترقص خلف حصانه. وما أن رأى الجنرال بوجو أن الأمير مقبل نحوه، حتى

ركض نحوه بحصانه، وحين وصل إليه، سأله عما إذا كان هو الأمير عبد القادر نفسه. ولما رد بالإيجاب، مد الجنرال إليه يده وصافحه، فبدأ بعد ذلك تبادل عبارات الترحيب، التي قطعها الأمير بسرعة، ونزل عن ظهر فرسه بمساعدة رجاله، وتربع فوق الأرض. فنزل الجنرال بوجو بدوره عن ظهر حصانه، وجلس قرب الأمير وقد جلس المترجم أمامه.

بعدئذ أخرجت المعاهدة ونقشت كل نقطة فيها بندا. وتم الاتفاق فيما يتصل ببيع البارود والأسلحة والاحتياجات الحربية على أن الأمير عبد القادر يستطيع أن ينال كل ما يريده من فرنسا بأسعار المصانع الجارية. وبعدها مباشرة طرحت قضية إخلاء مدينة تلمسان، وقد أصر الأمير على أن تعاد إليه هذه المدينة في أقرب وقت ممكن، وطلب من الجنرال بوجو أن يسمح بإخلائها في الحال. لكن الجنرال أخبره أن ذلك لا يمكن أن يتم قبل موافقة الفرنسيين على المعاهدة وأن ذلك يستلزم من الوقت حوالي 3 أسابيع. وسأل الأمير عما إذا كان يستطيع أن يضمن لحامية تلمسان الصغيرة، فيما إذا ظهر لها أن تغادرها، التوجه إلى وهران أو إلى أي مكان آخر تحدده دون أن يمنعها أحد من تحقيق رغبتها. فوافق الأمير على ذلك ووعد بأن يرسل حرسا لمرافقتها، وعبر عن رغبته في أن يتفاوض هو نفسه مع ملك فرنسا، فذلك أضمن لاستقرار السلم، وعبر له عن استيائه لرؤيته جنرالا فرنسيا ينقض ما كان قد اتفق هو عليه مع جنرال فرنسي آخر، وذلك عندما نقض الجنرال تريزيل المعاهدة، التي عقدها مع الجنرال ديميشيل.

رد الجنرال بوجو على ذلك بأن معاهدة الصلح ستقدم للملك للموافقة عليها، وفي ذلك ضمان للالتزام بها. وعندما تطرق الجنرال إلى الحديث عن قضية الأسرى، أجابه الأمير بأنه لا يطالب بذلك إلا إذا كان الفرنسيون يريدون أن يلتزموا بهذا الشرط نفسه. وأضاف قائلا: " إن أفضل ضمان لكم على الالتزام بمعاهدة الصلح هو عادات العرب وقوانينهم ، فهي تحتم علينا أن نفي بما نلزم به أنفسنا، ولم يسبق لي أن خنت عهدي أو أخلفت وعدي."

وأعرب الأمير عن أمله في ألا تكون الأحداث، التي قد تحدث مصادفة ولا تكون لها قليلة أهمية كبيرة، مانعا من مواصلة مفاوضات السلام، فإذا ما حدث مثلا بصورة مفردة وقتل بعض الفرنسيين، فلا ينبغي أن تقع مسئولية ذلك عليه، كما أنه لن يقيم هو نفسه وزنا إن هم أتلفوا أثناء سيرهم هذا الحقل أو ذاك من حقول القمح العربية أو حرقوه. وأشار الجنرال بوجو في بداية حديثه أنه كان يأمل أن يقرب الجيشان من بعضهما البعض بشكل أكثر خلال هذا اللقاء حتى يتآخوا بهذه الطريقة. فتهرب الأمير من الجواب على ذلك وأشار إلى أنه كان يود ذلك أيضا لو لم يوشك اليوم على نهايته.

استغرق اللقاء حوالي نصف ساعة، وقفت خلالها كل حاشية خلف رئيسها على بعد 30 خطوة، وقد شكلت نصف دائرة، كان الجميع يتأملون في صمت عميق، يليق بما كان لهذا اللقاء من أهمية.

كانت المشاعر، التي اعتملت في نفوس العرب، ترتسم على ملامح وجوههم الرزينة بصورة معبرة. لقد كان الحدث من الأهمية بمكان بالنسبة إلى رئيس القبائل العربية وإلى سلطته الأبوية على البلاد. لقد كان من الضروري أن يتم بهذه المناسبة الاعتراف من جديد بالوطنية العربية الناشئة، وأن تخضع علاقات القبائل الأبوية، المستقلة، الفوضوية في بعض الأحيان، لإجراءات في غاية الأهمية، وأن توضع مقاليد الأمور بيد رجل مختار، وأن تحل العمليات التجارية الهادئة محل العمليات الحربية المدمرة.

أما حاشية الجنرال فلم تساورها مصالح وطنية من هذا النوع، ولم يحافظ الفرنسيون إلا على مظهرهم العسكري المحدد، واكتفوا بملاحظة ما صاحب هذا اللقاء كله من روعة وأبهة. فقد كان من المغامرة بالنسبة إليهم أن يقفوا بعد 40 ميلا داخل إفريقيا (الجزائر) أمام هذا الأمير الشاب الشهير، يحيط بهم سادة جبال الأطلس والصحراء، الذين كانوا قبل حين أعداء لهم ، جاءوا لمحاربتهم.

كان صديق الأمير عبد القادر وأمين سره، بن عراش، قد وقف خلال اللقاء كله إلى جانب الأمير، حتى إنه تجرأ أمامه على رفع صوته مرة حين دار الحديث حول إخلاء مدينة تلمسان، فقد كان يعرف مدى حرص الأمير على ذلك. أما بن نونة، القائد الأعلى لجيش الأمير، فقد وقف، بناء على ما تقتضيه رتبته، على مسافة قليلة خلف بن عراش، ولكن ما أن أراد شيخ القبيلة، بوحمدين (البوحميدي)، أن يقترب بحصانه، حتى رمى إليه الأمير بنظرة، جعلته يعيد حصانه إلى الصف بجانب الشيوخ الآخرين. كانت أنظار العرب كلها متجهة إلى الأمير عبد القادر، أما الهيبة، التي تظهرها له حاشيته، فهي شرقية تماما.

ومظهر الأمير الخارجي شيق أكثر مما هو جميل، وهو ربع الطول، جميل الهيئة، يبدو على وجهه الشباب، الذي لا يتلاءم مع ملامحه، التي تظهر عليها الجدية والرزانة في معظم الأحيان، ولا مع لونه الشاحب. وعيناه الجميلتان الذكيتان ليستا سوداوين بالدرجة التي تبدو عليها عيون العرب عادة، ولحيته ليست كثيفة، ولكنها غرابية اللون، ويداه صغيرتان بيضاوان بشكل لافت للنظر - فهو جمال يوليه أعيان العرب قيمة كبيرة -، ورأسه يميل قليلا نحو

الكتف اليسرى. أما ابتسامته، على ندرتها ، فتتسم باللطف الكبير. ومعالم الوجه كله ظريفة، تترك في النفس انطباعا لطيفا، ولها ملمح معين من القداسة يمكن أن تكون مفترضة فيه. ولذلك يبدو مركزه الديني، أي مركز الأمير بصفته مرابطا، بشكل أكثر وضوحا من مركزه بصفته محاربا. ومن هنا لم يخطئ ذلك الذي شبهه بتلك الصورة المأثورة عن السيد المسيح. ولباس الأمير في منتهى البساطة، يشبه تماما اللباس، الذي يرتديه العربي البسيط، من غير علامة مميزة، وهو يرتدي برنسا أسود وتحته برنس آخر أبيض. وكان سلاحه وحصانه الشيء الوحيد، الذي يستنتج منه المرء أنه رئيس.

لم يستنكف هذا الرجل الكثير المواهب تنمية مهاراته الجسدية، فهو يتحكم في سلاحه وفي حصانه الجريء بصورة بالغة الكمال، وتمتاز حركته بالطلاقة والخفة. وقد جعلته وظائف الحياة العديدة، التي وجد نفسه فيها، وكذلك مشاعره الدينية السامية، التي امتلأت بها نفسه، يتصرف في كل الظروف والأحوال تصرفا طبيعيا بسيطا.

بعد انتهاء المقابلة، قام أولا الجنرال بوجو، وتم تبادل كلمات أخرى في حين ظل الأمير عبد القادر جالسا. أخيرا قدم له الجنرال يده لمساعدته على النهوض، فنهض الأمير مبتسما وامتطى صهوة حصانه بمساعدة خدمه، وانسحب على أنغام الطبول والموسيقى والرقصات مثلما جاء. وما أن التفت الأمير إلى قواته، حتى استقبلته أقربها إليه بهتافات بهيجة، رددت أصداءها الجبال، التي تمركزت فوقها. وكان يبدو كأن السماء أرادت أن تزيد من بهجة هذا المشهد وروعته، فقد قصف الرعد في تلك اللحظة نفسها، فأحدثت أصداؤه أثرا بديعا في الجبال.

ركب الجنرال بوجو حصانه بعد حين أيضا، واقترب من هيئة أركانه وهو ينطق بهذه الكلمات : " *Comme il est fier, l'Emir !* = لكم هو متكبر، الأمير ! " وقبل أن يبرح مكانه، تأمل الجيش العربي بضع لحظات. لعل هذا الجيش كان يتكون من حوالي 8000 إلى 9000 آلاف فارس مسلحين بالبنادق، ويمتد صفا واحدا فوق الجبال على امتداد ما يزيد عن ميل واحد. وكانت هناك إضافة إلى ذلك أعلام كبيرة خضراء وحمراء ترفرف فوق الجبال وقد التف حولها جمع غفير من المحاربين والأمتعة والجمال. وكان هناك أناس يرتدون برانس حمراء، يغلب على الظن أنهم محاربون مغاربة. فالظاهر أن السلطان عبد الرحمن، منعم الأمير عبد القادر، كان لا يزال يقدم له المساعدات رغم اعتراضات فرنسا المتكررة على ذلك. لقد شكل المشهد كله منظرا رائعا، فقد أشرقت الشمس من بين السحب والقت بأشعتها الأخيرة فوق المناطق الجبلية الشاسعة، التي حملت إليها الحياة هذه الجموع الكبيرة المحاربة، التي أخذت

عندئذ تسير في جميع الاتجاهات بناء على إشارة من ذلك الرجل الوحيد، الذي استطاع بقواه العقلية أن يجعل من إرادته إرادة للجميع.

أما جموع الجيش الفرنسي، فكانت تنتظر بفارغ الصبر رجوع الجنرال القائد، وكانت قد شيعته بنظرات مضطربة وهو في طريقه إلى وسط جيش عدوه، لا يرافقه سوى عدد قليل من الحرس. وكان القادة قد فكروا في إرسال كتيبة من الخيالة لمساعدة الحرس، ولكن الجنرال ليدي ، الذي تولى القيادة في غياب الجنرال بوجو،شعر بما قد يكون لذلك من عواقب، فعارض هذا الإجراء، الذي كان من شأنه أن يساهم في تعريض سلامة الجنرال نفسه للخطر. إن العزة والكرامة ، اللتين شعر بهما الأمير والعرب وهم يرون بينهم جنرال المسيحيين مع عدد قليل من ضباطه، والثقة بكلمة المسلمين وحدها، كانت في مثل هذه الظروف هي الضمان الوحيد لسلامة الجنرال.

لم يعد الجيش الفرنسي إلى معسكر التافنة إلا في وقت متأخر.

في 3 جويلية أرسل مساعد الجنرال، النقيب سينار، على ظهر الباخرة الأولى *Le Sphinx* بالمعاهدة إلى فرنسا. وقد تمت المصادقة عليها فيما بعد وتضمنت البنود الآتية:

البند الأول: يعترف الأمير عبد القادر بسيادة فرنسا في إفريقيا (الجزائر).

البند الثاني: تحتفظ فرنسا في مقاطعة وهران بما يلي: مستغانم وميسرغين وأراضيهما، ووهران وأرزيو، والمنطقة الممتدة في اتجاه الشرق، التي يحدها وادى المقطع ومستنقعاته، والخط الممتد من هذه المستنقعات على ضفة السبخة إلى الوادى المالح في اتجاه سيدي سعيد ومن هناك إلى البحر، بحيث تصبح كل الأراضي، التي توجد داخل هذه الحدود، منطقة فرنسية.

أما في الجزائر، فتحتفظ فرنسا بما يلي: الجزائر، والساحل، وسهل المتيجة، الذي يحده من الشرق وادي الخضرة 58)، ومن هناك في اتجاه الجنوب عبر سلسلة جبال الأطلس الأصغر حتى وادى الشفاء ومن ضمن ذلك البليدة وأراضيها، وفي اتجاه الغرب من وادى الشفاء إلى منحناه عند ماء الزعفران، ومن هناك في خط مستقيم يمتد حتى البحر ويشمل القليعة وأراضيها وهكذا بحيث يصبح كل ما يقع داخل هذه الحدود منطقة فرنسية.

البند الثالث: يحكم الأمير في مقاطعة وهران والتيطري وفي منطقة الجزائر القسم، الذي لا يقع داخل الحدود المرسومة في البند الأول، ولا يحق له أن يدخل قسما آخر من الإيالة.

البند الرابع: لن تكون للأمير السيادة على المسلمين، الذين يريدون الإقامة في الأراضي، التي احتفظت بها فرنسا، ويمكنهم التنقل في المناطق، التي يحكمها الأمير كما يمكن سكان أراضي الأمير الإقامة في المناطق الفرنسية بعد الموافقة على ذلك.

البند الخامس: يستطيع العرب، الذين يعيشون في الأراضي الفرنسية، ممارسة طقوسهم الدينية بحرية تامة، وبناء المساجد، والاحتفال بجميع أعيادهم الدينية تحت إشراف أئمتهم.

البند السادس: يتعهد الأمير بتزيد الجيش الفرنسي بما مقداره *30,000* مكيال وهراني من القمح، و*30,000* مكيال من الشعير و*5000* رأس من البقر، ويقدم لهم ذلك على ثلاث دفعات، الأولى منها فيما بين 1 و*15* من شهر سبتمبر *1937*، والباقيتان خلال فترة لا تتجاوز الشهرين.

البند السابع: يستطيع الأمير أن يشتري من فرنسا المقدار الذي يحتاج إليه من البارود والكبريت والسلاح.

البند الثامن: يحتفظ الكراغلة، الذين يريدون الإقامة في تلمسان أو في غيرها، بأملاكهم الخاصة، ويجب أن يعاملوا مثلما يعامل الحضر سواء بسواء. أما الذين يريدون الانسحاب من الأراضي الفرنسية، فيستطيعون بيع أملاكهم أو تأجيرها بكل حرية.

البند التاسع: تتنازل فرنسا للأمير عن رشقون 59) وتلمسان والمشور،إضافة إلى المدافع، التي كانت في السابق موجودة بهذه القلعة. ويتعهد الأمير بالسماح بنقل جميع الوثائق والذخيرة الحربية والمواد الغذائية الاحتياطية إلى وهران.

البند العاشر: ينبغي أن تكون هناك حرية التبادل التجاري بين العرب والفرنسيين، الذين يختارون الإقامة في أراضي الجانبين.

البند الحادي عشر: ينبغي أن يحترم العرب الفرنسيين كما يحترم الفرنسيون العرب. لا بد من المحافظة على سلامة الديار والممتلكات، التي يمتلكها الرعايا الفرنسيون أو يتوصلون إلى امتلاكها ، والاستفادة منها بصفة قانونية على الطريقة التي يرونها، ويتعهد الأمير بتعويض الخسارة، التي يمكن أن يلحقها بهم العرب.

البند الثاني عشر: ينبغي تسليم المجرمين، الذين يلجئون إلى الأراضي الأجنبية.

البند الثالث عشر: يتعهد الأمير بعدم التنازل عن نقاطه على الساحل لأية قوة دون موافقة الفرنسيين.

البند الرابع عشر: لا يجوز أن تتم الحركة التجارية في الإيالة إلا من خلال الموانئ، التي احتلتها فرنسا.

البند الخامس عشر: في إمكان فرنسا أن ترسل وكلاءها إلى المدن، التي تقع تحت سيطرة حكومة الأمير حتى يستطيعوا أن يكونوا وسطاء في النزاعات التجارية أو غيرها من الخصومات، التي يمكن أن تحدث بين الرعايا الفرنسيين والعرب.

وللأمير نفس الحق في المدن والموانئ الفرنسية.

التافنة، 30 ماي 1937

الجنرال بوجو — الأمير عبد القادر

الختم — الختم

وقد تم التفاهم، إضافة إلى هذه البنود، التي ذكرت في المعاهدة الرسمية، على شروط أخرى مفردة. منها أنه يجب أن يُسلم إلى الأمير رجاله، الذين وقعوا أسرى في يد الجنرال بوجو في معركة السكاك في 6 يونية 1936، فوصلوا إلى وهران 3 يونية، ومنها أرسلوا إلى بلاد الأمير. ومنها أيضا أنه كان قد تم الاتفاق على أن يقدم الأمير عبد القادر إلى الجنرال بوجو هدية تتضمن 200.000 فرنك، حدد الجنرال نصفها لإصلاح الطرق في المقاطعة، والنصف الثاني للمنطقة المحيطة به، ولكن هذا الاتفاق لم ينفذ لأن الجنرال لم يتلق الموافقة من الوزارة.

لا ينكر أن المعاهدة، التي تم عقدها، قد تضمنت بنودا مختلفة، كانت فيما يبدو في فائدة فرنسا، لا سيما ما يتصل من ذلك بالتجارة، وهي البنود التي لم تتضمنها معاهدة 26 أفريل 1934 بين الأمير عبد القادر والجنرال ديميشيل. على أنه اتضح فيما بعد أن هذه الفائدة كان قد قامت على سوء التفاهم بسبب الخطأ في ترجمة البنود المفردة وفي تفسيرها تفسيرا سيئا، فقد فسرها الأمير على طريقه الخاصة كما فسرها الفرنسيون على طريقتهم الخاصة. فالسيادة، التي احتفظت بها فرنسا في البند الأول، لم تكن متلائمة مع روح البند الثاني. واتضح مع الوقت أن سبب ذلك يعود إلى سوء التفاهم ، فالأمير عبد القادر لم يشعر بأن له ارتباطا بفرنسا من أي نوع كان 60).

وعلى العموم فإن المعاهدة لم يتم وضعها، فيما يبدو، طبقا لنظام يشمل كل ما يتصل بالممتلكات الجزائرية الفرنسية، فكيف يتناسب ذلك مع التخلي في منطقة (وهران) عن أهم

مدينة (تلمسان) في داخل البلاد، والاستيلاء في مقاطعة أخرى (قسنطينة) على أهم نقطة في الداخل. كان على الفرنسيين إما أن يتخلوا عن الأماكن التي تكلفهم غاليا أو يحتفظوا بها كلها.

ولم يتم كذلك تحديد المناطق، التي تم التنازل عنها لفرنسا بدقة وعناية، وهو موضوع قد يؤدي إلى نشوء نزاعات أخرى، كما أكده الزمن فيما بعد أيضا. هكذا كان سهل مليتة الواقع في السبخة، وهو معروف بخصوبته، من نصيب الأمير عبد القادر،مع أن هذا السهل كان منذ القديم المصدر الرئيسي لرفاهية حلفاء فرنسا من الدوائر والزمالة، وهم حلفاء فرنسا من العرب. فكان عليهم أن يعودوا إلى أراضيهم الواقعة في منطقة وهران، التي حل بها ما حل من خراب ودمار. وقد غاب عن الجنرال بوجو أيضا أن يحتفظ لفرنسا بالطريق الرابط بين أرزيو ومستغانم، بحيث أصبحت مستغانم نقطة منفصلة تماما عن بقية المناطق الفرنسية.

كان الأمير على العكس من ذلك قد درس معاهدة الصلح تماما وعزم على تنفيذ بنودها، وقد ظهر ذلك في بداية شهر جوان بعد أيام من عودة الجنرال بوجو إلى وهران. ذلك أن الجنرال كان قد قرر أن يتجه إلى مستغانم مع حرس قليل العدد، لكنه ما كاد يقطع مسافة استغرقت بضع ساعات، حتى لحق به رسول على عجل من الأمير، الذي كان يعرف دوما ما يقوم به الجنرال، يذكره بأنه لا يحق له أن يدخل منطقة المقطع وهو يحمل سلاحه، فقد تجمع هناك (على حد زعمه) عدد كبير من العرب المسلحين من القبائل المجاورة، وأنه لا يتحمل تبعات ذلك إذا ما دخل الجنرال أراضيهم. وقد قرر الجنرال في البداية ألا يأخذ ذلك بعين الاعتبار، ولكنه عدل عن ذلك بعد أن فكر في الأمر بدقة، إذ رأى أنه من الحكمة التخلي عن جولته هذه. وهكذا عاد إلى وهران بعد أن زار أرزيو وتعرف إلى حدودها الحقيقية. وكانت نتيجة ذلك أن الفرنسيين لم يعد في إمكانهم الوصول إلى مستغانم إلا برخصة خاصة من الأمير عبد القادر.

الفصل الثالث عشر

كان على الحاكم العام في الجزائر، الكونت دامريمون، أن يضمن في المستقبل بقاء معاهدة الصلح بصورة دائمة. وكان هذا الجنرال قد نظر بعين الغيرة والسخط إلى العمل المستقل الذي قام به الجنرال بوجو في مقاطعة من مقاطعات الإيالة، ولذلك لم يظهر الكثير من النشاط في التشجيع على بقاء الأوضاع المنظمة على الصورة التي هي عليها. من المؤكد أنه كان من التدبير المحكم أن يرسل من باريس جنرال مستقل عن الحاكم، يستطيع القيام بحملات في الإيالة، وعقد المعاهدات ورسم حدود للمنطقة الفرنسية، التي تحيط بمحل إقامة الحاكم العام، ومن ثم كان سقوط دامرمون قرب مدينة قسنطينة في 12 أكتوبر ملائما بالنسبة إلى المحافظة على المعاهدة، التي تم اكتسابها في غرب البلاد.

وتولى المارشال فالي *Valée* منصب الحاكم العام، ووقد كان في نيته أن يتمسك بمعاهدة التافنة، غير أنه سرعان ما رأى أن هناك ضرورة لإجراء مفاوضات جديدة قصد تفسير البنود المختلفة تفسيرا دقيقا. ولم يكن عليه في أثناء ذلك أن يهتم تقريبا بشيء آخر غير الفتح الجديد (احتلال مدينة قسنطينة)، الذي كان سببا في نجاحه، وكان له ما يكفيه من المصاعب في ذلك.

واستغل الأمير الصلح مع فرنسا في توسيع سلطته في داخل البلاد وتثبيتها، فأقام في تلمسان فترة طويلة لإزالة الفوضى، التي أوقعها العرب في هذه المدينة، فأدخل إصلاحات على قلعة المشور، وبنى الدور وعمر المدينة من جديد، وحاول أن يجعل منها النقطة المهمة، التي يهيئها لها موقعها الممتاز .

استمرت على الحدود الفرنسية بعد النزاعات الصغيرة، خصوصا ما كانت تقوم به بعض القبائل، التي كانت تقيم في نواحي مدينة المدية. وقد حاول الأمير تهدئتها، إلا أنه كان من الصعب أن يسلم الإنسان من هجمات العرب وغزواتهم المعزولة حتى في حالة الصلح التام معهم، وكان ذلك ناتجا عن الوضع المستقل، الذي تعيش فيه تلك القبائل المنعزلة . فعزل الأمير اخاه، سيدى مصطفي، من المدية لطيشه وسوء سلوكه، وعين مكانه البركاني. من هذا نرى أن الأمير عبد القادر لم يتسامح حتى مع أقربائه حين يتعلق الأمر بالمحافظة على النظام والعدل.

كان ينبغي للأمير بناء على المعاهدة إرسال قنصل أو وكيل إلى وهران، فعهد بهذا المنصب إلى الحاج الحبيب بن الموهور61) وأرسل الفرنسيون من جانبهم قنصلا إلى الأمير، هو العقيد مينوفيل *Menouville* ، فوصل وبصحبته طبيب ترجمان في 24 ديسمبر إلى معسكر، فاستقبل فيها استقبالا حسنا وقدمت له دار يسكنها.

في نهاية شهر سبتمبر قام الأمير عبد القادر بحملة استمرت 14 يوما في جنوب التيطري وفي الصحراء، وبعد أن انتهت هذه الحملة، توجه إلى تاقدامت، وكتب من هناك رسالة وجه نسخا منها إلى وكيله في وهران والحاكمين العربيين في كل من تلمسان ومعسكر. فكان على وكيله في وهران أن يطلع الجنرال بوجو على محتوى هذه الرسالة، التي تقدم لنا فكرة معتبرة عن مدى نفوذ الأمير بين العرب. وهذا أهم ما جاء فيها:

"خرج الأمير بعسكر كبير إلى أراضي الجعافرة على بعد 25 ميلا جنوب معسكر، فاكتسحها في سيره السريع، وتم له إخضاعهم ، فقدم له كل واحد منهم حصانه دليلا على خضوعه لسلطته. وأقام الأمير يومين في أراضيهم وأمرهم أن يدفعوا له 100 حصان ، وترك فيها خليفته سيدي الحاج مصطفى، ثم سار بمجموع جيشه، وتوجه إلى الصحراء إلى قبائل أولاد عباد وأولاد عكراد حيث يجتمع العرب من داخل البلاد ومن عين ماضي لبيع القمح. واستطاع بسيره الطويل السريع مفاجأة عدد كبير من القبائل ومهاجمتها حتى إنها لم تجرؤ على مقاومته. وكان قد أمر رجاله أن يمتنعوا عن السلب والنهب وأن يحترموا النساء. وبهذه المعاملة النبيلة استطاع أن يكسب مودة العرب ويضمهم جميعا إلى صفه. وبعد ذلك وزعت مناشير العفو في جميع الجهات، فخضعت له القبائل الكبيرة المذكورة آنفا وتعهدت بدفع عشوز السنوات الخمس الماضية. ولما كان قد طلب من عرب الصحراء أن يقدموا له قائمة بأملاكهم، فقد اتضح له أنهم يملكون 12,000 جمل، فطلب الأمير منهم 1200، قدمت إليه في الحال. وعندما توجه من هنا إلى المنطقة الواقعة في جنوب المدية، خرج خليفته في البلاد بجيشه لاستقباله وانضم إلى جيشه."

كان الأمير عبد القادر يرى أنه من الضروري أن يرسل أيضا وكيلا له إلى الجزائر، ولذلك عين في أكتوبر 1837 قنصل الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية في الجزائر، السيد غرافيني *Garavini* وكيلا له 62).

كان القنصل الفرنسي عند الأمير، وهو العقيد مينوفيل، الذي حظي عموما باحترام كبير بصفته عسكريا من كتيبة المشاة 47 ، قد اعترته نوبة من الجنون في معسكر حتى إنه قتل نفسه

في جنونه يوم 24 أكتوبر بعد أن قتل مترجمه زكار قبل ذلك. كان مينوفيل قد وجد نفسه منذ مدة في حالة عصبية، خشي أن تكون مرضا. فقد تصور أن سكان معسكر يريدون أن يقضوا على حياته لأن ابن الأمير الوحيد قد مات أثناء معالجة الطبيب الفرنسي له. وعندما وصله في النهاية خبر مشاركة الكتيبة 49 في الهجوم على قسنطينة، اشتدت به علته، وارتمت إلى دماغه، فكان يصيح في مثل هذه الحالة من الجنون : " لقد ارتدت كتيبتي المجد، ولم يكن في وسعي أن أقودها !"

وبعد ذلك بقليل نفذ قراره المذكور آنفا. وكان قد ثار على زكار اعتقادا منه بأنه يتجسس عليه ويكتب تقارير عن تصرفاته. وما أن علم الجنرال بذلك، حتى أرسل رئيس أركانه، العقيد موسيون، إلى معسكر، ليسهر على تسوية الشئون الفرنسية.

أقام الجنرال بوجو في وهران حتى نهاية ديسمبر ليرى، كما كان يأمل، ثمار المعاهدة التي وقعها. وكان قد أمر قبل سفره بترقية رئيس الدوائر والزمالة، مصطفى بن إسماعيل، إلى منصب جنرال فرنسي، وهو منصب لم يكن من المتوقع أن يناله عربي أبدا، على أنه لم يكن لأي شخص من الأشخاص أن يعترض على ذلك، فقد كانت مواهبه ومساعدته الجوهرية، التي قدمها رجاله في الحملات الفرنسية المختلفة، تحظى باعتراف الناس عامة. وقد تذكر الجميع بهذه المناسبة أن المارشال كلوزيل قد صاح، وقد استاء من تصرفات جنرالاته أثناء حملته على تلمسان، وهو يشير إلى مصطفى وابن أخيه المزاري، متخذا من سيرهما نموذجا، قائلا: " هاهم الجنرالات الحقيقيون *! Voilà des vrais généraux*"

وفي شهر نوفمبر أرسلت فرنسا إلى الأمير عبد القادر هدايا كثيرة، تتكون من سيف وبندقية وبضعة مسدسات ومواعين القهوة. وكان النقيب سينار، مساعد الجنرال بوجو، هو الذي حملها إلى الأمير، وتلقى منه قبل سفره حصانا فخما.

هكذا كان يبدو أن هناك نوعا من المراعاة المتبادلة بين الجانبين، ومع ذلك فإن الصلح لم يمكنهما من المعاشرة وربط أواصر الصداقة، التي كانت منتظرة من معاهدة التافنة المبرمة بين الفرنسيين والعرب. لقد كانت العلاقات بين الأمير والجنرال ديميشيل مختلفة تماما، كانت هناك في ذلك الحين ثقة متبادلة بين الجانبين، فساد الأمن في المقاطعة، وعرفت الحركة التجارية نشاطا كبيرا.

في بداية يناير 1938 اتجه الأمير عبد القادر إلى المدية ومنها إلى حمزة بجيش قوامه حوالي 5000 آلاف رجل، من بينهم 1800 من الزواوة و 600 من السباهية (الصبائحية)، سلحهم

بالسيوف، ولكنهم لم يكونوا بعد يعرفون طريقة استعمالها كما ينبغي. وسار حتى برج حمزة على مقربة من ممر جبلي، يطلق عليه اسم باب الحديد، هو الحد الفاصل بين مقاطعة الجزائر ومقاطعة قسنطينة. وهناك حاول أن يجمع من العرب عشور السنوات الخمس الماضية، غير أن قبيلة وادي الزيتون امتنعت عن الدفع، فأجبرت عليه وتمت معاقبتها.

و عندما كان الأمير عبد القادر في حمزة، طلب حضور وكيله غرافيني من الجزائر ليحدثه بصورة أكثر تفصيلا عن الشئون الفرنسية، فارتكب غرافيني خطأ، وهو أنه لم يخبر الحاكم العام بسفره وتقدم إلى الأمير عبد القادر بصفة رسمية في زي قنصلية أمريكا الشمالية. فكان هذا إلى جانب بعض الأفعال، التي قام بها اليهودي بن دوران، سببا في عزل غرافيني من منصبه كقنصل أمريكا الشمالية وأمر بطرده من المستعمرة. وبعد هذه الحادثة أصبحت شئون الأمير كلها بيد الداهية بن دوران.

عندما انتشر خبر اقتراب الأمير عبد القادر، نشأت حركة خطيرة بين العرب الذين كانوا يسكنون المناطق المحيطة بالجزائر، ولذلك وجد الحاكم العام نفسه مجبرا على إرسال الجنرال روليير إلى الميدان وأمره أن يضرب معسكره بين وادي الخضرة والحميز. كانت هذه هي العلاقات الأولى بين الأمير وبين الحاكم العام الجديد، ولم يكن يظهر فيها ما يدل على أنه يثق به أو بمعاهدة التافنة ثقة كبيرة.

لم تكن شروط معاهدة التافنة في أثناء ذلك قد تحققت كلها، فالفرنسيون لم يتم لهم بعد قد احتلال البليدة والقليعة ، وكان الأمير قد تباطأ في دفع تكاليف الحرب، التي تم الاتفاق عليها. وكان يبدو أيضا وكأن هناك اختلافا حول الحدود المحيطة بالجزائر، يعود سببها نوعا ما إلى اختلاف اللغتين التين كتبت بهما المعاهدة، بحيث رسم كل طرف حدوده على طريقته الخاصة. قد يعود هذا إلى سهو وقع من قبل المترجم أو يعود إلى انعدام المعرفة الطوبوغرافية الدقيقة لدى المتعاقدين، وكتابة المعاهدات تقدم لنا أكثر من مثل على ذلك. ولم يتم العمل بكلمات المعاهدة كما تضمنها النص الفرنسي فيما يتصل بحرية التجارة، فقد منع الأمير عبد القادر عربه من بيع بعض السلع الجوهرية الأكثر ضرورة، مثل الماشية وما شاكل ذلك. وكان القناصل العرب المعتمدون في المدن الفرنسية بصرف النظر عن ذلك قد طالبوا بالاحترام الصارم لبنود المعاهدة، بينما لم يكن للقنصل الفرنسي في معسكر سوى نفوذ قليل أو لم يكن له نفوذ على الإطلاق. وكان الموقف، الذي اتخذه الأمير عبد القادر، يبدو في الحقيقة أن الفرنسيين تابعون له أكثر مما هو تابع لهم !

لقد اعتقد الأمير عبد القادر أنه سيرفع من مكانته ومكانة شعبه إذا ما هو أرسل سفيرا إلى باريس. وهكذا عين أمين سره، بن عراش النبيه، الذي كلف في السابق بمهمة مماثلة، بهذه المهمة، فسافر من الجزائر في 3 مارس إلى باريس محملا بهدايا كثيرة إلى ملك الفرنسيين. وفي باريس استقبله الملك هو وحاشيته كما استقبله الوزراء استقبالا حسنا. وبعد إقامة في العاصمة الفرنسية استمرت ثلاثة أشهر عاد إلى إفريقيا (الجزائر)، وقد أقام علاقات مهمة ونافعة وكان على العموم راضيا عن الاحترام الذي حظي به سيده في شخصه.

وحين كان الأمير يقضي فصل الشتاء في المدية، قرر توسيع إيالته في الشرق أيضا، فأمر البركاني بالقيام بغزوة بالقسم الجنوبي من مقاطعة قسنطينة، فقابله الفرحات (فرحات)، المعروف باسم ثعبان الصحراء بضع مئات من الفرسان، وانضم إلى جيشه. وكان هذا هو نفس المشايع، الذي وجد نفسه بجموعه الغفيرة قرب من قسنطينة، وكان ذلك بعد احتلالها بفترة قليلة، فادعى حين رأى أن المدينة قد فتحت، أنه جاء لمساعدة الفرنسيين، وقد استقبلوه أيضا استقبالا حسنا. ووسع البركاني غزوته في المقاطعة، فاتجه نحو مدينة بسكرة. فخضع له العرب في كل مكان ودفعوا له العشور. وتسلم الشيوخ، الذين بايعوا الأمير عبد القادر طوعا، برانس حمراء. وكان الجنرال نيغريي *Negrier* ، الذي كانت له القيادة في قسنطينة، قد خرج في الوقت نفسه إلى الميدان، ولما كان أحمد باي يقيم مع فصائل من القبائل والكراغلة الأجراء في القسم الشرقي من المقاطعة، فقد دمرت البلاد الشقية في تلك الآونة من ثلاثة أطراف. وعاد البركاني في نهاية شهر ماي إلى المدية حاملا معه غنائم كثيرة.

احتل الفرنسيون في غضون ربيع سنة *1838* مدينتي البليدة والقليعة، فغادرهما سكانهما عند اقتراب الجيش الفرنسي وهاجروا بأملاكهم إلى المدية، ولم يكن النزاع حول الشرق وحمزة قد حسم بعد.

واتجه الأمير من المدية إلى تاقدامت، وبدأ يستعد للهجوم على مدينة عين ماضي، التي تقع في جنوب الجزائر على بعد حوالي خمسين ميلا. وترك تاقدامت في *11* من شهر يونية بجميع مشاته المأجورين، الذين كان عددهم قد وصل *2500* رجل، وأخذ معه من تلمسان إضافة إلى ذلك مدفع هاون ومدافع أخري صغيرة وكبيرة، وقد حمل ما يحتاج إليه الجيش من مئونة وماء على ظهر *1800* جمل. وسار بهذه القوة إلى عين ماضي، التي تعد من أقوى المدن وأهمها في داخل إفريقيا الشمالية . وهي المكان الرئيسي في أراض كبيرة خصبة، وحاكم عين ماضي يسيطر أيضا على ثماني مدن أخرى. وموقعها حصين بطبيعته، ثم إنها محاطة بالخنادق

والأسوار، وهذه الأسوار، فيما يرويه العرب، عريضة بحيث يُسير فوقها أربعة فرسان جنبا إلى جنب. ولا بد أن يزيد احتلال الأمير عبد القادر لمدينة من هذا النوع من سلطته على العرب، ومن الممكن أن تكون له المعقل الحصين الآمن في حالة ما إذا قطع علاقاته بفرنسا. ولذلك كانت استعداداته لهذه الحملة غير عادية، وقد برهن في تنفيذ ذلك على ما كان لديه من صبر وصمود، كانا ضروريين لنجاح مثل هذا المشروع. كان حاكم عين ماضي هو المرابط التيجاني، وكان رجلا شابا غنيا شجاعا، لديه *900* من المشاة المسلحين للدفاع عن أسواره. وكانت قبائل البدو الرحل في المناطق المجاورة تدين له بالطاعة.

لم يكد الأمير يصل إلى المدينة، ويأمر قواته بالهجوم عليها، حتى لاحظ أنه عاجز عن أخذ المدينة دون محاصرتها. لذلك ضرب الحصار حولها من جميع الجهات، واستولى على المنابع المهمة، وطلب من قائده البركاني أن يلتحق به بالقوات التي نهب بها مقاطعة قسنطينة. ودافع التيجاني خلال ذلك عن نفسه خلف أسواره، وقيل أكثر من مرة أن الأمير عبد القادر قد مني بهزيمة كبيرة وأعيد على أعقابه تماما. كان عليه أن يرسل كل قواته ليتمكن من احتلال المدينة، وأمر أكثر من مرة بشراء البارود والرصاص والذخيرة من الفرنسيين. وحاول فتح ثغرة في الأسوار باستعمال الألغام. والواقع أننا لا نستطيع أن نكون من الحكايات والأخبار المختلفة المتضاربة تصورا، يمكن الاعتماد عليه لا عن المحاصرة ولا عن طبيعة نهايتها. وأخيرا وبعد أن أقام الأمير *8* أشهر أمام أسوار عين ماضي، وصلت رسالة إلى الحاكم العام في الجزائر يخبرها فيها بأنه أصبح في *10* من شهر يناير سيد المدينة.

وكان في شهر فبراير قد انتقل إلى مليانة، وأقام بها الأفراح والحفلات العامة احتفالا بما أحرزه من نصر.

وهنا استقبل ضابطا فرنسيا من هيئة الأركان، وهو الرائد دي سال *de Salles*، كان الحاكم العام قد أرسله إليه، وكلفه بمهمة معرفة موقفه من رغبة الفرنسيين في فتح طريق بين الجزائر وقسنطينة يمر عبر حمزة وباب الحديد. فأجابه الأمير بأنه فهم من معاهدة التافنة أنها في مصلحة الجانبين، وأنه ينتظر من الفرنسيين ألا يقوموا بشيء يتنافى مع مصالحه كما لا ينوي هو أيضا القيام بما من شأنه أن يعترض طريق مصالحهم. أما فيما يتعلق بما طلب منه، فإنه يتمسك بما قاله، وأنه اللحظة عاجز عن الحديث عما في ذلك من أخطار، فليس له سلطة مطلقة على القبائل، التي سيمر الطريق بمناطقها، ولكنه يتوقع منها مع ذلك أن تمانع في تنفيذ هذا المشروع.

ويبدو أن هذا الجواب الديبلوماسي قد حمل المارشال فالي على التخلي مؤقتا على الأقل عن هذا المشروع. -

هكذا استمر الأمير عبد القادر في توسيع رقعة سلطته في إفريقيا الشمالية، وهو يحاول أن يحافظ على وضعه، الذي يجعله متفوقا على الفرنسيين، ويسعى في الوقت نفسه إلى إقامة علاقات سياسية مع المغرب.

لقد سعى إلى العثور على موارد في بلاده، كان في غنى عنها قبل ذلك، فأعاد بناء مدينة تاقدامت، وأقام حسب أقوال بعض الفارين معملا لسبك المدافع في تلمسان وبدأ في بناء مثيل له في مليانه. وقد طلب من الجزائر آلة لضرب السكة إضافة إلى آليات مختلفة كما أوصى بجلب عمال وفنيين من أوروبا، يلزمهم بمساعدته في العمل بالمنشآت الجديدة المختلفة، التي يريد بناءها.

كان فكره الخلاق يكشف له باستمرار عن وفرته وثرائه، وكانت مطامحه كلها متجهة إلى أن يجعل من شعبه أمة. وتتمثل سياسته في أن يرفع نفسه عن طريق علاقته بفرنسا، ويتمنع بالمقابل أي تقارب بين أمته وبين الفرنسيين حتى لا تقوى الحركة التجارية المشتركة. وبذلك يكون مستعدا بصورة دائمة لقطع علاقاته بفرنسا. ومن المرجح أن وقوع ذلك لم يعد بعيدا. إن ظلت السياسة الفرنسية في إفريقيا (الجزائر) تواصل نظام هذا التوسع الكثير التكاليف، القليل الفائدة، بحيث يشمل نقطا أخرى، يبدو أن الحكومة في الوقت الأخير تريد تبنيها. ولذلك لم يكن في موقف الأمير عبد التادر من الفرنسيين ما يدل على أنه ينوي إقامة علاقات مستمرة ودائمة معهم، وهو ما لم يكن يتلاءم مع مصالحه الحقيقية أيضا. وأفضل ما يناسب مشاريعه هو تناوب الحرب والسلم، ذلك أن محاربة المسيحيين أفضل عمل بالنسبة لأبناء شعبه، والحرب هي أحسن وسيلة يكتسب بها مؤيدين جددا ــ والسلم مفيد وضروري بالنسبة إليه لينظم الشئون الداخلية ويحافظ على آلاته الحربية ويزيد من عددها عن طريق العلاقات التجارية مع فرنسا. فإذا ما نشبت الحرب مرة أخرى، فمن المؤكد أن الفرنسيين سيعرفون أن قوة الأمير عبد القادر أكبر من أي وقت مضى.

الهوامش

1) يقول فاغنر (144/3) أقر لقب الداي بطلب من بابا علي، الذي ولي الحكم بعد إبراهيم باي، ومنذ ذلك الحين أصبح الدايات مستقلين عن الباب العالي . وقد جاء في قاموس تسينكر التركي العربي الفارسي ***J.Th. Zenker, Türkisch- Arabisch – Persisches Handw?rterbuch, Hildesheim. New York, 1979, 1/422*** أن كلمة الداي تعني الخال، لكنها كانت في الماضي تطلق تحببا على كبار السن، خصوصا بين الانكشاريين في الجزائر، الذين كانوا يسمون الضابط القائد ونائب الملك أو الباشا، ومن هنا جاء لقب الداي ـ المترجم

2) لم يذكر المؤلف المصدر العربي المترجم إلى الفرنسية أو إلى لغة من اللغات الأوربية ، الذي استمد منه نصه هذا. أنظر النص العربي الكامل لحديث النعمان مع ملك الفرس في كتاب الألوسي، بلوغ الأرب ، 1314، 148/1 وما بعدها.

3) الكراغلة هم أبناء الأتراك والحضر ـ المؤلف. أنظر أيضا ما يقوله ليون روش عن الكراغلة ***Léon Roches, Trente-deux ans a travers l'Islam, Paris 1884 , p.134.*** ـ المترجم.

4) وقعت الزالر في أيدي الفرنسيين في الخامس من شهر جويلية 1830ـ المؤلف

5) قتل يوم 12 أكتوبر 1837 قرب مدينة قسنطينة ـ المؤلف.

6) هذه الحصول، التي كثيرا ما يستعملها الفرنسيون في شمال إفريقيا، ترسل جاهزة من فرنسا ويقدر ثمن الواحد منها بحوالي 3000 فرنك للبيت الواحد. وقد أقامها الفرنسيون لقائدتها في دفاعهم عن أنفسهم ضد العرب، الذين لا يملكون قذائف ـ المؤلف.

7) يبدو أن هناك تحريفا في هذا الاسم، فاسمه في المصادر الأخرى هو القاضي بن الطاهر، ونجد التحريف نفسه في كتاب فاغنر ***Moritz Wagner, Reisen in den Regentschaft Algier in den Jahren 1836,1837, 1838, Leipzig 1841***، 207/3، وانظر شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة الدكتور أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر 1974، ص 65.

8) انظر تشرشل، المصدر السابق ، ص 66 ـ المترجم.

9) في الأصل: ليرات ـ المترجم

10) كذا في الأصل، ولعله مرسلي أو المرصالي، أنظر مجلة التاريخ، المصدر السابق ص 40 ـ المترجم.

11) يقصد المؤلف ضريح سيدي أبي مدين، ينظر أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، القاهرة 1963، ص 191 ـ المترجم.

12) يقصد المؤلف، فيما يبدو، سيدي حمادي السقال، ينظر مذكرات الأمير عبد القادر، دار الأمة، 1995، ص 144، وتشرشل، المرجع السابق، ص 84.

13) ينظر تشرشل، المرجع السابق، ص 66 وما بعدها، يبدو هنا وكأنه ينقل عن دينزن، أو هما يستعملان مصدرا واحدا ـ المترجم.

14) في الأصل تيستيد ورستيد ـ المترجم

15) في الأصل سيدي معزوف ـ المترجم

16) ينظر تشرشل، ص 68 ـ المترجم

17) في الأصل السبعة ـ المترجم

18) في الأصل توبن، وهو فيما يبدو تحريف لاسم الطيب، ويسميه تشرشل، ص 73، قدور، واسمه عند فاغنر، 207/3، بتونة ـ المترجم.

19) كان الأمير عبد القادر قد طلب 1000 في مقابل كل أسير ـ المؤلف.

20) أنظر مجلة التاريخ، عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر 1883-1983،ص 142 وما بعدها.

21) ذكر عند تشرشل (ص 76) باسم موردكي، وانظر مجلة التاريخ، المرجع السابق، ص 131 ـ المترجم.

22) ينظر مجلة التاريخ، المرجع السابق، ص 145 وما بعها.

23) الآية 45/35ـ المترجم

24) الآية 8/62 ـ المترجم

25) يشير عبد القادر بهذا إلى محاصرة الجنرال بونابارت لسان جان داكر *Saint-Jean d'acre* والانتصارات التي أحرزها خلفاء الرسول (الأعظم) ـ المؤلف.

26) هو ولد مولود، شيخ قبيلة الغرابة، أنظر مجلة التاريخ، المرجع السابق ، ص 147 هامش 2، ومذكرات الأمير، المصدر السابق ص 171، هامش 2ـ المترجم.

27) ينظر المرجع السابق ـ المترجم.

28) أنظر نص المعاهدة عند تشرشل (ص 90 وما بعدها) للمقارنة، ومجلة التاريخ، ص 132 وما بعدها ـ المترجم.

29) وهي أيضا مما يتميز به الأمير ـ المؤلف.

30) الواقع أنه شيخ قبيلة فليتة، أنظر تشرشل، المصدر السابق، ص 61، وانظر فيما يتصل بمصطفى بن إسماعيل، مذكرات الأمير عبد القادر، ص 150 ، وينظر فيما يتصل بقدور بن المرلي فاغنر 444/3، وليون روش، المصدر السابق، 144/1 وما بعدها ـ المترجم

31) نشرت رسالة المزاري هذه تحت رقم 12، وكذلك الرسالة رقم 9 في رسائل الأمير إلى ديميشيل، أنظر مجلة التاريخ، المصدر السابق، ص 158 ـ المترجم.

32) قبيلة حجوط ألد أعداء الفرنسيين في منطقة الجزائر ـ المؤلف.

33) كيل القمح 80 رطلا، وكيل الحنطة السوداء 60 رطلا. ويساوي البوجو فرنكا و80 ـ سنتيما ـ المؤلف.

34) تأسس هذا المكتب في خريف 1832 بالجزائر، وكانت نقطته المركزية الشئون العربية التي تترجم وتقدم يوميا إلى الجنرال الحاكم لإصدار حكم بشأنها. فاتخذت علاقة الفرنسيين بالعرب لذلك نظاما أكثر اتساعا، كانت في حاجة إليه حتى ذلك الحين. وكان المكتب قد أنشئ على أساس اقتراح تقدم به الجنرال تريزيل *Trezel*. وكان النقيب (العقيد الآن) دي لا مورسير *De Lamorciére* أول رئيس لهذا المكتب ـ المؤلف.

35).من مواليد تونس، يتكلم العربية والفرنسية بسهولة في كل منهما ـ المؤلف.

36) أنظر تشرشل، ص 93 وما بعدها.

37) أنظر بيرنت، الأمير عبد القادر، دار هومة 1998، وكنت قد أشرت في مقدمة الكتاب إلى أن فاغنر لم يتحدث عن بيرنت، ثم اتضح لي أنه ذكر اسمه من بين أسماء الأوربيين، الذين ذكرهم في كتابه المذكور ، 453/1، ولكنه ذكره في الملحق وفي القسم الجغرافي وهو يتحدث عن جبال القبلة، ولم أنتبه إليه لأنني كنت أكثر اهتماما بالجانب التاريخي مني بالجانب الجغرافي. وقد تحدث عنه أيضا ليون روش، الذي لم أتمكن من

الاطلاع عليه أثناء الترجمة وقبل نشر الكتاب، مرتين، وذكر أن بيرنت راسله بعد عودته إلى وطنه، المرجع السابق 222/1 و243 ـ المترجم.

38) كان الحاكم العام قد عين هذا الضابط الفرنسي، الذي بدأ تنقله في المراتب بإفريقيا، أغا العرب في منطقة الجزائر ـ المؤلف.

39) هو ابن المارشال ـ المؤلف

40) يبدو أن المؤلف وبيرنت، الأمير عبد القادر ، ص 92، ينفردان بذكر هذه التفاصيل، أنظر للمقارنة تشرشل مثلا، ص 97 وما بعدها.

41) لقد ارتبطت هزيمة المقطع فيما بعد باسم الجنرال تريزيل بصورة دائمة. وعندما قاد هذا الجنرال فرقة من الجيش في حملة *1837*، لم يكن الجنود يثقون به، وقد أطلقوا عليه اسم " المنكود "، وحين يعرف المرء عن جنرال أن الحظ كان يعاكسه، عندئذ يصبح ذلك حقيقة. كان للجنرال تريزيل منظر حربي، يتسم مظهره الخارجي بالحقارة والصغر والنحافة والقبح والتهاون في لباسه. له حفرة تحتل مكان إحدى عينيه، وكان قد أضاعها في معركة واترلو، وهو هادئ في المعركة وشجاع رغم وجود من هم أكثر شجاعة منه، وهو معروف فوق ذلك بنزاهته ـ المؤلف، ينظر أيضا ليون روش، المرجع السابق 146/1 وما بعدها ـ المترجم

42) وهو الذي قاد فرق الجيش عند الهجوم على قسنطينة وتلقى الكتفية هناك. وقد نال في إفريقيا خلال سبع سنوات كل الدرجات العسكرية ابتداء من المهندس الملازم الثاني ـ المؤلف.

43) يحفظ القمح في مطامير أو هري (سيلو) تحت الأرض، وعند اقتراب العدو تغطى هذه المطامير والقباب ان يحرث فوقها لإزالة كل الر ها. ويكتشفها الأهالي عن طريق غرز عصا في الأرض، ثم يسمعون المكان، الذي تحدث فيه الضربة صدى ـ المؤلف.

44) ذكر المؤلف في مكان آخر أنه ابنه ـ المترجم.

45) يوسف هو ذلك التركي التونسي، الذي خلع الأمير بوكلرـ موسكاو *Pückler – Muskau* عليه صفة المغامر، وهو قائد للخيالة، يتسم بالشجاعة والطموح والحركية، قدم للفرنسيين خدمات جليلة. ولو أن المارشال كلوزيل استطاع احتلال مدينة قسنطينة، لعين يوسف بايا لهذه المدينة. وفي الحملة الأخيرة لم تكن هناك رغبة في أن يكون هناك باي في صحبة الجيش. وكان يوسف في أثناء ذلك في باريس، وعندما التقيت به في وقت متأخر عبر عن ألمه من عدم مشاركته فيها وقيادته لسباهيه بقوله: " كان دمي، يا سيدي، ناريا خلال الحملة *Monsieur, mon sang était du feu pendant l'expédition* لقد عاد الآن إلى سباهيته برتبة ملازم أول ـ المؤلف. أنظر أيضا مذكرات الأمير عبد القادر، ص 156، هامش 2، وفاغنر 236/1 وما بعدها ـ المترجم .

46) كانت للرائد ريشبانش، وهو ابن الجنرال الشهير ريشبانس، شجاعة تصل حد الهوس، وقد سقط فيما بعد أمام قسنطينة، حيث كان من قواد طابور الهجوم، الذين ضحى بهم المارشال كلوزيل على جسر القنطرة ـ المؤلف.

47) صرح العقيد كومب *Compes*، الذي قتل فيما بعد في ثغرة قسنطينة، حول هذه القضية على النحو الآتي: لن أتفاوض مع الأمير إلا حين يكون رأسه فوق رمح *Je ne traiterai avec Abd-el-kader, qu'ayant sa tête sur une pique!* ـ المؤلف. نرى من هذا إلى أي حد يمكن أن يصل حقد المستعمر الدخيل على من يقاومه.. دفاعا عن وطنه وأصالته ! ـ المترجم

48) من الصعب معرفة خسائر العرب بدقة، لأنهم يعتنون بحمل موتاهم عن أرض المعركة. والجنرالات الفرنسيون يرتكبون خطأ تقديم منشورات مزخرفة، فمن الممكن أن يكون لذلك أثر سيء في نفس كل جندي شاب، حين تجعله يزعم بعد كل معركة عديمة الأهمية بأنه عاش معركة وحقق فيها بطولات كبيرة. فإذا ما وقع له فيما بعد ما يتطلب منه الشجاعة الحقيقية والجهد الكبير، فإنه قد يستكثر ذلك إلى حد كبير- المؤلف.

49) مات أثناء متاعب الحملة الأولى على مدينة قسنطينة - المؤلف

50) يسميه المؤلف هنا، بن مبارد، ولعل في الأمر خطأ مطبعيا - المؤلف.

51) من هذا نرى أن هذه الكتيبة، التي اتهمت فيما بعد أثناء حملة الجنرال كلوزيل على قسنطينة، كانت قد أظهرت بمجرد وصولها إلى إفريقيا بعض جوانبها السيئة. المؤلف.

52) لقد عانى الأمير عبد القادر هنا من جراء الانتقال من نظام حربي إلى آخر- المؤلف.

53) أرسل هؤلاء الأسرى إلى مرسيليا، ووضعوا في ثكنة، وبقوا فيها إلى أن تمت المعاهدة بين فرنسا والأمير عبد القادر عام في جويلية *1837* - المؤلف.

54) سمي هكذا بسبب الإبادة التامة، التي تعرض لها فيلق إسباني هاهنا - المؤلف.

55) هكذا كتب المؤلف هذه الكلمة، ولعلها محرفة عن مقرة أو شيء من هذا القبيل، وهو، فيما يتبين من خريطة المؤلف، واد صغير ينبع من مناطق بني ورنيد ويصب في وادي يسر - المترجم.

56) في نهاية سنة *1937* وقع مونسل في الأسر قرب مدينة الجزائر، ودفع رأسه ثمنا لأعماله الفظيعة - المؤلف. أنظر أيضا فاغنر. المرجع السابق 60/1 وما بعدها - المترجم.

57) أنظر تفاصيل أخرى في كتابي " الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان "، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989. ص 91 وما بعدها - المترجم.

58) يكتب فاغنر (217/3) هكذا الاسم بالحرف اللاتيني هكذا *Uad-el-Kaddarah* ، وله عند المؤرخين أكثر من صيغة في العربية، الخضرة والقدرة والقدارة مثلا - المترجم.

59) يطلق العرب على المساحة الرملية، التي تقع عند مصب التافنة، اسم رشقون، ولذلك لا ينبغي الخلط بينها وبين جزيرة رشقون - المؤلف.

60) ينظر تشرشل، ص 111 وما بعدها.

61) كذا في الأصل، واسمه عند ليون روش 402/1 هو سيدي الحبيب ولد الموهور، أما عند تشرشل (ص *132*) فهو الحاج الطيب لا غير - المترجم .

62) أنظر تشرشل، المصدر السابق، ص 167، ويتحدث ليون روش 166/1 عن وصول قنصل للأمير هو ممثل الأمة الأمريكية، مما جعل الناس يظنون أن الأمير عبد القادر بصدد إقامة تحالف مع الولايات المتحدة - المترجم.

فهرس الكتاب

طبع بمطبعة دار هومه– الجزائر
34، حي لابروبار – بوزريعة – الجزائر
الهاتف: 021.94.19.36 /021.94.41.19
الفاكس: 021.79.91.84/ 021.94.17.75
www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com

هكذا استمر الأمير عبد القادر في توسيع رقعة سلطته في إفريقيا الشمالية، وهو يحاول أن يحافظ على وضعه، الذي يجعله متفوقا على الفرنسيين، ويسعى في الوقت نفسه إلى إقامة علاقات سياسية مع المغرب.

لقد سعي إلى العثور على موارد في بلاده، كان في غنى عنها قبل ذلك، فأعاد بناء مدينة تاقدامت، وأقام حسب أقوال بعض الفارين معملا لسبك المدافع في تلمسان وبدأ في بناء مثيل له في مليانه. وقد طلب من الجزائر آلة لضرب السكة إضافة إلى آليات مختلفة كما أوصى بجلب عمال وفنيين من أروبا، يلزمهم بمساعدته في العمل بالمنشآت الجديدة المختلفة، التي يريد بناءها.

كان فكره الخلاق يكشف له باستمرار عن وفرته وثرائه، وكانت مطامحه كلها متجهة إلى أن يجعل من شعبه أمة. وتتمثل سياسته في أن يرفع نفسه عن طريق علاقته بفرنسا، ويمنع بالمقابل أي تقارب بين أمته وبين الفرنسيين حتى لا تقوى الحركة التجارية المشتركة. وبذلك يكون مستعدا بصورة دائمة لقطع علاقاته بفرنسا. ومن المرجح أن وقوع ذلك لم يعد بعيدا، إن ظلت السياسة الفرنسية في إفريقيا (الجزائر) تواصل نظام هذا التوسع الكثير التكاليف، القليل الفائدة، بحيث يشمل نقطا أخرى، يبدو أن الحكومة في الوقت الأخير تريد تبنيها. ولذلك لم يكن في موقف الأمير عبد القادر من الفرنسيين ما يدل على أنه ينوي إقامة علاقات مستمرة ودائمة معهم، وهو ما لم يكن يتلاءم مع مصالحه الحقيقية أيضا. وأفضل ما يناسب مشاريعه هو تناوب الحرب والسلم، ذلك أن محاربة المسيحيين أفضل عمل بالنسبة لأبناء شعبه، والحرب هي أحسن وسيلة يكتسب بها مؤيدين جدا ــ والسلم مفيد وضروري بالنسبة إليه لينظم الشئون الداخلية ويحافظ على آلاته الحربية ويزيد من عددها عن طريق العلاقات التجارية مع فرنسا. فإذا ما نشبت الحرب مرة أخرى، فمن المؤكد أن الفرنسيين سيعرفون أن قوة الأمير عبد القادر أكبر من أي وقت مضى.

دار هومه

للطباعة والنشر والتوزيع

34 حي لابروبار- بوزريعة- الجزائر

الهاتف: 36 19 94 021   19 41 94 021

الفاكس: 75 17 94 021   84 91 79 021

www.editionshouma.com

e-mail:info@editionshouma.com

ISBN: 978-9961-66-378-3 :ردمك



9 789961 663783